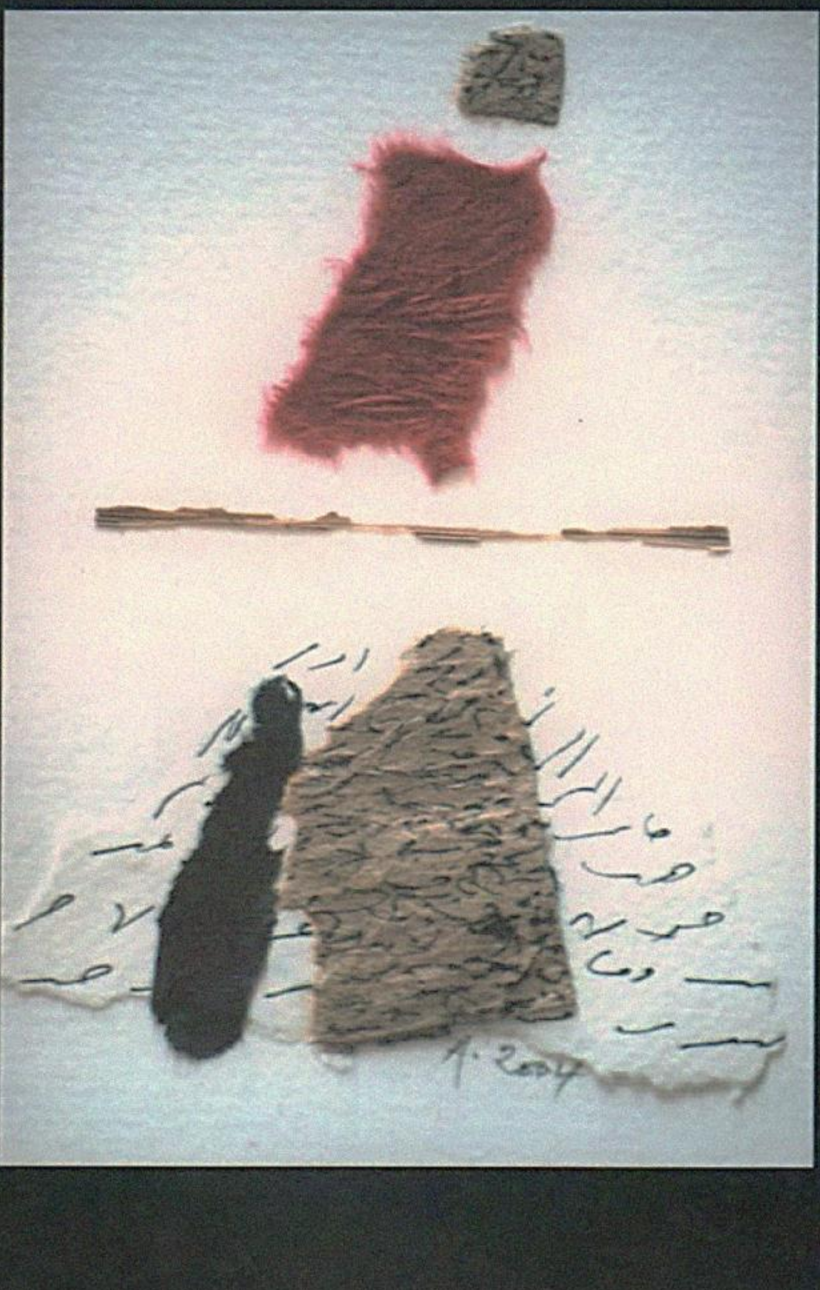
أدونيس

ديوان النثر العربي

الجزء الرابع



بدايات

أدونيس

ديوان النثر العربي

(الجزء الرابع)

(النثر الصوفي II)

الطبعة الأولى 2012

دار **بدايات**

سوريا ـ جبلة ـ مجمّع الروضة التجاري

هاتف: 807826 -41- 00963

دمشق، ص. ب : 30833

البريد الإلكتروني

bidayat2007@yahoo.es

أدونيس

ديوان النثر العربي

(الجزء الرابع)

(النثر الصوفي II)

بدايات 2012

أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي*

من أعطى نفسه الأماني قطعها بالتسويف والتواني.

*

أفواهُ قلوبِ العارفين فاغرةٌ لمناجاة القدرة.

*

الاعتكاف حفظ الجوارح تحت الأوامر.

*

من لم يسمعْ من نهيق الحمار ما يسمع من صوت العود ودواخل المغنّين فسماعه معلول.

*

الصوفيُّ من لا يملك الأشياء اختياراً، ولا يملكه شيء اقتهاراً.

*

شكرُ العامّة على المطعم والملبس، وشكرُ الخواصِّ على ما يرد على قلوبهم من المعاني.

*

من ادَّعى السماع ولم يستمع من صوت الطيور وصرير الباب وتصفيق الرياح فهو مفترٍ مُدَّع.

*

ما الخلق؟

- قوالب وأشباح تجري عليهم أحكام القدرة.

*

---

* أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي توفي سنة 373 هـ، أصله من القيروان.

أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصراباذي*

قيمة العابد بمعبوده، كما أنّ شرف العارف بمعروفه.

*

الأشياء أدلّة منه، ولا دليل عليه سواه.

*

دماءُ الأقرباء تتحرّك عند الالتقاء، ودماءُ المحبيّن تَجيشُ وتغلي.

*

أهل المحبّة واقفون مع الحقّ على مقام، إن تقدّموا غرقوا، وإن تأخّروا حُجبوا.

*

المحبّة مجانبة السلوّ على كلّ حال.

*

* نيسابوري الأصل والمنشأ والمولد، توفي سنة 367 هـ.

أبو الحسن علي بن إبراهيم الحصري*

علمنا الذي نحن فيه يوجبُ إنكار كلّ معلوم مرسوم، ومحو كل معلوم معلول. وما بان شيء فيمحى.

*

الصوفيُّ وجدهُ وجوده، وصفاتُه حجابه.

*

هو أعزّ من أن يَعزَّ على سواه، وأعزُّ من أنْ يذِلَّ على غيره؛ وأعزُّ من أن يذلَّ لغيره؛ بل هو أذلّ مالَه لمآله، وعزّز مالَهُ على ما لهُ. وليس لمن أعزّ معنى عزَّ به، ولا لمن أذلَّ معنىً ذلّ به؛ بل هو أظهر الجميع، ورسمَ بأنهم عزُّوا وذلُّوا. وذلك هو العزّ الذي لا يُرام.

*

* سكن بغداد، وصار شيخها، مات سنة 371 هـ.

أبو عبد الله الروذْباري*

مجالسةُ الأضداد ذوبان الروح، ومجالسة الأشكال تلقيح العقول.

*

لو تكلّم أهل التوحيد بلسان التجريد ما بقي محبٌّ إلا مات.

*

عِلْمُنا هذه إشارةٌ، فإذا صار عبارةً خَفِيَ.

*

الذّوق أوّل المَواجيد؛ فأهل الغيْبةِ إذا شربوا طاشوا، وأهل الحضور إذا شربوا عاشوا.

*

* مات بمدينة صور، سنة 369 هـ.

أبو الحسن علي بن جعفر الخرقاني*

أُطلب الغصّة لتظهر الدموع، فإنَّ الله يحبُّ الباكين.

*

قول أبي يزيد: أريد أن لا أريد، هو إرادة.
قول الشبلي: أطلب أن لا أطلب، هو طلب أيضاً.

*

منذ أربعين سنة ونفسي تطلب مني جرعة ماء بارد، أو جرعة لبن مخيض، وأنا لم أمكّنها من ذلك إلى الآن.

*

أنور القلوب ما ليس فيه للخلق وجود،
وأحسن الأعمال ما ليس فيه تفكر بمخلوق،
وأحل الأرزاق ما بذلت جهدك في اكتسابه،
وأحسن الرفقاء من كان حياته مع الله.

*

– ما يقول الشيخ في حق أبي يزيد البسطامي قدس الله سره؟**
– الشيخ هو رجل من اتبعه اهتدى، ومن رآه اتصل بسعادة لا تخفى.

---

* أصله من خرقان، قرية من قرى بسطام، توفي سنة 425 هـ، وله قيمة كبرى في الطريقة النقشبندية.

** السلطان محمود بن سبكتكين يسأل الخرقاني.

- كيف ذلك، وأبو جهل رأى رسول الله ولم يخلص من الشقاوة؟
- إن أبا جهل ما رأى رسول الله، وإنما رأى محمد بن عبد الله، ولو أنه رأى رسول الله لخرج من الشقاوة، ودخل في السعادة.

*

إلهي، لا ترسل ملك الموت لي؛ لأنني لن أمنحه روحي. فلم آخذها منه؛ حتى أردها إليه.

لقد وهبتني أنت الروح، ولن أمنحها لأحد سواك.

*

استغرقتُ في فنائي، حتى بقيتُ بك. كما لو أنني لا أعرفكَ مثقال ذرّة.

*

نُوديت في سري: ما الإيمان؟

فقلت: يا إلهي! إن الإيمان الذي أنعمت به عليَّ كامل.

قال: فنوديت: أنت أنا، وأنا أنت.

وأنا أقول: ألست أنت الله، وأنا عبد عاجز.

*

حين وصلتُ إلى العرش، كان الملائكة يصطفّون، ويتباهون قائلين: نحن الملائكة المقرّبون، والمعصومون.

فقلت: نحنِ الربانيون. فخجلوا جميعاً، وسُرَّ المشايخ بإجابتي عليهم.

*

فتح الله باب الفكر عليّ قائلاً: لقد اشتريتك من الشيطان، وبشيء لا يوصف، فتعلّم كيف تحافظ عليه.

*

جُمعتُ مثل حفنة تراب. ثم هبّتْ ريح عاصفة، وملأت السموات السبع والأرض بي. واختفيتُ أنا.

*

وهبني الله قدماً، فذهبت من العرش إلى الثرى بخطوة، وعدت من الثرى إلى العرش. ثم علمت أنني لم أذهب إلى مكان قط.

فنادى الله: من له قدم مثل هذه إلى أين يصل؟

فقلت: ما أطول سفرنا، وما أقصره. فما أكثر ما طفت في إثرك.

*

حلَّ بي شيء من عند الله؛ فاتجهت إلى الله، وقلت: إلهي! إن أنعمت عليَّ بشيء فانعم عليَّ بشيء لم يكن قد ورد على لسان أحد قط منذ عهد آدم وحتى القيامة. فإنني لا أستطيع تناول بقايا أحد قط.

*

لا أشعر بالسكينة كلَّ ليلة، ما لم أفتحْ حسابي مع الله عند صلاة العشاء.

*

إن غفر الله يوم القيامة لجميع من عاصروني، من حيث تشرق الشمس إلى حيث تغرب، لا أبالي؛ لما لي من همة كبيرة في بلاط الحق.

*

أنا باق فان، وسامع فان، ومتحدث فان.

*

لن أكفَّ عن العمل، ما لم أر أنني رفعت يدي في الهواء، وجعلت الهواء في يدي سبيكة ذهب.

ولن أمد يدي لها، لأنها كرامة، ومن تخلى عن الكرامة، سُدَّ أمامه ذلك الباب، ولم يُفتح له ثانية.

*

إما أفنى حتى أختفي في العالمين، أو أبقى فأكون أنا الجميع.

*

إيّاكَ أن تكون ميّت القلب.

*

اعلموا أن الرجل الذي أجرؤ على طلب الخبز منه، أفضل من الملائكة.

*

يصوم الناس النهار، ويقومون الليل، على أمل الوصول إلى المنزل.
وأنا نفسي المنزل.

*

شاهدت الآدميين والملائكة والجن، والجافل والطائر، وجميع الأحياء، وكل ما خلقه الله. وأستطيع أن أخبرك عن كل شيء في أنحاء الدنيا، فضلاً عما يوجد حولنا.

*

إن الشوكة يُشاكها إصبع رجل من تركستان إلى الشام، تَخِزُني.
وإن تعثَّر قدم رجل من بلاد الترك حتى الشام في حجر، يؤذيني.
وإن حَزِنَ قلبٌ، فهو قلبي.

*

بداخلي بحر، كلما هبّتْ عليه الرياح، تصاعد منه الغيم والمطر، فتمطر من العرش إلى الثرى.

*

أنا عبد فكرة السموات السبع والأرض، كل ما أقوله نعت لهما.
وليس لي أسفل أو أعلى، أو أمام أو خلف، أو يمين أو يسار.

*

الغيب شجرة، وقد جلست على أغصانها.
واستظلَّ بها الخلق جميعهم.

*

لا يمكنني التحدث إلى الخاصة؛ لأنهم مزقوا الحجاب.
ولا يمكنني التحدث إلى العامة؛ لأنهم لا يسلكون الطريق إليه.
ولا أستطيع الحديث إلى ذاتي؛ لأنها تزهو، ولا أملك اللسان الذي أتحدث به إليها.

*

مر بي وقت، بكت فيه المخلوقات جميعها عليّ.

*

لقد أُحضر كفني من السماء منذ عشرين سنة، وألقي على رأسي، فأخرجت رأسي من الكفن، وتحدثت.

*

لو لم يستحوذ الحق تعالى على محبتي، لما جعلني محبوب الخلق.

*

ابق في مكانك كجمرة من نار تلقيها في القش.

*

صدر نداء من الحق تعالى:
إن جئتني يا عبدي حزيناً، سررتك.

وإن جئتني محتاجاً، أغنيتك.
وإن فنيت عن نفسك، سخَّرتُ لك الماء والهواء.

*

يداهم الوقت كل شيء، ولا يداهمه شيء. والخلق أسرى الوقت.

*

أنا لست عابداً ولا زاهداً ولا عالماً ولا صوفياً. إلهي! أنت واحد وأنا واحد لوحدانيتك.

*

عجبت لأمر هذا الإله الذي وضع، منذ البداية، كل هذه العظمة داخل هذا الجلد دون علمي.
ثم أطلعني عليها في النهاية؛ فأصبت بالحيرة،
فيا دليلَ المتحيّرين زِدْني تحيراً.

*

شعر رأسي العرش، وقدماي تحت الثرى، ويداي المشرق والمغرب.

*

الطرق إلى الله لا يمكن حصرها. كما أن لكل عبد طريق إلى الله. وفي كل طريق سلكته رأيت قوماً فقلت: إلهي! أرشدني إلى طريق، أكون فيه أنا وأنت، ولا يكون فيه خلق. فَيَسَّرَ لي طريق الحزن. فقلت: إن الحزن عبء ثقيل، لا يستطيع الخلق احتماله.

*

طلبت العافية، فوجدتها في الوحدة. والسلامة في الصمت.

*

تركت الدنيا لأهلها، وتركت الآخرة لأهل الجنة. وسرت إلى مكان لا سبيل لمخلوق إليه.

*

خرجتُ كما تخرجُ الحية من جلدها.

*

قال أبو يزيد: إنني لست مقيماً ولا مسافراً. وأنا مقيم وأسافر في وحدانيته.

*

لن أقول يوم القيامة: لقد كنت عالماً أو زاهداً أو عابداً. بل أقول: أنت واحد، وقد كنت من أحديتك.

*

رأيت في المنام أنني وأبا يزيد وأويس القرني كنا في كفن واحد.

*

لم يخفق قلبي للعشق، ولم أجد محرماً في العالم بأسره، أتحدث إليه.

*

يقول الناس: الله ثم الرزق،

ويقول البعض: الرزق ثم الله.

وأنا أقول الله دون خبز، الله دون ماء، الله دون شيء قط.

*

زهدت في ما سوى الحق، عندئذ وجدت نفسي.

*

إن وضعتني على بساط المحبة، ثملتُ بمحبتك.

وإن وضعتني على بساط الهيبة، جننت لقهرك، ولمّا يسطع النور، أكون أنا كلا الاثنين. وأنِّيَّتي أنت.

*

اتجهت إلى الله، وقلت: إلهي! تُنْقض الخصومات يوم القيامة، ولا تنقض الخصومة بيني وبينك.

*

إلهي! كل ما تقوله لي، أقوله لخلقك. وكل ما تمنحه لي، أمنحه لخلقك. إلهي! إنهم لا يقبلون حديثي عنك.

*

إلهي! يجلس الأنبياء يوم القيامة على منابر من نور، ويشاهدهم الخلق. ويجلس أولياؤك على أرائك من نور، ويشاهدهم الخلق. ويستغرق أبو الحسن في وحدانيتك، حتى يشاهدك الخلق.

*

إلهي! لا تجعل ثلاثة أشياء لي في يد الخلق: روحي، فقد وهبتني إياها، ولن أمنحها لملك الموت. وأنت معي ليلاً ونهاراً، وأي شأن للكرام الكاتبين بنا؟ ولا أريد سؤال منكر ونكير، حتى أمنحهما نور اليقين. وما داما لا يؤمنان بك، لا أرفع يدي عنهما.

*

إلهي! لا تدعني في مقام أقول فيه الخلق والحق، أو أقول فيه: أنا وأنت. وأبلغني مقاماً أفنى فيه، وتكون أنت الجميع.

*

مادام الاثنان متماثلين، فإن الواحد لا مثيل له.

*

خطوت أربعين خطوة وقطعت المسافة من العرش إلى الثرى في خطوة. أما الخطوات الأخرى، فلا يمكن وصفها.

وإن قلت لأحد: ليس هناك حجاب بين أبي الحسن وبين الله؛ ضاع قلبه، وزهقت روحه.

*

إلهي! إن آلمني جسدي، فإنك تشفيني.

وإن آلمتني أنت، فمن يشفيني!

*

إلهي! إن كان هناك جسد وقلب من نور، فهما لا يليقان بك.

فكيف بجسد مضطرب وقلب مشتت!

*

إلهي! أرسلت ملك الموت ليقبض روحي؛ وأقبض أنا روحه، ويُحمل كلانا إلى المقابر.

*

إلهي! هناك جمع يُبعثون يوم القيامة شهداء؛ لأنهم قُتلوا في سبيلك.

وأنا أبُعث شهيداً؛ لأنني قُتلت بسيف الشوق إليك وأصابني داء لا يزول. بحثت عن الداء فلم أجده. وبحثت عن الدواء فلم أجده لكنني وجدت العناية.

*

يطوف بعض الخلق حول الكعبة،

ويطوف البعض حول البيت المعمور في السماء،

ويطوف البعض حول العرش،

ويطوف الفتيان في وحدانيته.

*

من نظر إلى الله بالله، لا يرى الخلق.

*

مَثَل الروح كمثل طائر: له جناح في المشرق وجناح في المغرب، وقدم في الثرى، ورأس في مكان لا يمكن الاهتداء إليه.

*

من يشغل قلبه بما يوجب عليه الاستغفار، غير جدير بالمحبة.

*

لم أتقاعس عن العمل، منذ عرفت أن رزقي عليه.
ولم أعتمد على الخلق، منذ رأيت عجزهم.

*

نزل فتى بالبادية، ونظر إليها، وعاد، وقال: هذا المكان لا يسعني.

*

هناك رجل يذهب إلى مكة في ثلاثة أيام، ويعود.
ورجل يذهب في يوم وليلة.
ورجل يذهب في ليلة.
ورجل يذهب في طرفة عين.
والقدرة تذهب في طرفة عين وتعود.

*

إن عرفت الله تعالى بالعقل، حظيت بالعلم.
وإن عرفته بالإيمان، حظيت بالراحة.

وإن عرفته بالمعرفة عانيت الألم.

*

سأله عالم: أين مقرُّ العقل والإيمان والمعرفة؟

فقال: اشرح لي كنهها، أرشدك إلى مقرها.

فبكى العالم، وانزوى.

*

ما دمتَ طالباً للدنيا، تفرض سلطانها عليك. وحين تتصرف عنها، تفرض سلطانك عليها.

*

الفقير ليست له دنيا ولا آخرة، ولا يرغب فيهما؛ لأن الدنيا والآخرة أحقر من أن ينشغل بهما.

*

اجلسوا في الخلوة، واتجهوا إليّ.

*

الطريق طريقان: طريق الهداية وطريق الضلالة.

طريق الضلالة هو طريق العبد إلى الله.

وطريق الهداية هو طريق الله إلى العبد.

فمن قال: وصلت إليه، لم يصل.

ومن قال: وصَّلني إليه، فقد وصل.

*

من أدركه، لم يبق.

ومن لم يدركه، لم يمت.

*

ظهرت ذرّة عشق من عالم الغيب، وَشَمتْ صدور المحبين جميعها، ولم تجد محرماً قط؛ فضُمَّت إلى الغيب ثانية.

*

يولد رجل كل مائة سنة، يليق بتوحيد الله.

*

لله رجال لا يخالجهم المشرق والمغرب أو العلا والثرى.

*

كل قلب انشغل بشيء سوى الله، هو ميت، وإن كان مفعماً بالطاعة.

*

حفظ هذه الثلاثة أمر شاق: السر مع الحق، واللسان مع الخلق، والإخلاص في العمل.

*

لا يشكل الشيطان فتنة على الدين مثل رجلين: عالم حريص على الدنيا، وزاهد عار من العلم.

*

احذر، ولا تأمن إبليس فإنه يتحدث في سبعمائة درجة للمعرفة.

*

لا تبحث عما لا يبحث عنك؛ لأن ما تبحث عنه، يبقى بك حين تجده، ويكون مثلك.

*

يرى العقلاء الله بنور القلب،
ويراه المحبون بنور اليقين،
ويراه الفتيان بنور المعاينة.

*

- أين رأيت الله؟
- حيث لم أر نفسي.

*

هناك رجال قصدوا المعرفة، ولم يعلموا أن المعرفة محالة.
ورجال قصدوا المشاهدة، ولم يعلموا أن المشاهدة حجاب.

*

فعلك مثل السراج، وذلك البحر مثل الشمس.
فأي حاجة لك بالسراج إن أشرقت الشمس؟

*

كُتب على كل شيء إلا الماء.
فإن عبرت البحر، فاكتب بدمك على الماء؛ حتى يعلم من يأتي بعدك أن العشاق والسكارى والمحترقين قد رحلوا.

*

إذا ذكرت الأخيار، تظهر سحابة بيضاء، وأمطرت الرحمة.
وإذا ذكرت الله، ظهرت سحابة بيضاء، وأمطرت العشق.
فذكر الأخيار رحمة للعامة، وغفلة للخاصة.

*

الأسفار خمسة: سفر بالقدم، وسفر بالقلب، وسفر بالهمة، وسفر بالمشاهدة، وسفر في فناء النفس.

*

الصوفي لا حاجة له بالشمس في نهاره، وليله بلا قمر أو نجوم، فهو ليس بحاجة إلى القمر أو النجوم.

*

من أراد الحق، هداه إلى الطريق، ثم اختصر له الطريق.

*

محبة الله هي طعام الفتيان وشرابهم.

*

الغائب يتحدث عنه الجميع، والحاضر لا يمكن الحديث عنه قط.

*

مهد الله للعبد السبيل إليه. حين يريد أن يسير، يسير في وحدانيته. وحين يريد أن يبقى، يبقى في وحدته.

من كان قد احترق بالنار، أو غرق في البحر، عليكم بمجالسته.

*

اختم على لسانك ولا تتحدث إلا عن الله،

واختم على قلبك؛ حتى لا تفكر فيما سوى الله.

واختم على معاملتك، حتى لا تؤدي عملاً إلا بإخلاص،

واختم على فمك، فلا تأكل إلا حلالاً.

*

الصوفي: جسد ميت، وقلب فان، وروح محترقة.

*

لحظة مع الله أفضل من السموات والأرض جميعها.

*

كل ما تفعله من أجل الله، إخلاص.

وما تفعله من أجل الخلق رياء.

*

الطريق المؤدي إلى الجنة قريب، والطريق المؤدي إلى الله بعيد.

*

التحير مثل طائر يخرج من عشه طلباً للحب. فلا يجده، ولا يعرف الطريق إلى عشه ثانية.

*

ابكوا كثيراً، واضحكوا قليلاً.
واصمتوا كثيراً، وتحدثوا قليلاً،
وتصدقوا كثيراً، وكلوا قليلاً،
واستيقظوا كثيراً، ولا تناموا.

*

ماذا تقول في رجل كان قد وقف في الصحراء، ولا يملك عمامة على رأسه، ولا نعلاً في قدميه، ولا لباساً على جسده. وتحرق الشمس رأسه، وتنبعث الحرارة من تحت قدميه، فلا تثبتان على الأرض، فلا يستطيع التقدم، ولا يجد سبيلاً للتراجع، ويظل حائراً في تلك البيداء.

*

الغريب من لم تكن له شعرة في السموات السبع والأرض.
وأنا لا أقول إنني غريب،
بل إنني لا أنسجم مع الزمان، ولا ينسجم الزمان معي.

*

ما أكثر الرجال الذين يطئون الأرض، وهم موتى.
وما أكثر الرجال الذين رقدوا في باطن الأرض، وهم أحياء.

*

تأتي في كلِّ لحظةٍ وقد ارتكبت كثيراً من المعاصي، وتأتي تارة وقد أديت كثيراً من الطاعات.

فإلى متى تركب المعاصي وتؤدي الطاعات؟

اجتنب المعصية، واسقط في بحر الرحمة.

واجتنب الطاعة، واسقط في بحر الاستغناء،

وافن عن نفسك، وابق به.

*

ينبغي عليّ ألا أنام الليل، وألا آكل في النهار، وألا اختال، فمتى أصل إلى المنزل؟

*

أبو عبد الرحمن السُلمي*

(...) النفس على ثلاثة أقسام: نفس أمّارة ونفس لوّامة ونفس مطمئنّة. فأمّا المطمئنّة فهي التي أيقنت أنّ الله ربّها واطمأنّت إلى ما وعد الله وصدّقت بما قال الله وصبرت لأمره وهي النفس المؤمنة التي يبيّض الله تعالى وجهها ويعطيها كتابها بيمينها فتطهّر وهي الراضية بقضاء الله وقدره وخيره وشرّه ونفعه وضرّه. وأمّا القسم الثاني فهي النفس اللوّامة التي تلوم على الخير والشرّ ولا تصبر على السرّاء والضرّاء، وهي التي تندم على ما فات وتلوم عليه وتقول: لو فعلتُ أو لم أفعل وهي النفس الفاجرة المذمومة. فليس نفس برّة ولا فاجرة إلا تلوم؛ إن كانت عملت خيراً قالت: هلاّ زدت عليه وإن عملت شرّاً قالت: ليتني لم أفعل فهي تلوم نفسها في الآخرة على ما فرّطت في الدنيا. وأمّا النفس الأمّارة فهي التي قال الله تعالى حكايةً عن يوسف عليه السلام حيث قال: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾**. وقال الله عز وجل: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾***. وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾**** وغيرها من الآيات ما يدلّ على شرور النفس وقلّة

---

* محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الأزدي السُلمي النيسابوري (325– 412 هـ)، من شيوخ الصوفية، وكتبه تُعدّ مرجعاً أساسياً في تاريخ الصوفية وطبقاتهم وتفسيرهم.

** سورة يوسف، آية 53.

*** سورة النازعات، آية 4.

**** سورة الجاثية، آية 23.

رغبتها في الخير. فمن عيوب النفس أنّها تتوهّم أنّها قائمة على باب نجاته تقرع الباب بفنون الأذكار والطاعات والباب مفتوح ولكنه أغلق باب الرجوع على نفسه بكثرة المخالفات. كما أخبرني الحسين بن يحيى قال سمعت جعفر ابن محمّد يقول سمعت مسروقاً يقول: مرّت رابعة العدّوية بمجلس صالح المُرّيّ وهو يقول: من أدمن قرع الباب، يوشك أن يُفتح له. فقالت رابعة: الباب يا بطّال مفتوح ولكنك تفرّ منه. كيف تصل إلى مقصد أخطأت طريقه في أوّل قدم؟ وكيف ينجو العبد من عيوب النفس وهو الذي أطلق لها الشهوات، أم كيف ينجو من إتباع الهوى من هو لا ينزجر عن المخالفة؟

سمعت محمّد بن عبد الله بن شاذان يقول سمعت ابن يزدان المدائنيّ قال: رأيت أقواماً من الناس كانت لهم عيوب فسكتوا عن عيوب الناس، فستر الله عيوبهم وزالت عنهم تلك العيوب. ورأيت أقواماً لم يكن لهم عيوب، فاشتغلوا بعيوب الناس فصارت لهم عيوب.

ومن عيوبها الغفلة والتواني والإصرار والتسويف وتطويل الأمل وتبعيد الأجل.

ومن عيوبها اشتغالها بتزيين الظواهر والتخشّع من غير خشوع والتعبّد من غير حضور. ومن عيوبها طلب العوض على أعمالها.

ومن عيوبها فقدان لذّة الطاعات وذلك من سقم القلب وخيانة النفس. ومن عيوبها الكسل وهو ميراث الشبع فإنّ النفس إذا شبعت قويت وإذا قويت أخذت حظّها فإذا أخذت حظّها غلبت القلب بوصولها إلى حظّها.

ومن عيوبها كثرة الكلام، وإنّما يتولّد ذلك من شيئين: إمّا لطلب رياسة يريد أن يرى الناس علمه وفصاحته، أو قلّة العلم بما يجلب عليه الكلام.

ومن عيوبها أنّها إذا رضيت مدحت المرضي عنه فوق الحدّ وإذا غضبت ذمّت وتجاوزت الحدّ.

ومن عيوبها كثرة التمنّي، والتمنّي هو الاعتراض على الله في قضائه وقدره.

ومن عيوبها الطمع.

الطمع هو الفقر الحاضر، والغنيّ الطامع فقير، والفقير المتعفّف غنيّ والطمع هو الذي يقطع الرقاب.

ومن عيوبها حرصها على عمارة الدنيا والتكثّر منها.

ومن عيوبها الانتقام لها والخصومة عنها والغضب لها.

ومن عيوبها اشتغالها بإصلاح الظاهر لرؤية الناس وغفلتها عن إصلاح الباطن الذي هو موضع نظر الله.

ومن عيوبها كثرة الذنوب والمخالفات إلى أن يقسو القلب.

ومن عيوبها حبّها الكلام على الناس والخوض في دقائق العلوم ليصيد به قلوب الأغمار ويصرف بحسن كلامه وجوه الناس إليه.

ومن عيوبها سرورها وفرحها وطلبها الراحة وذلك من نتائج الغفلة.

ومن عيوبها ميلها إلى معاشرة الأقران وصحبة الإخوان.

ومن عيوبها أنسها بطاعتها ورؤية استحسانها.

ومن عيوبها إماتتها النفس بإتبّاع الشهوات فإنّ النفس إذا تمكّنت من ذلك ماتت عن الطاعات والموافقات.

ومن عيوبها أن تأمن من مكر الشيطان.

ومن عيوبها قلّة الاعتبار بما يرى من إمهال الله إيّاه في ذنوبه.

ومن عيوبها ترك الاستزادة من نفسه في أفعاله وأقواله ورضاه عنها بما هي فيه.

ومن عيوبها الكسل والقعود عن الأوامر.

ومن عيوبها أن يتزيّى بزيّ الصالحين ويعمل عمل أهل الفساد.

ومن عيوبها تضييع أوقاتها بالاشتغال بما لا يعنيه من أمور الدنيا والخوض فيها مع أهلها.

ومن عيوبها الغضب.

ومن عيوبها الكذب.

ومن عيوبها البخل والشحّ وهما نتائج محبّة الدنيا.

ومن عيوبها بُعد أملها.

ومن عيوبها الاغترار بالمدائح الباطلة.

ومن عيوبها الحرص.

ومن عيوبها الحسد.

ومن عيوبها الإصرار على الذنب مع تمنّي المغفرة ورجاء الرحمة.

ومن عيوبها صحبتها مع المخالفين والمعرضين عن الحقّ.

ومن عيوبها الغفلة.

ومن عيوبها ترك الكسب والقعود عنه إظهاراً للخلق أنّه قد قعد متوكّلاً ثمّ يتشوّف إلى الأرزاق ويتسخّط إذا لم تأتِه الأرزاق.

ومن عيوبها الفرار ممّا يوجبه عليه ظاهر العلم إلى الدعاوى والأحوال ومداواتها ملازمة العلم.

ومن عيوبها استعظام ما تعطي وتبذل والامتنان به على من يأخذ.

*

أبو علي الدقاق*

كنتُ في ابتداء صباي مُحترقاً في الإرادة وكنتُ أقول في نفسي: ليت شعري! ما معنى الإرادة؟

*

المُريدُ مُتَحمِّل والمُرادُ محمول.

*

لو لم يكن للفقير إلا روح فعرضها على كلاب هذا الباب لم ينظر كلب إليها.

*

– قطعتُ إليك شُقة بعيدة**.

– كانَ يكفيك خطوة واحدة لو سافرت عن نفسك.

*

الإرادة، لوعة في الفؤاد. لدغة في القلب. غرام في الضمير. انزعاج في الباطن. نيران تتأجج في القلوب.

*

العبودية أتمّ من العبادة. فأولاً: عبادة، ثم عبودية؛ ثم عبودة.

*

---

* أستاذ أبي القاسم القشيري، عاش بين القرن الرابع والخامس الهجريين.

** رجل من فقراء الصوفية يُخاطبه.

التواجد يوجب استغراق العبد، والوجود يوجبُ استهلاك العبد.
فهو كمن شهد البحر، ثُمَّ ركب البحر، ثم غرق في البحر.

*

الفرق ما نُسب إليك.
والجمع ما سُلب عنك.

*

من أمارات التأييد حفظ التوحيد في أوقات الحكم.

*

العارف مستهلك في بحار التحقيق؛ كما قال قائلهم: المعرفة أمواج تغطّ. ترفع وتحط.

*

الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق، ولكن لا تُثمر؛ كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نَفَساً نَفَساً فهو عابد هواه، لا يجد نفاذاً.

*

كن كما لو أنك كنت قد مت منذ ثلاثة أيام.

*

من لا يجعل روحه مكنسة باب المعشوق، ليس بعاشق.

*

من أنس بغيره، ضعف في حاله، ومن نطق عن غيره، كذب في مقاله.

*

إذا تجرد المريد من الهم في البداية، ومن الهمة في النهاية، بقي معطلاً. والهم: أن يشغل المرء ظاهره بالعبادة. والهمة: أن يجمع باطنه بالمراقبة.

*

سعادة الطلب أكمل من سعادة الوجدان، لأن لسعادة الوجدان خطر الزوال، وفي الطلب أمل الوصال.

*

من ترك الحرام، نجا من الجحيم.

ومن ترك الشبهة، فاز بالجنة.

ومن ترك الكثرة، أدرك الحق.

*

من سكت عن الحق، فهو شيطان أخرس.

*

احذروا صحبة السلاطين. فإن لهم فكراً مثل فكر الأطفال، وصولة مثل صولة الأسود، ولا صبر لهم، ولا طاقة.

*

تواضع الأغنياء للفقراء ديانة.

وتواضع الفقراء للأغنياء خيانة.

*

المشاهدة في الدنيا بالأسرار، وفي الآخرة بالأبصار.

*

الإرادة والهمة أمانتا الحق لدى أرباب البدايات وأصحاب النهايات.

يستطيع أرباب البدايات المجاهدة بإرادة الطاعة.

ويستطيع أصحاب النهايات إدراك المكاشفة والمشاهدة بالهمة.

والهمة مثل الكيمياء لطالب المال.

والهمة قرار بلا استقرار، لا تسكن أبداً في الدنيا ولا في الآخرة.

*

مجاهدة الأغنياء بالمال، ومجاهدة الفقراء بالروح.

*

صحبة الأفاعي أيسر من صحبة فقير بخيل.

*

الوقت ما أنت فيه؛ إن كنت بالدنيا فوقتك الدنيا.
وإن كنت بالعقبى فوقتك العقبى.
وإن كنت بالسرور فوقتك بالسرور.
وإن كنت بالحزن فوقتك الحزن.

*

إن تبت خوفاً من الجحيم أو طمعاً في الجنة، فإنك بلا همة.

*

لا يجوز للعالم أن يتكلم إلا بما علمه.
ولا يجوز للعارف أن يتكلم إلا بما وجده.

*

الدلالة للعقل، والإشارة للحكمة، والشهادة للمعرفة.

*

التوحيد النظر إلى الأشياء بعين العدم.

*

لا يمكن أن تصفو العبادة إلا بأربعة أشياء: معرفة الله، ومعرفة النفس، ومعرفة الموت، ومعرفة ما بعد الموت. فمن عرف الله أدى حقه بالصدق والإخلاص والصفاء والعبودية. ومن عرف النفس، خالفها بالشريعة والحقيقة. ومخالفة النفس بالمداومة على الطاعة. ومن عرف الموت: أعد

له عدته، واستعد لقدومه، ومن عرف ما بعد الموت، ظل خائفاً من الوعيد، راجياً في الوعد.

*

كن عارفاً، حتى تكون متحملاً.

*

الفراغ ملك لا غاية له.

*

ليس الغريب من لا أهل له، إنما الغريب هو المدبر الذي يبيع الآخرة.

*

ماذا يتأتى من الماء والطين سوى الخطأ؟
وماذا يتأتى من الله سوى العطاء؟

*

العارف مثل رجل امتطى أسداً فخافه الناس جميعاً وخاف هو من الناس جميعاً.

*

يا إلهي العظيم! اجعلني نملة، واتركني في القش.

*

إلهي! لا تفضحني؛ فقد ادعيت عليك الكثير فوق المنبر، ومع هذا فالذنب ذنبك. وإن فضحتني، فلا تفضحني أمام الحضور. وألبسني مرقعة الصوفية، وامنحني الركوة والعصا؛ لأنني أحب طريقة الصوفية. ثم أنزلني في واد من أودية الجحيم؛ حتى أدمى لفراقك إلى أبد الأبد، وأنوح في ذلك الوادي، وأبكي لشقائي، وأقيم مأتماً لعجزي. وإن لم أحظ بقربك، نُحْتُ بسببك.

*

رُؤيَ الأستاذ في المنام بعد وفاته، وسئل: ماذا فعل الله تعالى بك؟

فقال: أكرمني، وغفر لي ذنوبي جميعها التي اعترفت بها، سوى ذنب خجلت أن أذكره، وتصببتُ عرقاً حتى سقط اللحم عن وجهي.

فقالوا وماذا كان ذلك الذنب؟

قال: كنت قد نظرت إلى أمرد في صباي، وطاب لي ذلك.

*

يُروى أنَّ تلميذاً للأستاذ يدعى أبو بكر الصيرفي، كان قد جلس على قبره، وقال: رأيت في المنام: أن القبر قد فُتح، وخرج منه الأستاذ، وكان يريد أن يطير في الهواء.

فكنت أقول: إلى أين تذهب؟

فكان يقول: أذهب من أجل الوعظ. فقد وُضع لي منبر في الملكوت الأعلى.

*

عبد الكريم القشيري*

مَن نسي الحقَّ فلا غاية لمحنته، ومن نَسي الخَلْقَ فلا نهاية لعلوِّ حالته.

*

أَكبرُ الكبائر إِثباتُكَ نفسَك، فإذا شاهدتَ نَفْيَها تخلَّصتَ من أَسْرِ المِحَن.

*

مَنْ لم يؤدّب ظاهره بفنون المعاملات، ولم يهذّب باطنَه بوجوه المنازلات فلا ينبغي أن يتصدّى لنيل المواصلات. وهيهات هيهات متى يكون ذلك.

*

التّحرّر من رِقّ الأشياءِ أَتمُّ من تملّكِها.

*

السُّكْر ذهابُ العقل والاستشعار، ولا تصحّ معه المناجاة مع الحقّ.

*

المصلّي يناجي ربّه، فكلّ ما أوجِبَ للقلب الذّهول عن الله فهو ملحقٌ بهذا من حيث الإشارة، ولأجل هذه الجملة حَصل. والسّكْرُ على أقسام:

فسكرٌ من الخمر، وسكرٌ من الغفلة لاستيلاء حبّ الدنيا.

وأصعبُ السّكر سكرك من نفسك، فهو الذي يلقيك في الفرقة عنه، فإنّ مَنْ سكر من الخمر فقصاراه الحرْقَة، إن لم يُغفر له. ومن سَكر من نفسه فحاله الفرقة، في الوقت، عن الحقيقة.

---

* أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري الشافعي (376 –456 هـ)، من قبيلة «قشير بن كعب».

فَأمّا السكر الذي يشير إليه القوم فصاحبه محفوظٌ عليه وقتُه حتى يصلّي والأمرُ مخفَّف عليه: فإذا خرجَ عن الصلاة هجم عليه غالبُه فاخْتطَفه عنه ومن لم يكن محفوظاً، عليه أحكام الشرع، فمشوبٌ بحظّ.

*

طاغوتُ كلّ أحدٍ نفسهُ وهواه.

*

من جُبِل على الشّحّ لا يزداد بسعةِ يده إلاّ تأسّفاً على راحةٍ ينالُها الخلق، كأنَّ من شرب قطرةَ ماءٍ قد تَحسَّى بل رشفَ مِن ماء حياته.

*

النّاس في هذه الدنيا متفاوتون: فمنهم من هو في ظلّ رحمته، ومنهم من هو في ظلّ رعايته، ومنهم من هو في ظلّ كرامته، ومنهم من هو في ظل عِنايته، ومنهم من هو في ظلّ قربته.

*

مِن المصيبة أن يمحقَك وقتُكَ في ما لا يُجْدي عليك.

*

الفِرارُ إلى الله من صفات القاصدين، والفرار مع الله من صفات الواصلين،

فلا يجد القَرار مع الله إلا من صدق في الفِرار إلى الله.

والفرار من كلّ غَيْرٍ شأنُ كلّ موحِّد.

*

مَن لم يقتل نفسَه في نفسه لا يصحّ جهادُه بنفسه.

*

استقلالُ الكثيرِ من نفسك لأجل حبيبك أقوى أَمارات صحبتك.

*

الموتُ فرحٌ للمؤمن. فالخبر عن قربه بشارةٌ له، لأنّه سببٌ يوصله إلى الحق، ومن أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه.

إذا كان الموت لابدّ منه فالاستسلامُ لحكمه طوعاً خيرٌ من أن يحمل كرهاً.

*

إنّ من رام الجَمْعَ بين الضدّين خاب سعيُه، ولم يرتفع عزمُه، فكما لا يكون شخصٌ واحد منافقاً ومسلماً، لا يكون شخصٌ واحد مريداً للحقّ ومقيماً على أحكام العادة. فإنّ الإرادة والعادة ضِدّان، والواجب مبايَنةُ الأضداد، ومجانبَةُ الأجانب.

*

كما يُحرَّم قتلُ غيرك عليك، يُحرَّم قتلُ نفسكَ عليك. ومَن اتّبعَ هواه سعَى في دَمِ نفسه، ومن لم يَنصح مريداً بحسن وعظهِ ولم يعنه بهمته، فقد سعَى في دمهِ.

*

عاشروا الناس على ما يظهرون من أحوالهم، ولا تتفرَّسوا فيهم بالبطلان، فإنّ متولّي الأسرار، الله. هذا إذا كان غرض فاسدٌ يحملكم عليه من أحكام النفس. فأما من كان نظره بالله ولم يَنْستِر عليه شيء فليحفظ سرّ الله في ما كوشف به، ولا يظهر لصاحبه ما أراد الله فيه.

الحقّ سبحانه جمعَ جميعَ أوليائه في أفضاله، لكنّه غايَر بينهم في الدَّرجات. فمن غنيٍّ ومن عبدٍ هو أغنى منه، ومن كبيرٍ ومَنْ هو أكبر منه. هذه الكواكب دريّةٌ ولكن القمر فوقها، وإذا طلعت الشّمس بهرت الجميعَ بنورها.

*

من هاجر في الله عمَّا سوى الله، وصحَّح قصدَه إلى الله، وجَد فسحةً في عقْوةِ الكَرم، ومقيلاً في ذُرَى القبول، وحياةً وسَعَةً في كَنف القرب.

والمهاجر، في الحقيقة، من هَجر نفسه وهواه، ولا يصحّ ذلك إلا بانسلاخه عن جميع مراداته، ومَنْ قصده ثم أَدْركه الأجل قبل وصولهِ فلا ينزل إلاّ بساحات وصله، ولا يكون محطّ روحه إلا أوطان قربه.

*

الوظائف الظاهرة مؤقّتة، وحضور القلب بالذّكر مُسَرْمَدٌ غيرُ منقطع. أمّا بِالرُّسوم فوقتاً غير وقت، وأما بالقلوب فإياكم والغيبة عن الحقيقة لحظةً، كيفما اختلفت بكم الأحوال. الذّكْر كيفما كنتم وكما كنتم. وأمّا الصلاة فإذا اطمأننتم.

*

الحقّ غنيٌّ عن طاعة المطيعين، وزلّة العاصين. فمن أَطاع فحظّه حصَّل، ومن عصى فحظّه أخذ.

*

من نسَب إلى بريءٍ ما هو صفتُه من المخازي عكسَ الله عليهِ الحال، وألبس ذلك البريءَ ثوابَ محاسنِ راميه، وسحبَ ذيل العفو على مساويه، وقلبَ الحال على المتعدّي بما يفضحه بين أَشكاله، في عامّةِ أحواله.

*

أَفضلُ الأعمال ما كانت بركاتُه تتعدَّى صاحبَه إلى غيره، ففضيلة الصَّدقة يتعدَّى نفعها إلى مَن تَصِل إليه، والفتوّةُ أن يكونَ سعيُكَ لغيرك.

*

خواطر الحقّ سفراؤُه تعالى إلى العبد، فمن خالَف إشارات ما طُولِب بهِ من طريق الباطن استوجب عقوبات القلوب، ومنها أن يَعمى عن إبصار

رشده. وكما أن مخالف الإجماع عن الدين خارجٌ، فمخالِفُ ما عُرِف مِن الحقيقة بعد ما تَبيَّن له الطريق، ساقِطٌ.

*

مَنْ زرع الحنظلَ لم يجتن الورد والعَبْهَر، ومن شرب السُّمَّ الزّعاف لم يجد طعم العسل. كذلك من ضَيّع حقّ الخدمة لم يستمكن على بساط القُرْبَة، ومن وُسِمَ بالشّقوة لم يرزق الصّفوة، ومن نفته القضيّة، فلا ناصرَ له من البريّة.

*

الخليلُ المحتاجُ بالكليّة إلى الحقّ في كلّ نَفَسٍ، ليس له شيءٌ منه بل هو بالله لله في جميع أنفاسهِ، اشتقاقاً من الخُلّة التي هي الخَصاصَةُ، وهي الحاجة.

والخُلّة أن تُباشِر المحبّةُ جميعَ أجزائه، وتتخلّل سرَّه حتى لا يكونَ فيه مساغٌ لِلغَيْر.

*

صحبةُ الخَلْقِ بعضهم مع بعض إن تجرَّدت عن حديث الحق فإنها تتعرّض للوحشة والعلامة، وممازجة النَّفْرة والسآمة. فمن أعرض عن الله بقلبه أعرض الخلقُ عن مراعاة حقّه، وخرج الكافّة عليه باستصغار أمره واستحقار قدره. ومن رجع إلى الله بقلبه، استوى له، في الجُملة والتّفصيل، أمره، واتَّسع لاحتمال ما يستقبل من سوء خُلُقِ الخَلْق صدرُه. فهو يَسْحب ذيلَ العفو على هَنَاتِ جميعهم، ويؤثر الصّلح بترك نصيبه وتسليم نصيبهم. واتّضاعُكَ في نفسك عن منافرة مَن يخاصمكَ أجدى عليك، وأَحْرى لك مِن تطاولك على خَصمِك باغياً الانتقام.

الصّحبة التي لابدّ منها صحبة القلب مع دوام افتقارٍ إلى الله.

الذين تبدّلت بهم الأحوال فقاموا وسقطوا ثم انتعشوا ثم ختم بالسوء أحوالهم، أولئك الذين قصمتهم سطوةُ العزّة حكماً، وأدركتهم شقاوة القسمة خاتمةً وحالاً. فالحقّ سبحانه لا يهديهم لقصد، ولا يدلّهم على رشد، فَبشِّرْهم بالفرقة الأبديّة، وأخبرهم بالعقوبة السرمديّة.

*

من اعتصمَ بمخلوقٍ فقد التجأَ إلى غير مُجير، واستندَ إلى غير كَهْف، وسقطَ في مَهْواةٍ من الغَلطِ بعيدٍ قعرُها، شديدٍ مكرُها. أيبتغونَ العزّ عند الذي أصابه ذلّ التّكوين؟ متى يكون له عزٌّ على التحقيق؟ ومن لا عِزَّ له يلزمه فكيف يكون له عزٌّ يتعدَّى إلى غيره؟

*

لا تُجاوروا أربابَ الوحشة، فإنّ ظلمات أَنفسهم تتعدَّى إلى قلوبكم عند استنشاقكم ما يردّون من أنفاسهم. فمن كان بوصفٍ ما متحقّقاً شارَكهُ حاضِروهُ فيه، فجليسُ مَنْ هو في أنْسٍ مستأنِسٌ، وجليسُ من هو في ظلمةٍ مستوحِشٌ.

*

مَن عَلِمَ أَنّ مولاه يَسمعُ، استَحْيا من النّطق بكثيرٍ ممّا تدعو نفسهُ إليه.

*

من لم يُؤثِرِ مَدْحَ الحقّ على القَدْح في الخَلْق، فهو المغبون في الحال.

*

مَن طالَع الخَلْقَ بعين الإضافة إلى الحَقّ بأنّهم عبيدُ الله، لم يبسط فيهم لسانَ اللَّوم.

*

مَن أحسنَ إليك فَأَبْدِ معه خيراً جَهْراً، ومن كفاك شَرَّه فأَخْلِص بالولاء والدّعاء له سِرّاً. ومَن أساء إليكَ فاعْف عنه كرماً وفضلاً، تَجِدْ من الله عفوَه عنك عمّا ارتكبتَ، فإنَّ ذنوبَك أكثر. وهو قادر على أن يعطيكَ من الفضل والإنعام ما لا تصل إليه بالانتصاف من خَصْمِكَ، وما تجِدُه بالانتقام.

*

مجاوَزةُ الحَدّ ضلال، كما أَنّ النّقصانَ والتقاصر عن الحَقِّ ضلال.

*

ارتكابُ المحظوراتِ يُوجب تَحْريمَ المُباحات.

فَمن ركب محظوراً بظاهره، حُرِم ما كانَ يجده من الأحوال المُباحةِ، والألطاف الحاصلةِ في سرائره.

*

الرّاسخُ في العلم هو مَنْ لا يكونُ في الدّليل مقلِّداً، كما لا يكونُ في الحكم مقلّداً، بل يَضعُ النّظَر موضعه إلى أن ينتهي إلى حدٍّ لا يكون للشك في عقله مساغ.

الرّاسخُ في العلم من يَرتقي عن حَدِّ تأمّلِ البُرهانِ، ويصل إلى حقائق البيان.

الرّاسخُ في العلم أن يكونَ بِعلمه عامِلاً حتّى يفيدَ عَملُه عِلْمَ ما خَفِيَ على غيره.

*

الإيمانُ صنفان: أحدهما يشير إلى عين الجُود، والثاني إلى بَذْل المجهود. فبذل المجهودِ خدمتُكَ، وعينُ الجودِ قسمته، فبخدمتكَ عناء الأشباح، وبقسمته ضِياءُ الأرواح.

وحقيقةُ الإيمان تحقُّق القلب بِما أُخْبِر من الغَيْب.

*

العقوبة ما تعقب الجرم بما يسوءُ صاحبه. وأشدّ العقوبة حجاب المعاقَب عن شُهودِ المُعاقِب، فإنَّ تجرُّع كاساتِ البلاء بشهودِ المُبْلي أحلى من العَسَل والشّهد.

*

الدّينُ موهوبٌ ومطلوبٌ، فالمطلوبُ ما أمكنَ تحصيلُه، والموهوبُ ما سبَقَ منه حصولُه.

*

كمالُ الدّينِ تحقيقُ المعرفة، وإتمام النّعمة تحصيلُ المغفرة.

*

ليس الطّيبُ ما تَسْتَطيبه النّفوس، ولكن الطيّب ما يوجد فيه رِضاءُ الحقّ. فتوجَدُ عند ذلك راحةُ القلوب.

كما أنّ في الشّريعة لا تصحّ الصّلاةُ بغير الطّهور فلا تصحّ في الحقيقة بغير طهور. وكما أنّ للظاهر طهارةً فللسرائر أيضاً طهارة. وطهارة الأبدان بماء السماء أي المطر، وطهارة القلوب بماء النّدم والخجل، ثم بماء الحياء والوجل. وكما يجب غسل الوجه عند القيام إلى الصّلاة، يجب في بيان الإشارة، صيانَة الوجه عن التبذّل للأشكال، عن طلب خسائس الأعراض.

وكما يجب مسحُ الرأس يجب صونه عن التّواضع والخفض لكل أحد.

وكما يجب غسل الرِّجلين في الطهارة يجب صونهما في الطهارة الباطنة عن التنقل في ما لا يجوز.

*

كما يقتضي غسلُ جميع البدن في الطهارة، كذلك في الطهارة الباطنة ما يوجب الاستقصاء. وذلك عندما تقع للمريد فترةٌ فيقوم بتجديد عقد، وتأكيد عهد، والتزام عزامة، وتسليم وقت، واستدامة ندامة، واستشعار خجل.

*

قَسوة القَلْب أوّلها فقد الصّفوة، ثم استيلاء الشهوة، ثم جرَيانُ الهفوة، ثم استحكام القسوة، فإن لم يَتّفق إقلاعٌ عن هذه الجملة فهو تمام الشقوة.

*

الخيانة أمرُها شديدٌ وهي من الكِبار أبعد، وعليهم أشدّ وأصعب. ومن تعوَّد اتّباعَ الشهوات، وأُشْرِبَ في قلبه حبّ الخيانة، فلا يزال يعيشُ بذلك الخُلُقِ إلى آخر عمره. اللهمّ إلا أن يجودَ الحقّ عليه بجميل اللّطف.

*

قَد يكون موجِبَ العَفْو حقارَةُ قَدْر المعفوّ عنه، إذ ليس كلُّ أحدٍ أهلاً للعقاب. ولِلصّفح على العَفْو مزيّةٌ وهي أنّ في العفو رَفْعَ الجناح، وفي الصّفح إخراجَ ذِكْرِ الإثارة من القلب، فمن تجاوَز عن الجاني، ولم يلاحِظه بعد التّجاوز بعين الاستحقار والازدراء، فهو صاحِبُ الصَّفح.

والإحسان تعميمٌ للجمهور بإسداء الفَضْل.

*

من اشتملَتْ عليه أرحام الطّوامث، متى يفارقه نَقْصُ الخِلْقة؟ ومن لاحت عليه شواهِدُ التغيّر، أنّى يليق به نَعْتُ الرّبوبيّة؟

*

البُنوّة تَقْتضي المجانَسة، والحقّ عنها مُنزَّه، والمحبّة بين المتجانسين تقتضي الاحْتِظَاظَ والمؤانسَة، والحقّ سبحانه عن ذلك مقدَّس.

*

المخلـوقُ لا يصـلحُ أن يكـون بعضـاً للقـديم، فالقـديمُ لا بعـضَ لـه لأنّ الأحديّةَ حَقُّه. فإذا لم يكن له عدَدٌ لم يجزْ أن يكونَ له وَلدٌ. وإن لم يجزْ له ولدٌ ولم تجز على الوجه الذي اعتقدوه بينهم وبينَه محبَّة.

*

مجاهَرةُ الردّ تعجّل العُقوبة، فإنَّ من مَاكَرَ الحقيقةَ أبدت الحقيقَةُ له من مكامنِ التّقدير ما يُلْجِئُه إلى التَطوّح في أوطان الذلّ.

*

حَيَّرهم فـي مفـاوزِهِم حتَّـى عَمُـوا عـن القَصْـد، فصـاروا يَبِيتـون حيـثُ يُصبحون، بعدَ طول التَّعب وإدامة السّيرِ. وكذلكَ من حيَّرهُ الله في مفاوِز القَلْب، يتقلَّب ليلاً ونهاراً في مَطارحِ الظّنون، ثم لا يحصل إلاّ على مناهل الحيرة، فَيحطّون بحيث يرحلون عنها، فلا وَجْهَ لِلرَّأْي الصائب يلوحُ لهم، ولا خـلاصَ مـن بعـده لِلتّجـويز يُسـاعدهم، والـذي التجـأ إلـى شـهود الصَـمديّة استراح عن نَقْلة فكرِه، ووقَع في رَوْحِ الاستبصار بعد أَتعابِ التوهّم.

*

لا تَسْتولي هواجِسُ النّفوس على صاحبها إلا بعد اسْتتارِ مواعظ الحقّ، فإذا توالَت العزائم الرّديئة، واستحكمت القصودُ الفاسِدة من العبد، صارت دواعي الحقّ خَفِيّةً مغمورةً. والنّفس لا تَدْعو إلاّ إلى اتّباع الشّهوات ومتابعة المعصية، وهي مجبولة على الأخلاق المجوسيّة. فمن تـابع الشّـهواتِ لا يلبث أن ينزل بساحاتِ النّدم ثم لا ينفعُه ذلك.

*

السّعي في الفساد على ضربين: بالظّاهر، وعقوبتُه معلومةٌ في مسائلِ الفقه بلسان العلم، وفي الباطن وعقوبته واردةٌ على الأسرار، وذلك بِقَطْع ما

كانَ متّصلاً من واردات الحقّ، وكسوفِ شَمْس العرفان، والسّتر بعد الكشف، والحجاب بعد البَسْط. والحجاب استِشعارُ الوحشة بعد الأنس، وتبديلُ تَوالي التّوفيق بصنوف الخذلان، والنّفي على بساطِ العبادة، والإخراج إلى متابعة النفوس، وذلك خزْيٌ عظيمٌ وعذابٌ أليم.

*

مَنْ أقلعَ عن معاصيه، وَارْتدَع عن ارتكاب مساويه، قبل أن يُهْتَك عنه ستر السّداد لا تُقام عليه في الظّاهر حدودُ الشريعة لاشتباهها على الإمام، ولا يؤاخذه الحقّ سبحانه بقضايا إجرامه أخذاً بظاهرِ ما يثبت من حاله مَا لَهُ في استيجاب السّداد، فإذا بدا للإمام جرمُه أقيمَ عليه الحَدّ وإن تَقَنَّع بنقاب التّقوى.

وكذلك إذا سقطَ العبد عن عين الله لم يصل بعده إلى ما كان عليه من معاودة تقريب الحقّ .

*

ابتغاءُ الوسيلة التبرّي عن الحول والقوة، والتحقّق بشهود الطول والمِنَّة.

ابتغاءُ الوسيلة هو التّقريب إليه بما سبق لكَ من إحسانه.

الوسيلةُ ما سبقَ لك من العناية القديمة.

الوسيلةُ اختيارُه لك بالجميل.

الوسيلةُ خلوصُ العقد عن الشك.

ابتغاءُ الوسيلة استدامةُ الصّدق في الولاء إلى آخر العمر.

ابتغاءُ الوسيلة تجريدُ الأعمال عن الرياء، وتجريد الأحوال عن الإعجاب وتخليص النّفس عن الحظوظ.

*

إفراطُ العدوّ في التقرّب موجِبٌ لِلمَقْت، وتسترُّ الوليّ في التودّد إحكامٌ لأسبابِ الحب.

*

مَنْ أَقصاه الحقّ عن محلّ التقريب، وأَرخى له عنان الإسهال وَكَلهُ إلى مكره، وَلَبَّس عليه حالَه وسرّه، فَهو مُنْهمِكٌ في أوديةِ حسبانه، وإنّما يَسعى في أمر نفسه فيعمل بما يعود إليه وَبالُه.

*

اسْتباقُ الزاهدين برفْضِ الدّنيا، واستباقُ العابدين بِقَطْع الهوَى، واستباقُ العارفين بِنَفْي المُنَى، واستباق الموحِّدين بِتَرْك الورَى، ونسيانِ الدنيا، والعقبى.

*

إنّ الذين سَقُمت ضمائِرهم، وضعفت في التّحقيق بصائرهم، تَسبق إلى قلوبهم مداراةُ الأعداء خوفاً من مُعاداتهم، وطمعاً في المأمول من صحبتهم. ولو اسْتَيْقنوا أَنَّهم في أَسْر العجز وذلّ الإعراض ونَفي الطّرد، لأَمَّلوا الموعودَ من كفاية الحقّ، والمعهودَ من جميل رعايته. ولكنّهم حُجبوا عن محلّ التوحيد، فَتفرَّقوا في أودية الحسبان والظّنون.

وعن قريبٍ يأتيكم الفَرَج، أيّها المؤمنون، وتُرْزقون الفَتْح بحسن الإقبال، والظّفرَ بالمسئولِ لسابق الاختيار، فيشعرون النّدم، ويُقاسونَ الألم، وأنتم تُعْلون رؤوسكم بعد الإطراق، وتَصْفُو لكم مشارب الإكرام، وتضيء بزواهر القُرْبِ مشارقُ القلوب.

حينئذٍ يقول الذين آمنوا هؤلاء الذين أَقْسموا بالله جهدَ أَيْمانِهم يعاينون بأبصارهم ما تَحققوه بالغيب في أسرارهم، ويصلون من موعودهم إلى ما يُوفي ويَرْبو على مقصودهم.

*

محبّةُ الحقّ للعبد لا تخرجُ عن وجوه: إمَّا أن تكونَ بمعنى الرحمة عليه، أو بمعنى اللّطف والإحسان إليه، والمدح والثناء عليه.

أو يقال إنّها بمعنى إرادته لتقريبه وتَخْصيص محلّه.

وكما أنَّ رحمته إرادتُه لإنعامه فمحبّته إرادته لإكرامه. والفرق بين المحبّة والرحمة على هذا القول، أنّ المحبّةَ إرادةُ إنعام مخصوصٍ، والرّحمة إرادةُ كلِّ نعمةٍ فتكون المحبّة أخصَّ من الرحمة.

*

المحبّةُ ارتياحُ القَلْب لوجود المحبوب.

ويقال المحبّة ذهابُ المحبّ بالكليّة في ذكر المحبوب.

ويُقال المحبّة خلوصُ المحبّ لمحبوبه بكل وَجه، والمحبة بلاء كلّ كريم. والمحبّة نتيجةُ الهمّة، فمن كانت همته أعلى، فمحبّته أصفى بل أوفى بل أعلى.

ويُقال المحبّة سكْرٌ لا صَحْو فيه، ودَهَشٌ في لقاء المحبوب يُوجب التعطّل عن التّمييز.

ويقال المحبّة بلاءٌ لا يُرجى شفاؤُه، وسقامٌ لا يُعرف دَواؤُه.

ويُقال المحبّة غريمٌ يلازمك لا يَبْرح، ورقيبٌ من المحبوب يَسْتوفي له منكَ دقائقَ الحُقوق في دَوامِ الأحوال.

ويُقال المحبّة قضيّةٌ توجب المحبّة، فمحبّة الحقّ أوجبت محبَّةَ العَبْد.

*

الفائزون على حظوظهم الذين هم خصمٌ للحق على أنفسهم، لا خَصمٌ لأنفسهم على مولاهم، والغَلَبَةُ بالحجّة والبرهان دون اليد.

من قام لله بصدقٍ انْخَنَس دونَه كلّ مُبْطِل. إذا طلعت أنوار الحقّ، أَدْبَر ليل أهل الباطل.

*

الأذانُ دعاءٌ إلى مَحلّ النَّجوى، فمن تَحقَّق بعلوّ المحلّ فسَماعُ الأذانِ يُوجِبُ له رَوْحَ القلب واسترواحَ الرّوح. ومن كان محجوباً عن حقيقة الحال، لاحظَ ذلك بعين اللّعب وأدركه بسمع الاستهزاء، وذلك حكمُ الله: غايَر بين عبادهِ على ما يشاء.

*

الربّاني من كانَ لله وبالله، ولم تَبق منه بقيّةٌ لغير الله.
الربّاني الذي ارْتقَى عن الحدود.
الربّاني من تَوقّى الآفاتِ ثم تَرقَّى إلى الساحات، ثم تَلقَّى ما كُوشِفَ به من زوائد القربات، فخلا عن نفسه، وصَفا عن وصفه، وقام لربّه وبربّه.

*

المقتصِدُ الواقِفُ على حَدّ الأمر، لا يُقَصِّر فَيُنْقِص، ولا يُجاوِز فَيزيد.
ويقال المقتصِدُ الذي تَساوَى في همّته الفَقْدُ والوجودُ في الحادثات.

*

دَارُوا مع الهَوى فوقعوا في البلاء. ومِن أَمارات الشّقاءِ الإصرارُ على متابعة الهوَى، وحسبوا أَلاّ تكونَ فتنةٌ، فَعَمُوا وصمّوا. واغترّوا بطول الإمهال فأصرّوا على قبيح الأعمال. فَلمّا أخذتهم فُجَاءَةُ الانتقام لم ينفعهم النّدم، وبَرَّح بهم الألم.

*

تعليقُ القلوب، بدون الربّ، في اسْتِدفاع الشر واسْتِجْلاب الخير، تَمْحيقٌ للوقت في ما لا يُجْدي، وإِذْهابٌ للعمر في ما لا يُغْني، إذ المتفرِّدُ بالإيجاد بريءٌ عن الأنداد.

*

التعمّقُ في الباطل قَطْع لآمالِ الرّجوع، فكلّما كان بعدُ المسافةِ من الحقّ أَتمَّ، كان اليأسُ من الرّجعة أوجبَ. ومتّبعُ الضّلالة شَرٌّ من مبتدعها، لأنّ المبتدعَ يَبْني والمتّبِعُ يتِمُّ البناء. ومَنْ بهِ كمالُ الشرّ شَرٌّ مِمّن منه ابتداءُ الشرّ.

*

الرّضاء بمخالفة أمرِ الحبيب موافقةٌ للمخالِف، ولا أَنْفَةَ بعد تميّز الخلاف. والسّكوتُ عَن جفاءٍ تُعامَلُ به كَرَمٌ، والإغضاءُ عَمّا يُقال في محبوبكَ دناءة.

*

الإشارَةُ منه إلى وقتٍ يغلبُ على قلبك التعطّشُ إلى شيء من إقباله. أو وصاله، فَتُقْسِم عليه بجماله أو جلالِه أن يرزقكَ شظيّةً من إقباله، فكذلك في شريعة الرّضا نوعٌ من اليمين، فيعفو عنك رحمةً عليك لضعف حالك. والأَوْلَى الذّوبانُ والخمودُ بحسن الرّضا تحتَ ما يجري عليك من أحكامه في الردّ والصّدّ، وأن تؤثرَ استقامتَك في أداء حقوقهِ على إكرامك بحسن تقريبهِ وإقباله.

*

الخمرُ ما خَامَر العقولَ، والخَمْرُ حرام.

والإشارَةُ فيه أنّه يزيد نَفَادَ العَقْل بما يُوجِب عليه من الالتباس.

ومِن شربَ من خَمْر الغفلة فَسُكْرُه أصعب، فشرابُ الغَفْلةِ يُوجب البُعدَ عن الحقيقة.

وكَما أَنّ مَنْ سَكِرَ من خمر الدّنيا ممنوعٌ عن الصلاة، فَمن سَكِرَ من خَمْر الغَفْلةِ فهو محجوبٌ عن المواصلات.

وكما أَنَّ من شرب من خَمْر الدّنيا وجَب عليه الحَدّ، فكذلك من شَرب شرابَ الغَفْلة فعليه الحدّ، إذ يُضْرَب بسياط الخَوف.

وكما أَنّ السّكرانَ لا يُقام عليه الحدّ ما لم يُفِقْ، فالغافِل لا ينجح فيه الوَعْظُ ما لم يَنْتبه.

وكما أنّ مفتاح الكبائر شربُ الخمر، فالغَفْلةُ، أصلُ كلّ زلّة، وسببُ كلّ ذِلّة، وبدءُ كلّ بُعْدٍ وحُجْبةٍ عن الله.

ويُقال: لم يُحرِّمْ عليه الشّرابَ في الدّنيا إلا وأباح له شراب القلوب. فشَرابُ الكبائر محظورٌ وشرابُ الاستئناس مبذولٌ، وعلى حسب المواجِدِ حَظِيَ القومُ بالشراب، وحيثما كان الشراب كان السُّكر

*

طالَ بعدُهم عن الحقيقة، فقَاسوا الهوانَ في مطارح الغربة، وصارُوا سُخرةً للشّيطان.

*

مَنْ حافظَ على الأمر والنّهي فليس لِلُقْمةٍ يتناولُها من الخطر ما يُضَايقُ فيها، وإنما المقصودُ من العبد التأدّبُ بصحبة طريقهِ سبحانهِ، فإذا اتّقى الشِّرْكَ تَعرَّف، ثم اتَّقى الحرامَ فما تَصرَّف، ثم اتَّقَى الشّحّ آثر وما أسْرف.

*

العارِفُ صيدُ الحقّ، ولا يكونُ لِلصَّيد صَيْدٌ.

*

حكمُ البَحر خلافُ حكمِ البرّ. وإذا غرق العبْدُ في بِحار الحقائق سَقَطَ حكمُه، فصيد البَحْر مباحٌ له، لأنّه إذا غرقَ صار مَحْواً، فما إليه ليس بهِ ولا مِنه إذْ هُو مَحْوٌ، والله غالِبٌ على أمره.

*

حَكم الله سبحانه، بأن يكونَ بيتُه، اليومَ ملجأً يلوذُ به كلُّ مؤمِّل، ويستقيم ببركاتِ زيارته كلُّ مائلٍ عن نَهْج الاستقامة، ويَسْتَنْجح بابتهالِه هنالك كلّ ذي أَرب.

والبيتُ حجَرٌ والعَبْدُ مَدَرٌ، والحقّ سبحانه ربطَ المدَر بالحجَر لِيُعْلَمَ أَنه الذي لم يَزلْ، لا سبيل إليه للحَدَثانِ والغِيَر.

*

كلٌّ يطلبُ سُؤْلَهُ على حسب ضرورتِه وحالته، فمنهم من كان سكونُه في مائدةٍ مِن الطعام يجدها، ومنهم من يكونُ سكونُه في فائدةٍ من الموارد يَرِدُها، وعزيزٌ منهم من يَجِدُ الفناءَ عن برهانٍ يتأمّله، أو بيانِ دليلٍ يطلبه.

*

مِحَنُ الأكابر إذا حَلَّت، جَلَّتْ.

*

غَداً يَوم تَنْهتك الأَستار، وتَظْهر الأسرارُ. فكم من مجلَّل بثوب تقواه، ويَحكمُ له معارِفُه بأنه زاهِدٌ في دنياه، راغبٌ في عقباه، محبٌّ لمولاه، مفارِقٌ لهواه، فَيُكشَفُ الأمرُ عن خلافِ ما فَهموه، ويُفْتَضَحُ عِندهم بغير ما ظنّوه.

وكم من متهتّك ستر بما أظهرَ عليه. ظنَّ الكلُّ أَنّه خليعُ العذار هيّن الأعلال، مشوّش الأسرار، فظهر لذوي البصائر جوهرُه، وَبدَتْ عن خفايا السُتر حقيقتُه.

*

(...) فإذا جَرّبتَ الكلَّ، وذقْتَ الحلْو والمرّ، أَفْضى بك الضّر إلى بابه. فإذا رجعتَ بِنَعْت الانكسار، وشواهدِ الذلّ والاضطرار، فإنّه يفعل ما يريد: إن شاء أتاحَ اليُسْر وأزالَ العسر، وإن شاء ضاعفَ الضرّ وعوَّض الأجر، وإن شاء ترك الحال على ما قَبْلَ السّؤالِ والابتهال.

*

(...) إنّما يخافُ مَن عَلِم، فأمّا القلوبُ التي هي تحت غطاء الجَهْل، فلا تباشِرُها طوارقُ الخَوْف.

*

تَكلّم النّاسُ في الإرادة، وأَكثرُ تحقيقها أنّها احتياجٌ يحصلُ في القلوب يسلبُ القَرارَ مِن العَبْد حتى يَصِلَ إلى الله. فَصاحِبُ الإرادَة لا يَهْدأ ليلاً ولا نهاراً، ولا يَجِدُ مِن دون وصولِه إليه سبحانه سكوناً ولا قراراً.

*

تَقَيّدت دعوتُهم بالغَدَاةِ والعشيّ لأنّها مِن الأعمال الظّاهرة، والأعمال الظاهرة مؤقّتة. ودامت إرادتهم فاستغرقت جميعَ أوقاتهم لأنّها من الأحوال الباطنة، والأحوال الباطنة مُسَرْمَدة غير مؤقّتة.

*

لا طَعْمَ أردأ للإنسان من طَعْم الإنسان: إن شئتَ من الولاية والمحبّة، وإن شئتَ من العَداوةِ والبِغْضة.

فمن مُنِيَ بالبغْضَة مع أشكالهِ تَنغَّص عليه عيشُه في الدّنيا،
ومَنْ مُنِيَ بمحبّة أَمثالهِ تكدَّر عليه حالُه مع المَوْلى،
ومَن صانَهُ عن الخَلْقِ فهو المحفوظُ المعاني.

*

لا يَهولَنَّك تماديهم في الباطل، فإنّ تمويهاتِ الباطل لا تأثيرَ لها في الحقائق.

*

دخلتَ الدّنيا بخِرْقةٍ، وخرجتَ منها بخرقة. وما دخلتَ إلاّ بوصف التجرّد، ولا خرجتَ إلا بحكم التفرّد.

ثم الأثقالُ والأوزار، والأحمالُ والأوضارُ لا يأتي عليها حصْرٌ ولا مقدارٌ. فلا مالكم أَغْنى عنكم ولا حالكم يَرفعُ منكم، ولا لكم شفيعٌ يخاطبنا فيكم. فَقد تقطَّعَ بينُكم، وتَفرّق وَصْلُكم، وتبَدَّد شمْلُكم، وتلاشَى ظنّكم، وخانَكم، في التّحقيق، وسْعُكم.

*

وكما فلقَ صبحَ الكون فأشرقت الأنوارُ، كذلك فلَق القلوب فاستنارت به الأسرار، وكما جعل اللّيلَ سكناً لتسكن فيه النّفوسُ من كَدّ التصرّف عن أسبابِ المعاش، كذلك جَعل اللّيلَ سكناً للأحباب يسكنونَ فيه إلى روح المناجاة إذا هدأت العيون من الأغيار.

وجعلَ الشمس والقمر يَجريان بِحسبانٍ معلومٍ على حدّ معلوم، فالشّمسُ بوصفها مُذْ خُلِقت لم تَنقص ولم تَزِد. والقَمرُ لا يَبقى ليلةً واحدة على حالة واحدة، فأبداً في الزّيادة والنّقصان، ولا يزالُ ينمو حتى يصيرَ بدراً، ثم يتناقَصُ حتى لا يُرَى، ثم يأخذُ في الظّهور. وكذلك دأبُه دائماً إلى أَنْ تُنْقَضَ عليهِ العادَة.

*

تَجانَست أجزاءُ الأرض، وتَوافقت أقطارُ الكون، وتبايَن النّباتُ في اللّون والطعم واختلفتِ الأشياء، ودَلّ كلُّ مخلوقٍ بلسانٍ فصيح، وبيانٍ صريح، أَنّه بنفسهِ غيرُ مُسْتقلّ.

*

ظاهِرُ الإثْم ما لِلأَغْيار عليه اطّلاع، وباطِنُ الإثْم هو سِرٌّ بينكَ وبين الله، لا وقوفَ لمخلوقٍ عليه.

ويُقال: باطِنُ الإثم ما تُمليه عليكَ نفسُكَ بِنَوْعِ تأويل.

ويقال باطِنُ الإثْم، على لسانِ أهل المعرفة، الإغماضُ عَمّا لكَ فيه حَظٌّ، ويقالُ باطنُ الإثم، على لسان أهل المحبّة، دوامُ التّغاضي عَن مطالباتِ الحبّ، وإنّ بناءَ مطالباتِ الحبّ على التّجنّي والقهر.

*

نورٌ في البداية هو نور العقل، ونورٌ في الوسائط هو نورُ العلم، ونورٌ في النّهاية هو نورُ العرفان. فصاحِبُ العَقل مع البرهان، وصاحِبُ العِلم مع البيان، وصاحب المعرفة في حكم العيان.

مَنْ وجدَ أنوارَ الغيب ظهرت له خفايا الأمور فلا يُشكِلُ عليه شيءٌ من ذواتِ الصّدور عند ظهُور النّور.

أوّل أثرٍ لأنوار الغَيب في العبد ينبّهه إلى نقائص قَدرِهِ ومساوئ غيّه، ثم يشغلُه عن شهود نفسه مما يلوح لقلبه من شُهود ربّه، ثمّ غلباتُ الأنوار على سرّه حتى لا يشهد السرّ بعد ما كان يشهد، كالنّاظر في قرص الشّمس تُسْتَهْلك أنْوارُ بصَرِهِ في شُعاع الشمس، كذلك تُسْتَهلكُ أنوار البصيرةِ في حقائق الشّهود، فيكون العبد صاحبَ الوجود دونَ الشهود. ثم بعده خمودُ العبد بالكليّة، وبقاءُ الأحديّة بنعت السَّرمديّة.

*

الصراط المستقيم إقامةُ العبوديّة عند تحقّق الربوبية، فَهو فَرْقٌ مؤيَّدٌ بِجمع، وجمعٌ مقيَّد بِشَرْع، وإثباتٌ للعرفان بغاية الوسْع، ونُبوٌّ عن المخالفات بغاية الجهد، والتحقّق بأنّ المُجْري واحدٌ لا شريكَ له، ثم ترك الاعتماد ونفي الاستناد، لا على حركاته يَعْتمِد، ولا إلى سكَناته يستند، بل ينتظرُ ما يَفتح به التّقدير، فإن زاغ صاحبُ الاستقامة لحظةً، والتفتَ يَمْنةً أو يَسْرةً، سقَطَ سقوطاً لا يَنْتعِش.

*

دارُ السّلام غداً لِمن سَلِمَ، اليومَ، لسانُه من الغَيْبة، وجنانُه من الخَيبة، وأبشاره وظواهره من الزلّة، وأَسْرارُه وضمائره من الغَفْلة، وعقله من البِدعة، ومعاملته من الحرام والشّبْهة، وأعماله عن الرّياء والمصانعة، وأحواله من الإعجاب.

*

إن كانت الدار منزّهةً عن قلوب الجار، وليس القربُ منه بتداني الأقطار، فإطلاقُ هذا اللّفظ لقلوب الأحبابِ مؤنِسٌ. بل لو جاز القرْبُ في وصفه من حيث المسافة لم يكن لهذا كبيرُ أَثر، وإنّما حياةُ القلوب بهذا، لأنّ حقيقتَه مقدّسة عن هذه الصفات، فهو لأجل قلوب الأحباب يُطلق هذا ويقع العلماء في كَدّ التأويل، وهذا هو أَمارَةُ الحب.

*

هو وليّهم في دنياهم، ووليُّهم في عقباهم. هو وليّهم في أُولاهم وفي أُخْراهم. وليّهم الذي استولى حديثُه على قلوبهم، فلم يَدَعْ فيها لغيره نصيباً ولا سِوىً. وَليّهُم الذي هو أولى بهم منهم. وليّهم الذي آثرَهم على أَضْرابهم وأشكالهم فآثروه في جميع أحوالهم. وليُّهم الذي تطلَّب رضاهم. وليّهم الذي لم يَكِلْهُمْ إلى هواهم، ولا إلى دنياهم، ولا إلى عقباهم.

وليّهم الذي بأفضالِه يلاطفهم، وبجماله وجلاله يكاشفهم.

وليّهم الذي اخْتطَفهم عن كلّ حظّ ونصيبٍ، وحالَ بينهم وبين كلّ حميمٍ وقريب، فَحرَّرهم من كلّ موصوفٍ ومطلوبٍ ومحبوبٍ. وليّهم الذي هو مُؤنِسُ أسرارهم.

مَشاهِدُهُ مُعْتَكَفُ أبصارهم، وحضرتُه مَرتعُ أرواحهم.

وليّهم الذي ليس لهم سواه. وليّهم الذي لا يشهدون إلا إيّاه ولا يجدون إلاّ إيّاه، لا في بدايتهم يقصدون غيره، ولا في نهايتهم يجدون غيره، ولا في وسائلهم يشهدون غيره.

*

وَسْوسَت إليهم شياطينُهم بالباطل فَقبلت نفوسُهم ذلك، إذ الأشكالُ يَتناصرون، فالنّفس لا تدعو إلاّ إلى الأجنبيّة، لأنّها مُدَّعيةٌ تتوهَّم أنَّ منها شيئاً، وأصلُ كلِّ شرْكٍ الدّعوى، والشّيطانُ لا يوسوس إلاّ بالباطل والكفر، فهم أعوانٌ يتناصرون.

*

كما أَنْشأَ في الظاهر جنّاتٍ وبساتين، كذلك أَنْشأَ في السرّ جنّاتٍ وبساتين. ونزهة القلوب أَتَمُّ من جَنّات الظاهر. فأزهارُ القلوبِ مونقة، وشموسُ الأسرار مشرقة، وأَنهار المعارف زاخرة.

كما تَتَشابَهُ الثّمار، كذلك تتماثل الأحوال. وكما تختلف طعومُها وروائحُها مع تشاكُلِها مِنْ وجهٍ، فكذلك الأحوالُ مختلفةُ القضايا، وإن اشتركت في كونها أحوالاً.

*

كيف أُوثِرُ عليه بدَلاً وإنّي لا أجِدُ عَن حكمه حولاً، وكيف أقولُ بغيرٍ أو ضدٍّ أو شريكٍ؟ أو أقولُ بدونه معبود أو مقصود؟ وإن لاحظتُ يَمْنةً ما شاهدتُ إلاّ ملكه، وإن طالعت يَسْرةً ما عايَنْتُ إلا ملكه. بل إنّي إن نظرتُ يَمْنةً شهدتُ يُمْنَهُ، وإن نظرت يَسْرَةَ وجدتُ نحوي يُسْرَهُ.

*

صَيَّر التّوبَة إليكم، وقصَر حكم عصركم عليكم، فأنتم المقصودون اليومَ دون مَنْ هو سواكم. ثم إنه جعَلكم أصنافاً. فمن مُسَخَّرٍ له، مُرفَّهٍ، مرَوَّحٍ، يَتعبُ لأجله كثير. ومن مُعَنّى، وذي مشقّة أُديرَ عليه رأسُه. وجاء البلاء ليختبركم بما آتاكم، ويَمْتَحِنكم في ما أعطاكم. إنّ حسابه لكم لاحِقٌ، وحكمَه فيكم سابق.

*

«بسم الله الرّحمن الرّحيم»:

الباء مكسورةٌ في نَفْسِها، وعمَلُها الخَفْضُ لأنّها من الحروف الجارّة للأسماء. وهي صغيرةُ القامة في الخَطّ، ونَقْطُها الذي تتميَّزُ به عن غيرها واحِدٌ، وهو نهاية القِلَّة. ثم موضعُ هذه النّقطة أسفلُ الحرف، فهي تشير إلى التّواضع والخضُوع بكلّ وجه.

والسّينُ حرفٌ ساكنٌ، فالإشارة منَ الباء ألاَّ تَذَرَ في الخضوع والتذلّل، والجَهْد والتوسّل، ميسوراً، ثم تسكنُ منتظَراً للتّقدير. فإنْ مَنَّ القبولُ بفضله فذلك المأمول، وإنْ رَدَّ بحكمٍ فله الحكم، فتوافق تقديره بالموافقة في الرِّضا به. وإذِ الميمُ تُشير إلى مُنْتِهِ إن شاء، ثم إلى مُوافقتك لتقديرِهِ بالرّضا بهِ، إنْ لم يَمُنّ.

ويقال الباء تشير إلى بيانِ قلوب أَهْل الحقائق بلطائفِ المُكاشفات بما يختصّهم الحقّ بذلك من دون الخَلْق، فهم على بيانٍ ممّا يَخْفى على الخَلْق. فالغيبُ لهم كشْفٌ والخبَرُ لهم عيان، وما للنّاس عِلْمٌ، فلهم وجودٌ.

والسّين تُشير إلى سرور قلوبهم عند تقريبات البَسْط بما فيه من وجوه المراعاة، وصنوفِ لطائف المناجاة. فهم في جَنّات النعيم، وعيشٍ بَسْطٍ وتكريم، ودَوامِ رَوْحٍ مقيم.

والميم تشير إلى محبّة الحَقّ لهم بدءاً، فإنها هي المُوجبة لمحابِّهم، إذ عنها صدَر كلّ حبٍّ، فبمحبّته لهم أحبّوه، وبِقصده إليهم طلبوه، وبإرادَته لهم أَرادوه.

*

«المص»:

هذه الحروف من المتشابه في القرآن على طريقة قَوْمٍ من السّلَف، والحَقُّ مستأثِرٌ بعلمها دونَ خَلْقه. وعلى طَريقةِ قَوْمٍ، فلَهَا معانٍ تُعْرَفُ، وفيها

إشاراتٌ إلى أشياءَ تُوصَف: فالألِفُ تشير إلى أُلفة الأرواح العَطِرة أصابَت الشكليّةَ مع بَعْض الأرواح العَطرة، فهي في ذلك المعنى كالمتّحدة. فمنه تقع الأُلفةِ بين المُتشاكِلين، ولأجلِ اتّحادِ المَقْصودِ يَتّفِقُ القاصدون.

ويُقال ألِفَ القَلبُ حديثَه فلم يَحْتشِمْ مِن بَذْلِ روحه.

ويُقال الألِفُ تَجرّدَ مَنْ قَصدَهُ عَنْ كلّ غيرٍ، فلم يَتّصل بشيءٍ. وحين اسْتَغنى عن كلّ شيءٍ، اتَّصل به كلُّ شيءٍ على جهة الاحتياج إليه.

ويُقال صورةُ اللاّم كصورةِ الألف، ولكن لَمّا اتّصلت بالحروفِ تعاقَبتْها الحركاتُ كسائر الحروف، فمرّةً أصبحت مفتوحة، ومرّةً مسكونةً، ومرّةً مرفوعةً. وأما الألف التي هي بعيدةٌ عن الاتصال بالعلاقات، فباقِيةٌ على وَصْف التجرُّدِ من تعاقُبِ الحركات عليها، فهي على سكونها الأصليّ.

وأمّا الصّادُ فتشير إلى صدق أحوال المشتاقين في القَصْدِ، وصدق أحوال العارفين في الوَجْد. وتشير إلى صِدْقِ قلوب المريدين وأرباب الطَّلب، إذ العطَشُ نَعْت كلّ قاصدٍ، كما أنّ الدَّهشة وصفُ كلّ واجد.

ويقال الصّاد تُبْدي محبّةً للصدور وهو بلاءُ الأحباب.

ويُقال الصّادُ تطالِبُك بالصّدق في الودّ، وأمارَةُ الصّدق في الودّ بلوغُ النّهاية والكمال، حتى لا يزيد بالبرّ، ولا ينقصُ بالمَنْع.

*

التقى آدمُ بإبليس فقال له: يا شَقيّ، وسوستَ إِليَّ وفَعَلْتُ! فقال إبليس لآدم: يا آدم، هَبْ أَنّي كنتُ إبليسَك، فمن كان إبليسي؟

*

من أَصْغى إلى وساوس نفسه بأَسماع الهَوى وجدَ الشكَّ بين وسواس الشّيطان وهاجسِ النّفس. ويتناصَرُ الوسواسُ والهاجسُ وتصير خواطِرُ القلب وزواجِرُ العلم مغمورةً مقهورةً. فعن قريبٍ تشمل تلك الهواجسُ

والوساوس صاحبَها، ويَنْخرط في سِلْكِ موافقةِ الهوى فيسقط في مَهواة الزلّة. فإذا لم يحصَلْ تداركٌ بوشيكِ التّوبة، صارت الحالة قسوةً في القلب، وإذا قسا القلب فارقته الحياةُ وتَمّ له البلاء.

*

استَرْوحوا في التعلّل إلى سلوكهم نَهْجَ أسلافِهم، فَاسْتمسكوا بِحبْلٍ واهٍ فزلَّت بهم أقدامُ الغرور، وَوقعوا في وَهْدةِ المحنة.

*

القِسْطُ العَدْلُ، وَيقع ذلك في حقّ الله تعالى، وفي حقّ الخَلْق، وفي حقّ نَفْسِكَ.

فالعَدلُ في حقّ الله الوقوفُ على حدّ الأمر من غير تقصيرٍ في المأمورِ به أو إقدامٍ على المَنْهيّ عنه. ثُمّ أَلّا تَدّخرَ عنه شيئاً مِما خَوَّلك، ثمّ لا تؤثر عليه شيئاً في ما أَحلَّ لك. وأَمَّا العدلُ مع الخلق فعلى لسان العلم، بَذلُ الإنصاف، وعلى موجب الفتوّةِ، تَرْكُ الانتصاف.

وأمّا العدلُ في نفسك فَإِدخالُ العتْقِ عليها، وسَدّ أبوابِ الراحة بكلّ وجهٍ عليها، والنّهوض بخلافِها على عموم الأَحْوال في كلّ نَفَسٍ.

*

(...) فَزينةُ العابدين آثارُ التّوفيق، وزينةُ الواجِدينَ أَنْوارُ التَّحقيق، وزينةُ القاصدين تَرْكُ العادَة، وزينة العابدين حسنُ العبادة.

*

زينةُ النّفوس صدارُ الخدمة، وزينة القلوب حفْظُ الحُرْمَة، وزينة الأرواح الإطراقُ بالحضرة باستدامة الهَيْبة والحشمة.

ويقال زينة اللّسان الذِّكْرُ وزينة القلب الشّكر.

ويقال زينة الظّاهر السّجودُ وزينة الباطن الشّهود.

ويقال زينة النّفوس حسنُ المعاملة من حيث المجاهدات، وزينة القلوب دوام المواصَلة من حيث المُشاهدات.

*

فاحشة الخواصّ تتبّع ما لأنفسهم فيه نصيب ولو بِذْرَة أو سِنَّة. ويقال فاحشة الأحباب الصّبرُ على المحبوب. ويقال فاحشة الأحباب أن تَبقى حَيّاً وقد مُنيتَ بالفراق.

*

ويقال فاحِشةُ قومٍ أن تبقى لهم قطرةٌ من الدّمع لم يسكبوها للفرقة، أو يَبقى لهم نَفَسٌ لم يَتَنفَّسوا به في حَسْرة.

*

وَيُقال إذا سقَط قرص الشّمس زال سلطان النّهار، فلا يزدادُ بعده إلا تَراكُم الظّلمة، فإذا ارتحلت عساكِرُ الظّلام بطلوعِ الفجر، فبعد ذلك لا تَبقى فيه للنَّهار تُهمة.

*

آثارُ إعراض الحقّ عنهم أَورثت لهم وحشةَ الوقت. تَبرَّم بعضُهم ببعض، وضاقَ كلّ واحدٍ منهم عن كلّ شيء حتَّى عن نفسه، فدَعا بعضُهم على بعض، وتَبرّأَ بعضهم من بعض، وكذلك صِفَةُ المطرودين. فلا دعاؤُهم يُسمع، ولا بُكاؤهم يَنْفع، ولا بَلاؤُهم يُكْشَف، ولا عَناؤُهم يُرْفَع. كما أحاطتِ العقوباتُ بهم في الدنيا فتدنَّس بالغَفْلةِ باطنُهم، وتلَوَّث بالزلّة ظاهرهم، فكذلك أحاطَتْ العقوبات بجوانبهم، فَمِن فوقهم عذابٌ ومن تحتهم عذابٌ. وكذلك من جوانبهم في القلب من ضيق العَيْش واستيلاءِ الوحشة ما يفي ويَزيد على الكلّ.

*

تَعرَّفَ إلى الخلق بآياته الظّاهرة الدالّة على قُدرته وهي أفعاله، وتَعرّفَ إلى الخواصّ منهم بآياته الدالّة على نُصْرته التي هي أفضالُه وإقبالُه، وظَهَرَ لأسرار خواصّ الخواصّ بنعوته الذّاتية التي هي جمالُه وجلالُه، فشتّانَ بين قوم وقوم.

ثُمّ كما يُدخِلُ في الظاهر اللّيلَ على النّهار والنهارَ على الليل، فكذلك يُدْخِلُ القبضَ على البَسْطَ والبَسْطَ على القبض. ومنه الإشارة إلى ليل القلوب ونَهار القلوب: فمن عبدٍ أحوالُه أجمعُ قبضٌ، ومن عبدٍ أحوالُه أجمعُ بَسْطٌ، ومن عبدٍ يكونُ مرّةً بعين القَبض ومرّةً بعين البَسْط، كما أن بعضَ أقطار العالم فيها نهارٌ بلا ليل، وفي بعضها ليلٌ بلا نهار، وفي بعضها ليلٌ يَدخلُ على نهارٍ ونهارٌ يدخلُ على ليل.

*

(...) فأنصارُ كلّ نبيٍّ إنما هم ضعفاءُ وقتِه، ويلاحظهم أهلُ الغَفْلةِ بعين الاحتقار. ولكن ليس الأمرُ كما تذهب إليه الأوهام، ولا كما يعتقد فيهم الأنام، بل الجواهرُ مَسْتورةٌ في معادنِها، وقيمةُ المَحالِّ بساكنيها.

*

كما أَنَّ أهلَ الخير لا يميلون إلاّ إلى أشكالهم، فأهلُ الشّر لا ينصرونَ إلاّ مَنْ رأوا بأنه يساعدهم على ما هو عليه من أحوالهم، والأَوْحَدُ في بابه مَن بايَنَ نَهْجَ أَضرابه.

*

الحقّ غالبٌ في كلّ أمر، والباطِلُ زاهِقٌ بكلِّ وصف. وإذا كانت العزّةُ نعتَ من هو أزليّ الوجود، وكان الجلالُ حقَّ من هو المَلِك، فأيّ أَثرٍ للكثرة مع القُدْرة؟ وأيّ خطرٍ للعِلل مع الأزل؟

إنْ أحسنوا فالميراث الجميلُ لهم، وإن أساءوا فالضّرر بالتألّم عائِدٌ عليهم. ومالِكُ الأعيان أَوْلى بها من الأَغْيار. فالخلقُ خلقُه والملك ملكُه، إن

شاءَ هداهم، وإن شاء أغواهم، فلا تأسُّف على نَفْيٍ وفَقْدٍ، ولا أَثَرٌ مِن كونٍ ووجود.

*

حرَّكهم بالبلاءِ الأَهْون تحذيراً من البلاء الأصعب، فإذا تمادوا في غيِّهم، ولم ينتبهوا من غفلتهم، مَدَّ عليهم ظلالَ الاستدراج، ووسَّع عليهم أسبابَ التَّفرقة مَكْراً بهم في الحال، فإذا وَطَّنوا على مساعدة الدنيا قلوبَهم، وركنوا إلى ما سَوّلت لهم من امتدادِها، أَبْرزَ لهم مِن مكامنِ التَّقدير ما نَغَّص عليهم طيبَ الحياة، وانْدَقَّ بَغْتةً عنقُ السّرور، وشَرِقوا بما كانوا يَنْهلون من كاساتِ المُنى، فتبدَّل ضياء نهارهم بِسُدْفةِ الوحشة، وتكدَّر صافي مَشْربهم بِيدِ النّوائب، كما سبقَت به القسمة.

*

سلكوا طريقاً واحداً في التمرّد، واجتمعوا في خَطٍّ واحدٍ في الجَحْدِ والتبلّد، فلا للإيمان جَنَحوا، ولا عن العدوان رَجعوا. وكذلك صفة من سَبقت بالشقاء قسمتُه، وحُقّت بالعذابِ عليه كلمته.

*

نَجَم في الغدر طارقُهم، وأَفِل من سماء الوفاءِ شارقُهم، فَعدِمَ أكثرُهم رعايةَ العهد، وحقّت من الحقّ لهم قسمةُ الردّ والصَّدّ.

ويقال: شَكا من أكثرِهم إلى أقلّهم، فالأكثرون مَنْ رَدَّتهم القسمة، والأقلّون من قَبِلتْهمُ الوَصْلة.

*

الخَلْقُ مَحْوٌ في ما هو الوجودُ الأزليّ، فأيّ سلطانٍ لآثار التّفرقة في حقائق الجَمْع؟

*

جَعلوا الإصرارَ على الاستكبار شعارَهم، وهتكوا بألسنتهم في العتوّ، أَستارَهم.

*

جَنَّس عليهم العقوباتِ لَمّا نَوّعوا وجَنَّسُوا فنونَ المخالفات، فلا إلى التَّكْفيرِ عادُوا، ولا إلى التَّطهير تصدّوا، وعُوقِبوا بصرْفِ قلوبهم عن شُهود الحقائق وذلك أبلغُ مِمّا اتَّصل بظواهرهم من فنونِ البلايا.

*

جاء موسى مجيءَ المشتاقينَ، مجيء المهيمن. وجاء مُوسَى بلا موسى، جاء موسى ولم يَبْقَ في موسى شيءٌ لموسى. آلافُ الرجال قَطعوا مسافاتٍ طويلةً، فلم يذكرهم أحد، وهذا موسى خطا خطواتٍ فإلى القيامة يقرأ الصبيان: ﴿ولَمَّا جاء موسى﴾*.

*

ويُقال صار موسى عند سماع الخِطاب بعين السُّكْر، فنطق ما نطَق، والسّكرانُ لا يُؤخَذُ بقوله.

ألا تَرى أنه ليس في نَصّ الكتابِ معهُ عتابٌ بحرف؟ ويُقال أخذته عزّة السّماع فخرجَ لسانُه عن طاعته جَرْياً على مقتضى ما صحبه من الأريحيّةِ وبَسْطِ الوصلة.

ويُقال جمع موسى كلماتٍ كثيرةً يتكلّم بها في تلك الحالة، فإنّ في القصص أَنه كان يتحمّل في أيام الوَعْد كلماتِ الحقّ، ويقول لمعارفه: ألكم حاجَةٌ إلى الله؟ ألكم كلامٌ معه؟ فإني أريد أن أمضيَ إلى مناجاته.

---

* سورة الأعراف، آية:7.

ثم إنّه لَمّا جاء وسمع الخطابَ لم يذكر مما دَبّره في نفسه، وتحمّلَه من قومه، وجمَعه في قلبه شيئاً ولا حرفاً، بل نطقَ بما صار، في الوقتِ، غالِباً على قلبهِ، فقال: رَبّ: أرني أَنظرْ إليكَ.

*

ويُقال لَمّا سَمَتْ همّته إلى أَسنى المطالب ـ وهي الرؤية ـ قُوبِل «بِلَنْ».

*

ويُقال طلب موسى الرّؤيةَ وهو بِوَصْفِ التّفرقة فقال: ﴿ربّ أرني أنظرْ إليك﴾* فأجيب بِلَنْ، لأنّ عينَ الجمع أَتمُّ من عين الفَرْق. فَزع موسى حتّى خَرَّ صَعِقاً، والجَبَلُ صار دَكّاً. ثم الرّوْحُ بعد وقوع الصّعْقةِ على القَلب مكاشفته بما هو حقائِقُ الأحديّة، ويكون الحق بعد امّحاءِ معالم موسى خيراً لموسى من بقاء مُوسى لموسى، فعلى الحقيقة: شهودُ الحقائق بالحقّ أَتمُّ من بقاء الخَلْقِ بالخَلْق.

*

التكبُّر توهّمُ استحقاقِ الحقّ لكَ.

مَنْ رأى لنفسه قيمةً في الدنيا والآخرة فهو متكبّر.

مَن ظنّ أَنَّ شيئاً منه أو له أو إليه، من النّفي والإثبات، إلاّ على وجه الاكتساب، فهو متكبّر.

*

كان دينُهم الأخذَ بالتأويل، وذلك رَوَغَانٌ، في التّحقيق. وإنّ الحقائقَ تأبى إلا الصدق.

ومَنْ شابَ شُوِّبَ له، ومَن صَفَّى صُفِّيَ له.

*

* سورة الأعراف، آية:7.

إذا انتهت مدّة الإمهال فليس بعده إلا حقيقةُ الاستئصال. وإذا سقطَ العبد من عين الله لم ينتعش بعده أبداً، فمن أسقطه حكم الملوك فلا قبول له بعد الردّ.

*

جَمعهم في الخطاب ولكنّه فَرَّقهم في الحال. وطائفةٌ خاطبَهم بوصف القُرْبَة فعرَّفهم في نفس ما خاطبهم، وفِرقَةٌ أبقاهم في أوطان الغَيْبة فأقصاهم عن نَعْت العُرفان وحجبَهم.

*

تجلَّى لقومٍ فتولَّى تعريفَهم فقالوا: بلى عن حاصل يقينٍ. وتَعزَّزَ عن آخرين فأثبتَهم في أوطانِ الجَحْد فقالوا: بلى عن ظنٍّ وتخمين.

ويقال جمع المؤمنين في الأسماء ولكن غَايَرَ بينهم في الرّتب، فجذَبَ قلوبَ قومٍ إلى الإقرار بما أَطْمَعَها فيه من المَسارّ، وأَنْطقَ آخرين بصدْق الإقرار بما أَشْهدهم من العيان وكاشَفهم به من الأَسرار.

ويقال فرقةٌ رَدّهم إلى الهيبة فهَامُوا، وفرقَةٌ لاطَفهم بالقُرْبةِ فاسْتقامُوا.

ويقال عَرَّف الأولياءَ أنه مَنْ هُوَ فتحقَّقوا بتخليصهم، ولَبَّس على الأعداء فتوقَّفوا لحيرةِ عقولهم.

ويُقال أسمعهم وفي نَفْس ما أسْمَعهم أَحْضرهم، ثم أخذَهم عنهم في ما أحضرهم. وقام عنهم فأنطقهم بحكم التّعريف، وحفظ عليهم بحسن التولّي، أحكامَ التّكليف. وكان لهم مكلِّفاً، وعلى ما أَرادَه مصرِّفاً، وبما استخلَصهم له معرِّفاً، وبما رَقَّاهم إليه مشرِّفاً.

ويُقال كاشَفَ قوماً، في حال الخطاب، بجمالهِ فطوَّحهم في هَيمان حبّه، فاسْتمكنَتْ محابُّهم في كوامن أَسرارهم، فإذا سمعوا، اليوم، سماعاً تَجدَّدت

تلك الأحوال، فالانزعاج الذي يظهرُ فيهم لتذكّر ما سلفَ لهم من العهد المتقدّم.

*

موافقةُ الهوى تُنْزِل صاحبَها من سماء العزّ إلى ترابِ الذلّ، وتلقيه في وَهْدة الهوان. ومَنْ لم يصدّق علماً فعن قريبٍ يُقاسيه وجوداً.

*

المحجوبُ عن الحقيقة، عنده الإساءة والإحسان سِيّان. فهو في الحالين: إمّا صاحبُ ضَجرٍ أو صاحِبُ بطَرٍ، لا يحمل المحنةَ إلا على زوال الدّولة، ولا يُقابل النّعمة إلا بالنَّهْمة، فهو في الحالين محجوبٌ عن الحقيقة.

*

أيُّ نَعْتٍ أعلى من وَصْف مَنْ أُكْرِمَ بالقبول الأبديّ؟ وأيّ حيلة تنفع مع من يَخلقُ الحِيلة؟ وكيف تصحّ الوسيلةُ إلاّ لمن منه الوسيلة؟

*

ليست الهدايةُ من حيث السّعاية، إنما الهدايةُ من حيث البداية.

وليست الهداية بفكر العبد ونَظرهِ، إنّما الهدايةُ بفضل الحقّ وجميلِ ذكره.

*

سبحانَ من تَعرَّف إلى أوليائه بنعوته وأَسمائه، فَعرَّفهم أَنه مَنْ هُو، وبأيّ وصفٍ هُو، وما الواجب في وصفه، وما الجائِزُ في نعته، وما الممتنع في حقّه وحكمه. فتجلّى لقلوبهم بما يكاشفهم به من أسمائهِ وصفاته، فإنَّ العقولَ محجوبةٌ عن الهجوم بذواتها لِما يصحّ إطلاقُه في وصفه، وإن كانت واقفةً على الواجب والممتنع في ذاته. فللعقل العرفانُ بالجملة، ولِلشَّرع

الإطلاقُ والبيانُ في الإخبار. والقول في ما وردَ به التّوفيقُ يُطْلَقُ، وما سكت عنه التّوفيقُ يُمْنَع.

*

(...) الإدراكُ لا يجوز على الحقّ. فالعقول عند بوادهِ الحقائق متقنّعةٌ بنقاب الحيرة عند التعرّض للإحاطة. والمعارف تائهةٌ عند قصد الإشراف على حقيقة الذات. والأبصارُ حسيرةٌ عند طلب الإدراك في أحوال الرؤية. والحقّ سبحانه عزيزٌ، وباستحقاق نعوت التعالي مُتفرّد.

*

أَجْرى الحقّ سنّته بِألاَّ يُخْليَ البسيطةَ من أَهْلٍ لها، همُ الغياث وبهم دوامُ الحقّ في الظّهور.

فهدايتهم بالحقّ أَنّهم يدعونَ إلى الحق، ويدلّون على الحقّ، ويتحرّكون بالحق، ويسكنون للحقّ بالحق، وهم قائمون بالحقّ، يصرّفهم الحقّ بالحق. أولئك هم غياث الخلق، بهم يُسْقَوْنَ إذا قَحطوا، ويُمْطَرون إذا أَجْدبوا، ويُجابُونَ إذا دَعوا.

*

النّاس في مغاليط آمالهم ناسون لوشيكِ آجالهم. فكم من ناسجٍ لأكفانه، وكَمْ من بانٍ لأعدائه، وكم من زارعٍ لم يحصد زَرعه.

هيهات! الكبش يعتلفُ والقَصَّابُ مستعدٌّ له.

سُرْعة الأجل تنغّصُ لذّةَ الأمل.

*

السّائِلُ عن السّاعةِ رجلان: مُنْكِرٌ يتعجَّب لفرط جهله، وعارِفٌ مشتاقٌ يَسْتعجل لفرط شوقه. والمتحقّق بوجوده ساكِنٌ في حاله، فسيّان عنده قيام القيامة ودوَامُ السلامة. ويُقال الحقّ استأثَر بعلم السّاعة، فلم يُطْلِعْ على

وَقْتِها نبيّاً ولا صفيّاً. فالإيمانُ بها غيبيٌّ، ويقين أهلِ التّوحيد صادِقٌ عن شوائب الرِّيب. ثم مُعَجَّلُ قيامتهم يوجب الإيمانَ بمؤجَّلِها.

*

(...) تتجنّس عليَّ الأحوال، وتختلف الأطوار. فمِن عسْرٍ يمسّني، ومن يسْرٍ يخصّني. ولو كان الأمرُ بمرادي، ولم يكن بيدِ غيري قيادي، لتشابهت أحوالي في اليُسْر، ولتَشاكلت أوقاتي في البعد من العُسْر.

أَخرج النَّسمَةَ من نَفْسٍ واحدة وأخلاقهم مختلفة، وهِممهُم متباينة، كما أَنَّ الشخص من نطفةٍ واحدة وأعضاؤه وأجزاؤه مختلفة. فَمن قَدِر على تنويع النّطفة المتشاكلةِ أجزاؤُها فهو القادر على تَنويع أخلاق الخَلْقِ الذين أخرجهم من نَفْسٍ واحدة.

*

رَدَّ المِثْلَ إلى المِثْل، وربطَ الشَّكل، ليعلم العالمون أَنّ سكونَ الخَلْق مع الحقّ لا إلى الحقّ، وكذلك أَنْسَلَ الخَلْقَ من الخَلْق لا من الحقّ، فالحق تعالى قدّوسٌ، منه كلّ حظٍّ للخلق خَلْقاً، منزّه عن رجوع شيءٍ إلى حقيقته حَقّاً.

*

شَرُّ النّاس من يبتهل إلى الله عند هجوم البلاء بخلوص الدّعاء، وشدّة التضرّع والبكاء،

فإذا أُزيلت شَكاتُه، ودفعت بمنته آفاتُه، ضَيَّع الوفاء، ونَسيَ البلاء، وقابل الرِّفْدَ بنَقْضِ العهد، وأَبْدَلَ العَقْدَ برفض الودّ.

*

إن سنَح في باطنك من الوَساوس أَثَرٌ فاستعذْ بالله يدركك بحسن التّوفيق. وإن هجَس في صدرك من الحُظوظ خاطِرٌ، فاستعذْ بالله يدركك بإزالة كلّ نصيب.

وإن لحقتكَ في بَذْلِ الجهد فَترةٌ فَاستعِذْ بالله يدركك بإدامة آلائه.

وإن اعترتْك في الترقّي إلى محلّ الوصول وَقْفَةٌ فاستعِذْ بالله يدركك بإدامة التّحقيق.

وإن تقاصر عنك شيء من خصائص القرب، صيانةً لك عن شهود المحلّ، فَاسْتعِذ بالله يُثْبِتْكَ له بدلاً مِنْ لَكَ بِكَ.

*

مَنْ شاهَد الحقَّ من حيث الخَلق سقطَ في مَهْواةِ المَغاليط. فهو في متاهات الشكّ يَجوبُ منازل الرّيب، ولا يَزداد إلاّ عَمىً على عَمىً. ومَنْ طالعَ الخلق بعين تصريفِ القدرة إيّاهم، تَحقَّق بأنّهم لا يظهرون إلا في معرض اختيار الحقّ لهم، فهو ينظر بنور البصيرة، ويَسْتديمُ شهودَ التّصريف بوصف السّكينة.

*

الطالبون في نَوْح رهبتهم، والواصلون في رُوْح قُربتهم، والموحّدون في مَحْو غيبتهم،

اسْتولتْ عليهم الحقائق فلا لهم تطلّعٌ لوقت مُسْتأنَفٍ فيستفزّهم خوفٌ أو يجرفهم طمع، ولا لهم إحساسٌ فتملكهم لذّة،

إذ لَمّا اصْطُلِموا ببوادهِ ما ملكَهم فهم عنهم مَحْوٌ، والغالِب عليهم سواهم.

*

لا يرضون في أعمالهم بإخلال، ولا يتَّصفون بجمع مالٍ من غير حلال، ولا يعرجون في أوطان التّقصير بحال، أولئك الذين صفتهم ألاّ يكون للشريعة عليهم نكير، ولا لهم عن أحكام الحقيقة مقيل.

*

ولهم مغفرةٌ في المآل، والسَّتْر في الحال لأكابرهم. فالمغفرةُ السَّتْر، والحقّ سبحانه يسترُ مثالِبَ العاصين ولا يفضحهم لئلاّ يُحْجَبوا عن مأمول أفضالهم،

ويستر مناقِب العارفين عليهم لِئلاّ يُعْجَبوا بأعمالهم وأَحوالهم،

وفَرْقٌ بين سِتْرٍ وسَتْر، وشَتّان ما هُما.

وأمّا الرّزق الكريم فيُحتمل أَنه الذي يعطيه من حيث لا يُحْتَسَب، ويُحتمل أنه رزق الأسرار بما يكون استقلالُها به من المُكاشفات.

*

التّعريجُ في أوطان الكسل، ومساكنةُ مألوفاتِ الرّاحةِ من خصائص أَحكام النفس، فهي بطبعها تُؤثِرُ في كلّ حالٍ نصيبَها، وتتعجّل لذّةَ حظّها. ولا يصل أحدٌ إِلى جلائل النعم إلاّ بتجرّع كاسات الشّدائد، والانسلاخ عن معهودات النّصيب.

*

غَشيهم النّعاس تلك الليلة فأزال عن ظواهرهم ونفوسهم كَدَّ الأَغْيار والكَلال، وأَنزل على قلوبهم رَوْحَ الأمن، وأَمطرت السماء فاغتسلوا بعدما لَزمتهمُ الطّهارة الكبرى بسبب الاحتلام، واشتدّت الأرض بالمطر فلم ترسب الأقدامُ في رملها، وانتفى عن قلوبهم ما كانت الشّياطين تُوسوس به إليهم أَنّه سيصيبهم العناءُ بسلوك رَمْلِها وبالانتفاء عن الغُسْل،

فلما زايَلهُم الإحساسُ، واستمكن منهم النّعاس، وتداركَتْهُم الكفاية والنّصرة، استيقنوا بأَنَّ الإعانة مِن قِبل الله لا بسكونهم وحركتهم، وأَشْهدهم صَرْف التّأييد وإِتمامَ الكفاية.

وكما طَهّر ظواهرَهم بماء السماء، طَهّر سرائرهم بماء التّحقيق عن شهود كلّ غَيْرٍ وكلّ علّةٍ، وصانَ أسرارَهم عن الإصغاء إلى الوساوس، وربط

على قلوبهم بشهودهم جريانَ التّقدير على حسب ما يجري الحق من فنون التّصريف.

*

الخيانَةُ الاستبطانُ بخلافِ ما يُؤَمَّلُ منكَ بِحَقّ التَّعويل. فَخيانَةُ الله بتضييع ما ائْتمنَكَ عليه، وذلك بمخالفة النّصح في دينه. وخِيانَةُ الرّسول بالاتّصاف بمخالفةِ ما تُبْدي من مُشايَعته.

والخيانة في الأماناتِ بترْكِ الإنصاف، والاتّصاف بغير الصّدق.

وخيانةُ كلّ أحد على حسب ما وُضِعَ عنده من الأمانة. فمن اؤتُمِن في مالٍ وتصرّف فيه بغير إذن صاحبه، خيانة. ومن اؤتُمِن على الحُرَم فملاحظته إيّاهن خيانة. فعلى هذا: الخيانةُ في الأعمال الدّعوى فيها بأنها مِن قِبلكَ دون التّحقيق بأن مُنشئها الله.

والخيانة في الأحوال ملاحظتك لها دون غيبتك عن شهودها باستغراقك في شهود الحق، إن لم يكن استهلاكك في وجود الحقّ. وإذا أَخللتَ بسنّةٍ من السّنن أو أدبٍ من آداب الشرع فتلك خيانة الرسول.

والخيانة في الأمانات، بينك وبين الخلق، تكون بإيثارِ نصيب نفسك على نصيب المسلمين، بإرادة القَلْب فضلاً عن المعاملة بالفعل.

*

الفرقانُ ما به يُفرَّقُ بين الحقّ والباطل من علم وافرٍ وإلهام قاهر. فالعلماءُ فرقانُهم مجلوبُ برهانهم، والعارفون فرقانُهم موهوبُ عرفانهم، فأولئك مع مجهود أنفسهم، وهؤلاء بمقتضى جُودِ ربهم.

العرفان تعريفٌ من الله، والتكفير تخفيفٌ من الله، والغفرانُ تشريفٌ للعبد من الله.

*

المكرُ إظهار الإحسان مع قصد الإساءة في السرّ. والمكرُ من الله الجزاءُ على المكر. ويكونُ المكر بهم أن يُلْقِيَ في قلوبهم أَنه محسنٌ إليهم ثم، في التحقيق، يعذّبهم. وإذا شغَل قوماً بالدنيا صرفَ همومَهم إليها حتّى ينسوا أَمرَ الآخرة، وذلك مكرٌ بهم، إذ يوطّنون نفوسَهم عليها، فيتيح لهم من مأمنهم سوءاً، ويأخذهم بغتةً.

ومن جملة مكره اغترارُ قوم بما يرزقُهم من الصّيت الجميل بين النّاس، وإجراء كثير من الطّاعات عليهم، فأسرارهم تكون بالأغيار منوطةٌ، وهم عن الله غافلون، وعند الناس أَنّهم مُكرَمون.

*

(...) عناءُ الظاهر لا يُقْبَلُ إلاّ مع ضياء السرائر.

*

الخبيثُ ما لا يَصلحُ لله، والطيّب ما يصلحُ لله.

الخبيثُ ما حكمَ الشرع بقبحه وفسادِه، والطيّب ما شهد العِلمُ بحسنه وصلاحه.

ويقال الخبيثُ الكافر، والطيب المؤمن.

الخبيثُ ما شَغل صاحبه عن الله، والطيّب ما أوصلَ صاحبَه إلى الله.

الخبيثُ ما يأخذه المرء وينفقه لحظّ نفسه، والطيّب ما ينفقه بأمر ربه.

الخبيثُ عملُ الكافرِ يُصوّر له ويعذّب بإلقائه عليه، والطيّب عمل المؤمن يُصوّر له في صورةٍ جميلة فيحمل المؤمن عليه.

*

نِعْمَ المولى لكم يومَ قسمة العرفان، ونِعْمَ النّاصر لكم يوم نعمة الغفران.

نعم المولى لك حين لم تكن، ونعم الناصر لك حين كنتَ.

نعم المولى بالتّعريف قبل التكليف.

*

الجهاد قِسمان: جهاد الظّاهر مع الكفّار، وجهاد الباطن مع النّفس والشيطان، وهو الجهاد الأكبر.

وكما أَنَّ في الجهاد الأصغر غنيمةً عند الظَّفر، ففي الجهاد الأكبر غنيمة، وهو أن يملك العبد نَفسه التي كانت في يد العدوّ: الهوى والشيطان. فبعد ما كانت ظواهره مقرّاً للأعمال الذميمة، وباطنُه مستقرّاً للأحوال الدّنيّة يصيرُ محلّ الهوَى مسكنَ الرّضا، ومقرّ الشهوات والمُنَى مسلّماً لِما يَرِدُ عليه من مطالبات المَولى. وتَصيرُ النّفس مستلبةً مِن أَسْرِ الشَّهوات، والقلب مختطَفاً من وَصْفِ الغفلات، والرّوح مُنْتَزَعة من أيدي العلاقات، والسرّ مصوناً عن الملاحظات.

*

الحقّ أَوْضحَ السّبيلَ ونَصب الدّليلَ، ولكن سدَّ بصائرَ قومٍ عن شهود الرشد، وفتحَ بصائر آخرين لإدراك طُرقِ الحق.

الهَالِكُ مَنْ وقَع في أودية التّفرقة، والحيُّ مَنْ حَييَ بنور التعريف.

ويقال الهالك مَنْ كان بحظّهِ مربوطاً، والحيّ من كان من أَسْرِ كلّ نصيبٍ مستلَباً مجذوباً.

*

إنَّ جميعَ الخيرات في ثبات القلب، وبه تَبِينُ أَقدارُ الرّجال. فإذا وردَ على الإنسان خاطِرٌ يزعجه أو هاجِسٌ في نفسه يهيجه، فمن كان صاحبَ بصيرةٍ توقَّفَ ريثما تَتبيّنُ له حقيقةُ الوارد، فيثبُت لكونه رابطَ الجَأْش، ساكنَ القلب، صافيَ اللّب. وهذا نَعْتُ الأكابر.

*

الموافَقةُ بين المسلمين أصلُ الدّين، وأوّلِ الفساد ورأسُ الزَّللِ الاختلافُ.

وكما تَجِبُ الموافقةُ في الدّين والعقيدةِ، تجب الموافقَةُ في الرّأي والعزيمة.

*

(...) أَمّا الذين تَوهّموا الحادثات من أنفسهم فَضلّوا في ساحات حسبانهم، وأَجْروا الأمورَ على ما يسنح لرأيهم، فكلٌّ يَبني على ما يَقعُ له ويختار، فإذا تنازعوا تشعَّبت بهم الآراء، وافترقت بهم الطّرق، فيضعفون، وتختلفُ طرُقهم.

*

الشّيطان إذا زيَّن للإنسان بوساوسه أمراً، والنّفْسُ إذا سوّلت له شيئاً عَميتْ بَصائِرُ أرباب الغَفْلة عن شُهود صواب الرّشد، فيبقى الغافِلُ في قياد وساوسِهِ، ثُمّ تلحقه هواجمُ التّقدير من كوامن المَكْر من حيث لا يرتقب، فلا الشيطان يَفي بما يَعِده، ولا النّفس شيئاً مما تتمنّاه، تَجِدُه.

*

إنّ أصحابَ الغفلة وأربابَ الغِرَّة إذا هَبّت رياحُ صولتهم في زمان غَفْلتهم يلاحظون أهلَ الحقيقة بعين الاستحقار، ويحكُمونَ عليهم بضعف الحال، وينسبونهم إلى الضلال، ويعدّونهم من جملة الجُهّال، وذلك في زمان الفَتْرة ومدّة مُهْلَةِ أهل الغيبة.

والذين لهم قوّة اليقين ونور البصيرة ساكنون تحت جريان الحكم، يَرون الغائبات عن الحواسّ بعيون البصيرة من وراء ستْرٍ رقيق. فلا الطّوارق تهزمهم، ولا هواجِمُ الوقت تستفزّهم. وعن قريبٍ يلوح عَلمُ اليُسر، وتَنْجلي سحائِبُ العُسْر.

*

كَمالُ الهجرة مفارقَةُ الأَخْلاق الذميمة، وهجران النّفس في ترك إِجابتها إلى ما تدعو إليه من شَهواتها. ومن ذلك هجران إخوان السّوء، والتباعد عن الأوطان التي باشر العبد فيها الزلّة، ثم الهجرة من أوطان الحظوظ إلى أوطان رضاء الحقّ.

*

كيف يكون المفلس في عرفانه كالمخلص في إيمانه؟
وكيف يكون المحجوب عن شهوده كالمستهلك في وجوده؟
كيف يقول من يقول «أنا» كمن يقول «أنت»؟

*

هوَّن عليهم كلفة المخاطرة بالمهجة بما وعدهم من الظفر والنصرة، فإن شهود خزي العدو مما يهون عليهم مقاساة السوء. والظفر بالأرب يذهب تعب الطلب.

وشفاء صدور المؤمنين على حسب مراتبهم في المقام والدرجات.

فمنهم مَن شفاء صدره في قهر عدوه،
ومنهم من شفاء صدره في نيل مرجوه.
ومنهم من شفاء صدره في الظفر بمطلوبه،
ومنهم من شفاء صدره في لقاء محبوبه.
ومنهم من شفاء صدره في درك مقصوده،
ومنهم من شفاء صدره في البقاء بمعبوده.

*

لا تكون عمارة المساجد إلا بتخريب أوطان البشرية. فالعابد يعمرها بتخريب أوطان شهوته،

والزاهد يعمرها بتخريب أوطان منيته،
والعارف يعمرها بتخريب أوطان علاقته،
والموحد يعمرها بتخريب أوطان ملاحظته ومساكنته.

وكل واحد منهم واقف في صفته، فلصاحب كل موقف منهم وصف مخصوص.

وكذلك رتبتهم في الإيمان مختلفة، فإيمان من حيث البرهان، وإيمان من حيث البيان، وإيمان من حيث العيان.

*

ليس من قام بمعاملة ظاهره كمن استقام في مواصلة سرائره، ولا من اقتبس من سراج علومه كمن استبصر بشموس معارفه، ولا من نصب بالباب من حيث الخدمة كمن مكن من البساط من حيث القربة وليس نعت من تكلف نفاقاً كوصف من تحقق وفاقاً.

*

علامة الصدق في التوحيد قطع العلاقات، ومفارقة العادات، وهجران المعهودات والاكتفاء بالله في دوام الحالات.

ويقال من كسدت سوق دينه كسدت أسواق حظوظه، وما لم تخل منك منازل الحظوظ لا تعمر بك مشاهد الحقوق.

*

ومن أشد الناس لك عداوة، وأبعدهم عن الإيمان، نفسك المجبولة على الشر، فلا تقْنَعْ إلا بذبحها بمدية المجاهدات. وهي لا تؤمن بالتقدير، ولا يزول شكها قط، وكذلك تخلد إلى التدبير، ولا تسكن إلا بوجود المعلوم، ولا تقبل منك إلا كاذب المواعيد.

*

من رام أن يستر شعاع الشمس بدخان يوجهه من نيرانه، أو عالج أن يمنع حكم السماء بحيلته، وتدبيره، أو يسقط نجوم الفلك بسهام قوسه،

أظهر رعونته ثم لم يحظ بمراده. كذلك من توهم أن سنة التوحيد يعلوها وهج الشبه فقد خاب في ظنه، وافتضح في وهمه.

*

من لاحظ الخلق في الجهر من أعماله، وركن إلى الكسل في السر من أحواله فقد وُصِمَ بالخذلان، وخُتِمَ بالحرمان، وهذه هي أمارة الفرقة والقطيعة.

*

إذا غُرِّب العبد عن مألوفات أوطانه فهو في قرى الحق.

فالجوع طعامه، والخلوة مجلسه، والمحبة شرابه، والأنس شهوده، والحق مشهوده.

*

المؤمن بالمؤمن يتقوّى، والمنافق بالمنافق يتعاضد، وطيور السماء على ألّافها تقع. فالمنافق لصاحبه أُسٌّ به قوامه، وأصل به قيامه، يعينه على فساده، ويعمي عليه طريق رشاده.

والمؤمن ينصر المؤمن ويبصره عيوبه، ويبغض لديه ويقبح في عينيه ذنوبه، وهو على السداد ينجده، وعن الفساد يبعده.

*

وعدهم جميعاً الجنة، ومساكن طيبة، ولا يطيب المسكن إلا برؤية المحبوب، وكل محب يطيب مسكنه برؤية محبوبه، ولكنهم مختلفون في الهمم، فمن مربوط بحظ مردود إلى الخلق، ومن مجذوب بحق موصول بالحق.

*

بعدما ظهرت خيانتهم، وتقرر كذبهم ونفاقهم، لا تنخدع بتملقهم، ولا تثق بقولهم، ولا تمكنهم من صحبتك في ما يظهرونه من وفاقك. فإذا وهن سلك العهد فلا يحتمل بعده الشد، وإذا اتسع الخرق لا ينفع بعده الرقع.

*

من استوطن مركب الكسل، واكتسى لباس الفشل، وركن إلى مخاريق الحيل حرم استحقاق القربة.

*

المريد يجب أن يؤسس بنيانه على يقين صادق في ما يعتقده. ثم على خلوص في العزيمة ألا ينصرف قبل الوصول عن الطريق الذي يسلكه.

ثم على انسلاخه عن جميع مناه وشهواته، ومآربه ومطالبه.

ثم يبني أمره على دوام ذكره بحيث لا يعترضه نسيان.

ثم على ملازمة حق المسلمين وتقديم مصالحهم... بالإيثار على نفسه.

*

عروق النفاق لا تقتلع من عرصات اليقين إلا بمنجل التحقق بصحيح البرهان، فمن أُيِّد لإدامة المسير، ووفِّق لتأمل البرهان، وصل إلى ثلج الصدور وروح العرفان.

ومن أقام على معتاد التقليد لم يسترح قلبه من كدِّ التردد، وظلمة التجويز، وجولان الخواطر المشكلة في القلب.

*

ويقال تائب يرجع عن أفعاله إلى تبديل أحواله، فيجد غداً فنون أفضاله، وصنوف لطفه ونواله،

وتائب يرجع عن كل غير وضدٍّ إلى ربه بربه لربه.

*

وتائب يرجع لحظ نفسه من جزيل ثوابه أو حذراً على نفسه من أليم عذابه،

وتائب يرجع لأمره برجوعه وإيابه،

وتائب يرجع طلباً لفرح نفسه حين ينجو من أوضاره، ويخلص من شؤم أوزاره.

*

(...) يسيحون في الأرض على جهة الاعتبار طلباً للاستبصار، ويسيحون بقلوبهم في مشارق الأرض ومغاربها بالتفكر في جوانبها ومناكبها، والاستدلال بتغيرها على منشئها، والتحقق بحكمة خالقها بما يرون من الآيات فيها، ويسيحون بأسرارهم في الملكوت فيجدون روح الوصال، ويعيشون بنسيم الأنس بالتحقق بشهود الحق.

*

النهار وقت حضور أهل الغفلة في أوطان كسبهم، ووقت أرباب القربة والوصلة لانفرادهم بشهود ربهم.

والليل لأحد شخصين: أما للمحب فوقت النجوى، وأما للعاصي فبث الشكوى.

*

لو أراد أن يطلبوه لطلبوه، ولو طلبوا لعرفوا، ولو عرفوا لأحبوا، ولو أحبوا لاشتاقوا، ولو اشتاقوا لرجوا، ولو رجوا لأملوا لقاءه.

*

كما أن الربيع تتورد أشجاره، وتظهر أنواره، وتخضر رباعه، وتتزين بالنبات وهاده وتلاعه، لا يؤمن أن تصيبه آفة من غير ارتقاب، وينقلب الحال بما لم يكن في الحساب،

كذلك من الناس من تكون له أحوال صافية، وأعمال بشرط الخلوص زاكية. غصون أنسه متدلية، ورياض قربه مونقة. ثم تصيبه عين فيذبل عود وصاله، وتنسدُّ أبواب عوائد إقباله.

*

من عرف كمال القدرة لم يأمن فجأة الأخذ بالشدة، ومن خاف البيات لم يستلذ السبات.

من توسد الغفلة أيقظته فجأة العقوبة، ومن استوطن مركب الزلَّة عثر في وهدة المحنة.

*

بعد انتهاك ستر الغيب، لا يُقبل تضرع المعاذير.

*

الخواص منهم لا خوف عليهم في الحال لأن حقيقة الخوف توقع محذور في المستقبل، أو ترقب محبوب يزول في المستأنف.

وهم بحكم الوقت، ليس لهم تطلع إلى المستقبل. والحزن هو أن تتالهم حزونة في الحال، وهم في روح الرضا بكل ما يجري فلا تكون لهم حزونة الوقت. فالولي لا خوف عليه في الوقت، ولا له حزن بحال، فهو بحكم الوقت.

ولا يكون ولياً إلا إذا كان موفقاً لجميع ما يلزمه من الطاعات، معصوماً بكل وجه عن جميع الزلات.

وكل خصلة حميدة يمكن أن يعتبر بها فيقال هي صفة الأولياء. ويقال الولي من فيه هذه الخصلة.

الولي من لا يقصر في حق الحق، ولا يؤخر القيام بحق الخلق، يطيع لا لخوف عقاب، ولا على ملاحظة حسن مآب، أو تطلع لعاجل اقتراب، ويقضي لكل أحد حقاً يراه واجباً، ولا يقتضي من أحد حقاً له، ولا ينتقم، ولا ينتصف ولا يشمت ولا يحقد، ولا يقلد أحد منة، ولا يرى لنفسه ولا لما يعمله قدراً ولا قيمة.

*

الليل لأهل الغفلة بُعدٌ وغيبة، ولأهل الندم توبةٌ وأوبة، وللمحبين زلفة وقربة، فالليل بصورته غير مؤنس، لكنه وقت القربة لأهل الوصلة.

*

صفة أهل الخصوص ملاحظة أنفسهم وأحوالهم بعين الاستصغار.

*

إن كنتم في غطاء الريب فأنا في ضياء من الغيب،

وإن كنتم في ظلمة الجهل فأنا في شموس الوصل،

وإن كنتم في سدفة الضلالة فأنا في خلعة الرسالة وعلى أنوار الدلالة.

وقد تميزنا على مفرق الطريق: فأنتم وقعتم في وهدة الموج، وأنا ثابت على سواء النهج.

*

من استبصر ربح رشد نفسه، ومن ضل فقد زاغ عن قصده. فهذا بلاء اكتسب، وذلك ضياء وشفاء اجتلب.

*

مستقر المريد بباب شيخه كمستقر الصبي بباب والديه.

ويقال مستقر العابدين المساجد، ومستقر العارفين المشاهد، فالمساجد مستقر نفوس العابدين، والمشاهد مستقر قلوب العارفين.

ويقال مستقر المحب رأس سكة محبوبه لعله يشهده عند عبوره.

ويقال المساجد للعابدين مستقر القدم، والمشاهد للعارفين مستقر الهمم، والفقراء مستقرهم سدة الكرم.

ويقال الكل له مثوى ومستقر، أما الموحد فإنه لا مأوى له ولا مستقر ولا مثوى ولا منزل.

ويقال النفوس مستودع التوفيق من الله، والقلوب مستودع التحقيق من قبل الله.

ويقال القلوب مستودع المعرفة، فالمعرفة وديعة فيها. والأرواح مستودع المحبة فالمحاب ودائع فيها. والأسرار مستودع المشاهدات فالمشاهدات ودائع فيها.

*

يقال أحسن الأعمال ما كان صاحبه أشد إخلاصاً فيه.

ويقال أحسنهم عملاً أبعدهم عن ملاحظة أعماله.

ويقال أحسن الأعمال ما ينظر إليه صاحبه بعين الاستصغار.

ويقال أحسن الأعمال ما لا يطلب صاحبه عليه عوضاً.

ويقال أحسن الأعمال ما غاب عنه صاحبه لاستغراقه في شهود المعبود.

*

تكدُّر ما صفا من النِّعَم، وتَغَيُّر ما أُتيح من الإحسان والمنن حال معهودة وخطة عامة، فلا أحد إلا وله منها حظّه.

فمن لم يرجع بالتأسف قلبه، ولم يتضاعف في كل نفس تلهفه وقربه، ففي ديوان النسيان، وأثبت اسمه في جملة أهل الهجران.

ومن استمسك بعروة التضرع، واعتكف بعقوة التذلل، احتسى كاسات الحسرة عللاً بعد نهل طاعته للحق بنعت الرحمة، وجدد له ما اندرس من أحوال القربة، وأطلع عليه شمس الإقبال بعد الأفول والغيبة.

وليس للأحوال الدنيوية خطر في التحقيق، ولا يعد زوالها وتكدرها من جملة المحن عند أرباب التحصيل. لكن المحنة الكبرى والرزية العظمى ذبول غصن الوصال، وتكدّر مشرب القرب، وأفول شوارق الأنس، ورمد بصائر أرباب الشهود.

فعند ذلك تقوم قيامتهم، وهناك تسكب العبرات. ويقال إذا نعق في ساحات هؤلاء غراب البين ارتفع إلى السماء نواح أسرارهم بالويل.

*

الصبح لا خلل في ضيائه لكون الناظرين عمياناً، والسيف لا خلل في مضائه لكون الضاربين صبياناً. وكيف لبشرٍ قدرةٌ على هداية من أضله الله، ولو كان نبياً؟

هيهات لا ينفع مع الجاهل نصح، ولا ينجح في المصرّ وعظ!

*

من لم يساعده تعريف الحق، بما له بحكم العناية، لم ينفعه نصح الخلق في النهاية.

ويقال من لم يوصله الحق للوصال في آزاله لم ينفعه نصح الخلق في حاله.

ويقال من سبق الحكم له بالضلالة، أنّى ينفعه النصح وبسط الدلالة؟

ويقال من لم تساعده قسمة السوابق لم ينفعه نصح الخلائق.

*

سبق لهم الحكم بالغرق، وأمواج بحر التقدير تتلاطم. فكل في بحار القدرة مغرقون إلا من أهَّله الحقُّ بحكمه، فحمله في سفينة العناية.

ويقال كان قوم نوح من الغرقى في بحار القطرة، ومن قبل كانوا غرقى في بحار القدرة.

*

المستقيم من لا ينصرف عن طريقه، يواصل سيره بمسراه، وورعه بتقواه، ويتابع ترك هواه.

ويقال استقامة النفوس في نفي الزلة، واستقامة القلوب في نفي الغفلة، واستقامة الأرواح بنفي العلاقة، واستقامة الأسرار بنفي الملاحظة.

استقامة العابدين ألا يدخروا نفوسهم عن العبادة وألا يخلّوا بأدائها. واستقامة الزاهدين ألا يرجوا من دنياهم قليلها ولا كثيرها.

*

بَسط الأرض ودحاها، والجبال أرساها،

وفجَّر عيونها، وأجرى أنهارها،

وجنَّس بحارها، ونوَّع من الحيوانات ما جعل البحر قرارها،
وأنْبتَ أشجارها، وصنّف أزهارها وثمارها، وكوّر عليها ليلها ونهارها.

*

فمن سبخ ومن حجر ومن رمل. أنواع مختلفة، وأزواج متفقة، وزروع ونبات وأشجار وأشتات، وأصل الكل واحد. فأجزاؤها متماثلة، وأبعاضها متشاكلة. ولكن جعل بعضها غدقاً، وبعضها قشراً، وبعضها غصناً، وبعضها جذعاً، وبعضها أزهاراً، وبعضها أوراقاً. ثم الكل واحد، وإن كان لكل واحد طبع مخصوص ولون مخصوص وقشر مخصوص مع أنها تسقى بماء واحد، إذ يصل إلى كل جزء من الشجر من الماء مقدار ما يحتاج إليه.

*

دواعي الحق تصير لائحةً في القلوب من حيث البرهان. فمن استمع إليها بسمع الفهم، استجاب لبيان العلم. وفي مقابلتها دواعي الشيطان التي تهتف بالعبد بتزيين المعاصي،

فمن أصغى إليها بسمع الغفلة استجاب لصوت الغي، ومعها دواعي النفس وهي قائدة للعبد بزمام الحظوظ، فمن ركن إليها ولاحظها وقع في هوان الحجاب.

ودواعي الحق تكون بلا واسطة ملك، ولا بدلالة عقل، ولا بإشارة علم، فمن أسمعه الحق ذلك استجاب لا محالة لله بالله.

*

(...) نور اليقين ينفي ظلمة الشك، والعلم ينفي تهمة الجهل، ونور المعرفة ينفي أثر النكرة، ونور المشاهدة ينفي آثار البشرية، وأنوار الجمع

تنفي آثار التفرقة. وعند أنوار الحقائق تتلاشى آثار الحظوظ، وأنوار طلوع الشمس من حيث العرفان تنفي سدفة الليل من حيث حسبان أثر الأغيار.

ثم الجواهر التي تتخذ منها الأواني مختلفة. فمن إناء يتخذ من الذهب وآخر من الرصاص، إلى غيره. كذلك القلوب تختلف، وفي الخبر: إن لله تعالى أواني وهي القلوب، فزاهد قاصد ومحب واجد، وعابد خائف وموحد عارف، ومتعبد متعفف ومتهجد متصوف.

*

كما أن الثمار تختلف في الطعم والطبع والرائحة والصورة، كذلك ثمرات الطاعات ومعاني الأشياء التي يجدها العبد في قلبه تختلف عن حلاوة الطاعة وهي صفة العابدين. والبسْط الذي يجده العبد في وقته وهو صفة العارفين، وراحة في الضمير وهو صفة المريدين، وأنس يناله في سره وهو صفة المحبين، وقلق واهتياج يجدهما ولا يعرف سببهما، ولا يجد سبيلاً إلا سكونه وهو صفة المشتاقين.

إلى ما لا يفي بشرحه نطق، ولا يستوفيه تكلف قول وذكر من لوائح ولوامع، وطوارق وشوارق.

*

والشجرة الطيبة، وأصلها ثابت في أرض غير سبخة، والأرض السبخة قلب الكافر والمنافق، فالإيمان لا ينبت في قلبيهما، كما أن الشجرة في الأرض السبخة لا تنبت. ثم لابد للشجرة من الماء، وماء هذه الشجرة دوام العناية، وإنما تورق بالكفاية، وتتورد بالهداية.

ويقال ماء هذه الشجرة ماء الندم والحياء والتلهف والحسرة والأمانة والخشوع وإسبال الدموع.

ويقال ثمرات هذه الشجرة مختلفة بحسب اختلاف أحوالهم، فمنها التوكل والتفويض والتسليم، والمحبة والشوق والرضا، والأحوال الصافية الوافية، والأخلاق العالية الزكية.

ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة هي كلمة الكفر، وخبثها ما صحبها من نجاسة الشرك، فخبث الكلمة لصدورها عن قلب هو مستقر الشرك ومنبعه.

والشجرة الخبيثة هي الشرك اجتث من فوق الأرض، لأن الكفر متناقض متضاد، ليس له أصل صحيح، ولا برهان موجب، ولا دليل كاشف، ولا علة مقتضية، إنما هو شبه وأباطيل وضلال.

*

القول الثابت هو بنطق القلوب لا بذكر اللسان.

*

في الظاهر رفع السماء فأعلاها، والأرض من تحتها دحاها، وخلق فيها بحاراً، وأجرى أنهاراً، وأنبت أشجاراً، وأثبت لها أنواراً وأزهاراً، وأمطر من السماء ماء مدراراً. وأخرج من الثمرات أصنافاً، ونوع لها أوصافاً، وأفرد لكل منها طعماً مخصوصاً، ولإدراكه وقتاً معلوماً.

وأما في الباطن فسماء القلوب زينها بمصابيح العقول، وأطلع فيها شمس التوحيد، وقمر العرفان.

*

إذا رام الشياطين أن يسترقوا السمع كانت النجوم لها رجوماً.

كذلك للقلوب نجوم وهي المعارف وهي في الوقت نفسه رجوم على الشياطين. فلو دنا إبليس وجنوده من قلب ولي من الأولياء أحرقته بل محقته نجوم عقله وأقمار علمه وشموس توحيده.

وكما أن نجوم السماء زينة للناظرين إذا لاحظوها، فقلوب العارفين إذا نظر إليها ملائكة السماء لهي زينة.

*

النفوس أرض عبادة العابدين، وقلوب العارفين أرض المعرفة، وأرواح المشتاقين أرض المحبة، والخوف والرجاء لها رواسٍ. وكذلك الرغبة والرهبة.

ويقال من الرواسي التي أثبتها في الأرض الأولياء. فبهم يثبت الناس إذا وقع بهم الفزع. ومن الرواسي العلماء الذين بهم قوام الشريعة، فعلماء الأصول هم قوام أصل الدين، والفقهاء بهم نظام الشرع.

*

كما أنبت فنوناً من النبات ذات أنوار، أنبت في القلوب صنوفاً في الأنوار. منها نور اليقين ونور العرفان، ونور الحضور ونور الشهود، ونور التوحيد... إلى غير ذلك من الأنوار.

*

كما أن الرياح في الآفاق مقدمات المطر. كذلك الآمال في القلوب، وما يقرب العبد مما يتوارد على قلبه من مبشرات الخواطر، ونسيم النجاة في الطلب يحصل، فيستروح القلب إليه قبل حصول المأمول من الكفاية واللطف.

*

من هاجر عن أوطان السوء، أبدل له الله في جوار أوليائه ما يكون له في جوارهم معونة على الزيادة في صفاء وقته.

ومن هجر أوطان الغفلة مكّنه الله من مشاهد الوصلة.

*

الصبر الوقوف بحسب جريان القضاء، والتوكل التوقي بالله بحسن الرجاء.

ويقال صبروا في الحال، وتوكلوا على الله في تحقيق الآمال.

ويقال الصبر تحسي كاسات المقدور، والتوكل الثقة في الله في استدفاع المحذور.

ويقال الصبر تجرع ما يسقى، والتوكل الثقة بما يرجو.

ويقال إنما يقوون على الصبر بما حققوا من التوكل.

*

للنفوس وطن، وللقلوب وطن. والناس على قسمين مستوطن ومسافر: فكما أن الناس بنفوسهم مختلفون فكذلك بقلوبهم. فالمريد أو الطالب مسافر بقلبه لأنه يتلَّون، ويرتقي من درجة إلى درجة. والعارف مقيم ومستوطن لأنه واصل متمكن. والطريق منازل ومراحل، ولا تقطع تلك المنازل بالنفوس وإنما تقطع بالقلوب،

والمريد سالك والعارف واصل.

*

شيطان كل واحد ما يشغله عن ربه،

فمن تسلطت عليه نفسه حتى شغلته عن ربه ولو بشهود طاعة أو استحلاء عبادة أو ملاحظة حال، فذلك شيطانه.

*

أنّى يكون للشيطان سلطان على العبد، والحقّ متفردٌ بالإبداع، متوحد بالاختراع؟

إنما سلطانه على الذين هم في غطاء غفلتهم وستر ظنونهم ومشتبهاتهم.

*

يقال الفرق بين من قام بالعلم وبين من قام بالحق أن العلماء يعرفون الشيء أولاً ثم يعلمون بعلمهم، وأصحاب الحق يجري عليهم بحكم التصريف شيء لا علم لهم به على التفصيل، وبعد ذلك يكشف لهم وجهه.

وربما يجري على ألسنتهم شيء لا يدرون وجهه. ثم بعد فراغهم من النطق به يظهر لقلوبهم برهان ما قالوه، ودليل ما نطقوا به من شواهد العلم.

*

الليل:

لطالبي النجاة وهم العاصون من جنح منهم إلى التوبة،

أو لأصحاب الدرجات وهم الذين يجدّون في الطاعات، ويسارعون في الخيرات،

أو لأصحاب المناجاة مع المحبوب عندما يكون الناس في ما هم فيه من الغفلة والغيبة.

ويقال الليل لأحد رجلين: المطيع والعاصي. هذا في احتيال أعماله، وهذا في اعتذاره عن قبيح أفعاله.

*

ما تكنه الضمائر يلوح على السرائر،

فمن صفا من الكدورة جوهره لا يفوح منه إلا نشر مناقبه،

ومن طبعت على الكدورة طينته فلا يشمّ من يحوم حوله إلا ريح مثالبه.

ويقال حركات الظواهر تدل وتخبر عن بواطن السرائر.

*

ويقال من عجنت بماء الشقوة طينته، وطبعت على النكرة جبلّته، لا تسمح بالتوحيد قريحته، ولا تنطق بالتوحيد عبارته.

*

النفس لا تقف على ما في القلب،

والقلب لا يقف على أسرار الروح،

والروح لا سبيل له إلى حقائق السر،

والذي هو أخفى من السر لا يفسده الشيطان، ولا يكتبه الملكان.

ويستأثر بعلمه الجبار، ولا تقف عليه الأغيار.

*

ويقال لما ظهر به البلاء اجتمع قومه وقالوا لها*: أخرجي هذا المريض من قريتنا، فإننا نخاف العدوى وأن يمسنا بلاؤه. فأخرجته إلى باب القرية، فقالوا: إنا إذا أصبحنا وقعت أبصارنا عليه، فنتشاءم به، فأبعديه عن أبصارنا.

فحملته إلى أرض قفر، وكانت تدخل البلد، وتستأجر للخبز والعمل في الدور، فتأخذ الأجرة وتحملها إليه. فلما علموا أنها امرأته استقذروها ولم يستعملوها.

ويقال إنها كانت ذات ذوائب وقرون، وكان أيوب يأخذ بذوائبها عند نهوضه، فباعت ذوائبها برغيف أخذته لتحمله إليه. فوسوس له الشيطان بأنها فعلت الفحشاء، وأن شعرها جُزَّ في ذلك. فحلف أيوب أن يجلدها إذا صح حدسه. وكانت المحنة على قلب تلك المرأة أشد مما على بدَن أيوب من كل المحن.

*

يقف المؤمن على تعيين شعائر الله وتفصيلها بشهادة العلم جهراً، وبخواطر الإلهام سراً. وكما لا تجوز مخالفة شهادة الشرع لا تجوز مخالفة شهادة خواطر الحق. فإن خاطر الحق لا يكذب، وعزيز من له عليه وقوف. وكما أن النفس لا تصدق فالقلب لا يكذب،

وإذا خولف القلب عمي في المستقبل، وانقطعت عنه تعريفات الحقيقة، والعبارة والشرح يتقاصران عن ذكر هذا التعيين والتفسير.

---

* الإشارة إلى أيّوب النبيّ وامرأته.

ويقوى القلب بتحقيق المنازلة، فإذا خرست النفوس، وزالت هواجسها، فالقلوب تنطق بما تكاشف به من الأمور.

*

أنزل من السماء ماء المطر الذي هو سبب حياة الأرضين.

ويقال ماء هو صوب الرحمة يزيل به درن العصاة وآثار زلتهم وأوضار عثرتهم.

وماء هو سقي قلوبهم يزيل به عطش تحيرهم، ويحيي به موات أحوالهم، فتنبت في رياض قلوبهم فنون أزهار البسط، وصنوف أنوار الروح.

وماء هو شراب المحبة فيخص به قلوباً بساحات القرب، فيزيل عنها به حشمة الوصف، ويسكن به قلوباً فيعطلها عن التمييز، ويحملها على التجاسر ببذل الروح، فإذا شربوا طربوا، وإذا طربوا لم يبالوا بما وهبوا.

*

(...) فمستقيمٌ على حقّه، وتائهٌ في غيّه، ومصرٌّ على عصيانه وفسقه، ومقيم على إحسانه وصدقه. كلٌّ مربوط بحده، موقوف بما قسم له في البداية من شأنه. كلٌّ ينتحل طريقته ويدّعي بحسن طريقته حقيقته.

*

مسارعٌ بقدمه من حيث الطاعات، ومسارع بهممه من حيث المواصلات، ومسارع بندمه من حيث تجرع الحسرات.

والكل مصيب، وللكل من إقباله، على ما يليق بحاله، نصيب.

*

استماع الغيبة نوع من الغيبة.

بل مستمع الغيبة شر المغتابين، إذ بسماعه يتم قصد صاحبه.

وإذا سمع المؤمن ما هو سوء قالةٍ في المسلمين، مما لا صحة له في التحقيق، فالواجب الرد على قائله، ولا يكفي في ذلك السكوت دون النكير. ويجب رد قائله بأحسن نصيحة، وأدق موعظة.

*

ويقال شهادة الأعضاء في القيامة مؤجلة، وشهادتها في المحبة اليوم معجلة،

من صفرة الوجه إذا بدا المحبوب، وشحوب اللون، ونحافة الجسم، وانسكاب الدموع، وخفقان القلب، وغير ذلك.

*

الخواص لا يرون لأنفسهم ملكاً يتفردون به، لا من الأموال المنقولة ولا من المساكن التي تصلح لأن تكون مدخولة،

فمن فاتحهم بشيء منها فلا يكون منهم منع ولا زجر، ولا حجب لأحد ولا حظر. هذا فيما نيط بهم. أما فيما ارتبط بغيرهم فلا يتعرضون لمن هي في أيديهم، لا باستشراف طمع، ولا بطرق سؤال، ولا على وجه انبساط.

فإن كان حكم الوقت يقتضي شيئاً من ذلك فالحق يلجئ من في يده الشيء ليحمله إليه بحكم التواضع والتقرب، والولي يأخذ ذلك بنعت التعزز، ولا يليق معنى ذلك إلا بأحوال تلك القصة.

*

قوله: «لا شرقية» بحيث تصيبه الشمس بالعشي دون الغداة، و«لا غربية» بحيث تصيبه الشمس بالغداة دون العشي، بل تصيبه الشمس طول النهار ليتم نضج زيتونه، ويكمل صفاء زيته. والإشارة فيه أنه لا ينفرد خوف قلوبهم عن الرجاء فيقرب من اليأس، ولا ينفرد رجاؤهم عن الخوف فيقرب من الأمن، بل هما يعتدلان، فلا يغلب أحدهما الآخر.

تقابل هيبتهم أنسهم، وقبضهم بسطهم، وصحوهم محوهم، وبقاؤهم فناءهم، وقيامهم بآداب الشريعة تحققهم بجوامع الحقيقة.

ويقال «لا شرقية ولا غربية»: أي أن هممهم لا تسكن شرقياً ولا غربياً، ولا علوياً ولا سفلياً، ولا جنياً ولا إنسياً، ولا عرشاً ولا كرسياً.

سطعت عن الأكوان، ولم تجد سبيلاً إلى الحقيقة، لأن الحق منزه عن اللحوق والدرك، فبقيت عن الحق منفصلة، وبالحق غير متصلة، وهذه صفة الغرباء. وإن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ.

ويقال نور القلب: ثم موجبه هو دوام الانزعاج، فلا يذره يعرج في أقطار الكسل، فيصل سيره بسراه في استعمال فكره، والحق يمده بنور التوفيق حتى لا يصده عن عوارض الاجتهاد شيء من حب رياسة، أو ميل لسوء، أو هوادة. فإذا أسفر صبح غفلته، واستمكن النظر من موضعه حصل العلم لا محالة. ثم لا يزال يزداد يقيناً على يقين مما يراه في معاملته من القبض والبسط، والمكافأة والمجازاة في زيادة الكشف عند زيادة الجهد، وحصول الوجد عند أداء الورد.

ثم بعده نور المعاملة، ثم نور المنازلة، ثم متوع نهار المواصلة. وشموس التوحيد مشرقة، وليس في سماء أسرارهم سحاب ولا في هوائها ضباب. ويقال نور المطالبة يحصل في القلب فيحمل صاحبه على المحاسبة. فإذا نظر في ديوانه، وما أسلفه من عصيانه يحصل له نور المعاينة.

وبعد هذا نور المحاضرة وهي لوائح تبدو في السرائر. ثم بعد ذلك نور المكاشفة وذلك بتجلي الصفات. ثم بعده نور المشاهدة فيصير ليله نهاراً، ونجومه أقماراً، وأقماره بدوراً، وبدوره شموساً.. ثم بعد هذا أنوار التوحيد، وعند ذلك يتحقق التجريد بخصائص التفريد، ثم ما لا تتناوله عبارة ولا تدركه إشارة.

*

(...) ترتفع بقدرته بخارات البحر، وتصعد بتسييره وتقديره إلى الهواء وهو السحاب، ثم يديرها إلى سمت يريد أن ينزل به المطر، ثم ينزل ما في السحاب من ماء البحر قطرة قطرة، ويكون الماء قبل حصول بخارات البحر غير عذب فيقلبه عذباً، ويسحه السحاب سكبا، فيوصل إلى كل موضع قدرا يكون له مراداً معلوماً، لا بالجهد من المخلوقين يمسك أو ينزل، ولا بالحيلة يستنزل على المكان الذي لا يمطره.

*

راحة الجنة مقرونة بسعتها، ووحشة النار مقرونة بضيقها، فيضيق عليهم مكانهم، وتضيق عليهم قلوبهم، وتضيق عليهم أوقاتهم.

ولو كانت حياتهم تبطل وكانوا يتخلصون منها لم يكن البلاء كاملاً، ولكنها آلام لا تتناهى، ومحنٌ لا تنقضي.

*

جعل الليل وقتاً لسكون قوم ووقتاً لانزعاج آخرين،

فأرباب الغفلة يسكنون في ليلهم، والمحبون يسهرون في ليلهم إن كانوا في روح الوصال،

فلا يأخذهم النوم لكمال أنسهم، وإن كانوا في ألم الفراق فلا يأخذهم النوم لكمال قلقهم. فالسهر للأحباب صفة: إما لكمال السرور أو لهجوم الهموم. ويقال جعل النوم للأحباب وقت التجلي بما لا سبيل إليه في اليقظة، فإذا رأوا ربهم في المنام يؤثرون النوم على السهر.

*

يُرسل رياحَ الكرَم فتهبُّ على قلوب ذوي الحاجات فتزعجها إلى طلب مبارّه،

ويرسل رياح الولاية فتهبُّ على قلوب الخواصِّ فتطهّرها من جميع الإرادات فتكفى بالله لله،

ويرسل رياح الخوف على قلوب العصاة فتحملهم على الندم، وتطهرها من الإصرار فترجع إلى التوبة،

ويرسل رياح الاشتياق على قلوب الأحباب، فتزعجها عن المساكنات، وتطهرها عن كل شيء إلا عن اللواعج فلا يستقر إلا بالكشف والتجلي.

*

ويقال خلق القلوب على وصفين: قلب المؤمن مضيئاً مشرقاً وقلب الكافر أسود مظلماً. هذا بنور الإيمان مزين، وهذا بظلمة الجحود معلم.

*

الخلق متشاكلون في أصل الخلقة، متماثلون في الجوهرية، متباينون في الصفة، مختلفون في الصورة. فنفوس الأعداء مطاياهم تسوقهم إلى النار. ونفوس المؤمنين مطاياهم تحملهم إلى الجنة. والخلق بشر. ولكن ليس كل بشر كبشر. واحد عدو لا يسعى إلا من مخالفته، ولا يعيش إلا بنصيبه وحظه، ولا يحتمل الرياضة ولا يرتقي عن حد الوقاحة والخساسة. وواحد وليٌّ لا يفتر عن طاعته، ولا ينزل عن همته، فهو في سماء تعززه بمعبوده. وبينهما للناس مناهل ومشارب.

*

الأوقات متجانسة، وتفضيلها بعضها على بعض على معنى أن الطاعة في البعض أفضل والثواب عليها أكثر.

والليل خلف النهار والنهار خلف الليل،

فمن وقع له في طاعة الليل خلل فإذا حضر بالنهار فذلك وجود جبرانه،

وإن حصل في طاعة النهار خلل فإذا حضر بالليل ففي ذلك إتمام لنقصانه.

*

اقطعْ أسرارنا عن شهود الأغيار، ولَوِّح في قلوبنا طوالع الأنوار،
وأَفْرِدِ قصودنا إليك عن دنس الآثار،
وَرقِّنا عن منازل الطلب والاستدلال إلى جَمْع ساحات القرب والوصال.

حُلْ بيننا وبين مساكنة الأمثال والأشكال، بما تلاطفنا به من وجود الوصال، وتكاشفنا به من شهود الجلال والجمال.

أَرْشِدْنا إلى الحقّ لئلاّ نتكل على وسائط المعاملات، ويقع على وجه التوحيد غبار الظنون وحسبان الإعلال.

أَزل عنا ظلمات أحوالنا لنستضيءَ بأنوار قدسكَ عن التفيّؤ بظلال طلبنا،

وارفعْ عنّا ظلّ جهدها لنستبصر بنجوم جودك، فنجدكَ بِكَ.

اهدنا الصراط المستقيم حتى لا يَصيبَنا قرينٌ من نزعات الشيطان ووساوسه، ورفيق من خطرات النفوس وهواجسها، أو يصدّنا عن الوصول تعريج في أوطان التقليد، أو يحولَ بيننا وبين الاستبصار ركون إلى معتادٍ من التلقين، وتَسْتَهْوينا آفةٌ من نَشْو أو هوادة، وظنّ أو عادة، وكلَلٍ أو ضعف إرادة، وطمع مال أو استزادة.

الصراط المستقيم ما عليه من الكتاب والسنة دليل، وليس للبدعة عليه سلطان ولا إليه سبيل. الصراط المستقيم ما شهدت بصحته دلائل التوحيد، ونبهت عليه شواهد التحقيق.

الصراط المستقيم ما درج عليه سلف الأمّة، ونطقت بصوابه دلائل العبرة.

الصراط المستقيم ما بايَنَ الحظوظَ سالكهُ، وفارقَ الحقوقَ قاصده. الصراط المستقيم ما يُفضي بسالكه إلى ساحة التوحيد، ويُشْهِد صاحبَه أثَر العناية والجود، لئلا يظنّه موجب بذلِ المجهود.

*

أَمّا الغيب فما يعلمه العبد مما خرجَ عن حدّ الاضطرار، فكُل أمر دينيٍّ أدركه العبد بضرب استدلال، ونوع فكرٍ واستشهاد، فالإيمانُ به غيبيّ. فالربّ سبحانه وتعالى غيبٌ.

وما أخبر الحقّ عنه من الحشر والنشر، والثواب والمآب، والحساب والعذاب، غيبٌ.

وقيل إنما يؤمن بالغيب من كان معه سراج الغيب، وأن من أُيِّدوا ببرهان العقول آمنوا بدلالة العلم وإشارة اليقين، فأوردهم صدق الاستدلال ساحاتِ الاستبصار، وأَوْصَلهم صائب الاستشهاد إلى مراتب السّكونِ،

فإيمانهم بالغيب بمزاحمة علومهم دواعي الرّيب.

ومَن كُوشِف بأنواع التعريف أَسْبَل عليهم سجوفَ الأنوار، فأغناهم بلوائح البيان عن كلّ فكرٍ ورويَّة، وطلبٍ بخواطر ذكيّة، وردٍّ ورَدْعٍ لدواعٍ رديّة، فطلعت شموس أسرارهم فاستغنوا عن مصابيح استدلالهم.

ومن آمنَ بالغيب بشهود الغيب غاب في شهود الغيب فصار غيباً بغيب.

*

إذا كان المصاب بفوات النعيم مغبوناً فالذي مُنِيَ بالبعاد عن المناجاة وَانحازَ بقلبه عن مولاه، وبَقي في أَسْر الشّهوات، لا إلى قلبه رسولٌ، ولا لروحه وصولٌ، ولا معه مناجاة، ولا عليه إقبال، ولا في سرّه شهود.

فهذا هو المُصابُ والمُمْتَحن.

*

العبادةُ موافقةُ الأمر، وهي استفراغُ الطّاقةِ في مطالبات تحقيق الغيب. ويدخل فيه التوحيد بالقلب، والتّجريدُ بالسرّ، والتّفريدُ بالقصد، والخضوعُ بالنفس، والاستسلام للحكم.

ويقال اعبدوهُ بالتجرّد عن المحظورات، والتجلّد في أَداء الطاعات، ومقابلة الواجبات بالخشوع والاستكانة، والتَّجافي عن التّعريج في منازل الكسل والاستهانة.

*

كما أَنّ أهلَ الجنّة تتجدّد عليهم النعم في كل وقت، فالثاني عندهم على ما يظنّون، كالأول، فإذا ذاقوه وجدوه فوق ما تقدّم،

فكذلك أهل الحقائق: أحوالُهم في السّرائر أبداً في الترقّي، فإذا رُقِّيَ أحدهم عن محلّه توهّم أن الذي سيلقاه في هذا النَّفَس مثل ما تقدّم فإذا ذاقه وجده فوق ذلك بأضعاف.

*

والخلقُ في التحقيق، بالإضافة إلى وجود الحق، أقلُّ من ذرّةٍ من الهباء في الهواء،

لأنّ هذا استهلاكٌ محدود في محدود. فسيّان، في قدرته، العرش والبعوضة،

فلا خَلْقُ العرش أشقّ وأعسر، ولا خلقُ البعوضة أخفّ عليه وأيسر، فإنه سبحانه متقدِّسٌ عن لحوق العسر واليسر.

*

(...) فأمّا من فتحت أبصار سرائره فلا ينظر إلى الأغيار والآثار إلا بنظر الاعتبار، ولا يزداد إلا نفاذ الاستبصار. وأما الذين سكرت أبصارُهم بحكم الغفلة فلا يزيدهم ضرب الأمثال إلا زيادةَ الجهل والإشكال والأَنكال.

*

من غلبه القضاء لا ينفعه العناء.

*

كُلّ ما مُنِعَ منه ابنُ آدم، تَوفَّرت دواعيه إلى الاقتراب منه.

فهذا آدم أُبيحت له الجنّة بجملتها ونُهِيَ عن شجرة واحدة. فليس في المنقول أَنّه مَدَّ يدَه إلى شيء من جملة ما أُبِيح،

وكان عِيلَ صبرُه حتّى واقعَ ما نُهِيَ عنه .

هكذا صِفَةُ الخَلْق.

*

لو كان لإبليس سلطانٌ على غوايةِ غيره، لكانَ له إمكانٌ في هدايةِ نفسه.

*

حقيقةُ النّعمة على لسان العلماء لذّةٌ خالِصةٌ عن الشوائب. وما يوجب مثلها فهي أيضاً عندهم نعمة. وعند أهل الحقيقة، النّعمةُ ما أَشْهدكَ المنعِمَ أو ما ذكَّرك بالمنعم أو ما أوصلك إلى المنعم أو ما لَم يحجبك عن المنعم.

وتنقسم إلى نعمة أَبْشارٍ وظواهر، ونعمة أَرْواحٍ وسرائر. فالأولى وجوهُ الرّاحات، والثانية صنوفُ المشاهدات والمكاشفات.

*

أوفُوا بعهدي بحفظ السرّ أوفِ بعهدكم بجميل البرّ،

أوفوا بعهدي الذي قبلتم يوم الميثاق أوفِ بعهدكم الذي ضمنتُ لكم يومَ التّلاق،

أوفوا بعهدي في ألاّ تُؤثروا عليَّ غيري أوفِ بعهدكم في أَلاّ أمنعَ عنكم لطفي وخيري،

أوفوا بعهدي برعاية ما أثبتُّ فيكم من الودائع أوفِ بعهدكم بما أُديم لكم من شوارق اللوامع وزواهر الطوالع،

أوفوا بعهدي بحفظ أَسْراري أوفِ بعهدكم بجميل مَبَارّي، أوفوا بعهدي باستدامة عرفاني أوفِ بعهدكم في إدامة إحساني،

أوفوا بعهدي في القيام بخدمتي أوفِ بعهدكم في المنّة عليكم بقبولها منكم،

أوفوا بعهدي في القيام بحسن المجاهدة والمعاملة أوفِ بعهدكم بدوام المواصلة والمشاهدة،

أوفوا بعهدي بالتبرّي عن الحول والمُنَّة أوفِ بعهدكم بالإكرام بالطّول والمنّة،

أوفوا بعهدي بالتفضيل والتوكّل، أوفِ بعهدكم بالكفاية والتفضّل،

أوفوا بعهدي بصدق المحبّة أوفِ بعهدكم بكمال القربة،

أوفوا بعهدي اكتفوا منّي بي أوفِ بعهدكم أَرضى بكم عنكم،

أوفوا بعهدي في دار الغيبة على بساط الخدمة بِشدّ نطاقِ الطّاعة، وبذل الوسع والاستطاعة، أوفِ بعهدكم في دار القربة على بساط الوَصْلة بإدامة الأنس والرّؤية وسماع الخطاب وتمام الزّلفة،

أوفوا بعهدي في المطالبات بترك الشّهوات أوفِ بعهدكم بكفايتكم تلك المطالبات،

أوفوا بعهدي بأن تقولوا أبداً: ربّي ربي، أوفِ بعهدكم بأن أقول لكم عبدي عبدي.

*

الظّن يُذكر، ويقال: المُراد به اليقين، وهو الأَظْهر ها هنا.

ويُذكر ويُراد به الحسبان، فمن ظنّ ظَنَّ يقينٍ فصاحبُ وصلة.

ومن ظَنّ ظنّ تخمينٍ فصاحب فرقة. ومُلاقُو رَبِّهم صيغةٌ تصلح لماضي الزمان والحاضر وهم ملاقون رَبَّهم في المستقبل. ولكن القوم لتحققهم بما يكون من أحكام الغيب صاروا كأنَّ الوعد لهم تقرَّر، والغيب لهم حضور.

*

اسْتَفْتِ نفسَك، وإِنْ أَفتاك المُفْتون،

استَفْتِ قلبَك.

*

المناهل مختلفة، والمشارب متفاوتة، وكلٌّ يرد مشربه،

فمشربٌ عَذْبٌ فرات، ومشربٌ مِلْحٌ أُجاج، ومشربٌ صافٍ زُلال، ومشرب رنْقٌ أَوْشَال.

وسائقُ كلّ قوم يقودهم، ورائِدُ كلّ طائفةٍ يسوقهم، فالنّفوس تَرِدُ مناهلَ المنى والشهوات،

والقلوبُ تردُ مشاربَ التّقوى والطّاعات،

والأرواح ترد مناهلَ الكشف والمشاهدات،

والأسرار ترد مناهلَ الحقائق بالاختطاف عن الكون والمرسومات، ثم عن الإحساس والصّفات ثم بالاستهلاك في حقيقة الوجود والذات.

*

والأُسَرَاءُ أَصنافٌ: فمن أسيرٍ غرق في بحار الهوى فإنقاذُه بأن تدلّه على الهدى. ومن أسيرٍ بقي في أيدي الوساوس فافتداؤه أن ترشدَه إلى اليقين بلوائح البراهين لتنقذه من الشك والتَّخمين، وتخرجه عن ظلمات التقليد في ما تعيده إلى اليقين.

*

حبّ الحياة في الدّنيا نتيجةُ الغَفْلةِ عن الله، وأشدّ منه غفلةً أحبّهم للبقاء في الدّنيا.

وحال المؤمنِ من هذا على الضدّ.

وأمّا أهلُ الغَفلة وأصحاب التهتك فإنما حرصهم على الحياة لعلمهم بما فقدوا فيها من طاعتهم. فالعبد الآبق لا يريد رجوعاً إلى سيّده،

والانقلابُ إلى من هو خيرُه مرجوٌّ، خيرٌ للمؤمنين من البقاء مع مَن شرُّه غيرُ مأمون،

ثم إنّ امتدادَ العمر مع يقين الموت لا قيمةَ له، إذا فاجأ الأمر وانقطع العمر.

وكلّ ما هو آتٍ فقريب، وإذا انقضت المدّة فلا مردَّ لهجوم الأَجل على أكتاف الأَمل.

*

النَّسخُ الإزالَةُ، أي ما ينقلُكَ من حالٍ إلى ما هِيَ فوقَها وأعلى منها، فَغُصْنُ وَصْلك أبداً ناضر، ونجمُ عزّكَ أبداً ظاهر.

*

من لحقه خسرانُ الفهم من أصحاب الغفلة، وَدَّ أَلا يطلعَ لأحدٍ بالسلامة نجمٌ،

ومن اعتراه الحسد أَراد أَلاّ تنبسطَ على مَحْسُودٍ شمس.

وكذلك كانت صِفات الكفّار، فأَرغم الله أنفهم، وكبَّهم على وجوههم.

*

لازالتِ الصوفيّة بخيرٍ ما تَنافَرُوا، ولا يَقْبلُ بعضُهم بعضاً لأنه لو قَبِل بعضُهم بعضاً، بقيَ بعضُهم مع بعض.

*

الظَّالم من خَرَّب أوطانَ العبادة بالشّهوات، وأوطانُ العبادة نفوسُ العابدين.

وخرَّب أوطانَ المعرفة بالمنى والعلاقات، وأوطانُ المعرفة قلوبُ العارفين.

وخرَّب أوطانَ المحبّة بالحظوظ والمساكنات،
وهي أرواحُ الواجدين.
وخرَّب أوطان المشاهدات بالالتفات إلى القربات وهي أسرار الموحّدين.

*

للقلوبِ شوارقُ وطوارق. وطوارِقُها هواجسُ النّفوس تطرق في ظلمات المُنى والشّهوات. وشوارقُها نجوم العلوم وأقمار الحضور وشموس المعارف.

فما دامت الشوارق طالعةً فقبلة القلوب واضحةٌ ظاهرة، فإذا استولت الحقائق خفِيَ سلطانُ الشوارق، كالنجوم تَسْتَتِر عند طلوع الشمس، كذلك عند ظهور الحق يحصل اصطلامٌ وقهر، فلا شهود رسم، ولا بقاء حسّ وفهم، ولا سلطان عقل وعلم، ولا ضياء عرفان.

فإن وجدانَ هذه الجملة صفاتٌ لائقة ببقاء البشرية، وإذا صار الموصوف محواً فَأَنّى لهم ببقاء الصفة.

*

البديعُ عند العلماء مُوجِد العَيْنِ لا على مَثل، وعند أهل الإشارة، الذي ليس له شيءٌ مثله.

فهذا الاسم يُشير إلى نفي المِثل عن ذاته، ونفي المثال عن أفعاله، فهو الأحد الذي لا عدد يجمعه، والصمد الذي لا أمد يقطعه، والحقّ الذي لا وهم يصوّره، والموجود الذي لا فهم يقدره، وإذا قضى أمراً فلا يعارض عليه مقدور، ولا ينفكُّ من حكمه محظور.

ورتبة الإمامة أَن يفهَم عن الحقّ ثم يُفْهِم الخَلْق، فيكون واسطةً بين الحقّ والخَلْق، يكونُ بظاهره مع الخلق لا يفتر عن تبليغ الرّسالة، وبباطنه مُشاهِداً للحق، لا يتغيّر له صفاءُ الحالة، ويقول للخلق ما يقولهُ له الحق.

*

واذكرْ يا محمّد حين جعلنا البيت مثابةً للناس إليه يثوبون، ومأمناً لهم إليه يرجعون، وإيّاه من كلّ نحوٍ يقصدون.

هو بيتٌ خلقتُه من الحجَر ولكن أضفته إلى الأزل،

فَمن نظرَ إلى البيت بعين الخِلْقة انفصلَ، ومَن نظر إليه بعين الإضافة وصَل واتَّصل،

وكلّ من التجأ إلى ذلك البيت أَمِنَ من عقوبة الآخرة إذا كان التجاؤُه على جهة الإعظام والاحترام، والتّوبة عن الآثام.

ويقالُ بُني البيتُ من الحجر لكنه حجرٌ يجذبُ القلوبَ كحجرِ المغناطيس يجذب الحديد.

بيتٌ من وقَع عليه ظلّه أناخَ بعقوة الأمن.

بيتٌ مَن وقَع عليه طرفه بُشِّر بتحقيق الغفران.

بيتٌ من طافَ حوله طافت اللّطائف بقلبه. فطوفَةٌ بِطَوفة، وشوْطَةٌ بشوطةٍ وهل جزاء الإحسانِ إلاّ الإحسان.

بيتٌ ما خَسِر مَنْ أنفقَ على الوصول إليه ماله.

بيتٌ ما ربحَ مَنْ ضنَّ عليه بشيءٍ، ومن زاره نَسِيَ مزاره، وهجرَ دياره.

بيتٌ لا تُسْتَبْعَدُ إليه المسافة،

بيتٌ لا تُتْرك زيارتُه لحصول مخافة، أو هجوم آفة،

بيتٌ ليس له بمهجة الفقراء آفة.

بيتٌ مَن قَعد عن زيارته فلعِدَم فتوّته، أو لقِلّة محبّته.

بَيتٌ من صَبر عنه فقلبه أقسى من الحجارة.

بيتٌ من وقع عليه شعاعُ أنواره تسلّى عن شموسهِ وأقماره.

بيتٌ ليس العجب مِمّن بقي عنه كيف يصبر، إنّما العجب ممن حضره كيف يرجع.

*

الأمرُ في الظّاهر بتطهير البيت، والإشارةُ من الآية إلى تطهير القلب.

وتطهير البيت بِصَوْنهِ عن الأدناس والأوضار، وتطهير القلب بحفظه عن ملاحظة الأجناس والأغيار.

وطَوافُ الحجّاج حول البيت ملومٌ بلسان الشّرع، وطواف المعاني معلوم لأهل الحقّ،

فقلوب العارفين، المعاني فيها طائفةٌ، وقلوب الموحّدين، الحقائِقُ فيها عاكِفةٌ، فهؤلاء أصحابُ التَّلْوين*، وهؤلاء أربابُ التّمكين.

وقلوبُ القاصدين بملازمة الخضوع على باب الجود أبداً واقفة.

وقلوب الموحّدين على بساط الوصل أبداً راكعة.

وقلوب الواجدين على بساط القرب أبداً ساجدة.

*

إذا أردتَ ألاّ يكونَ لأحدٍ عليك سبيل، ولا يقع لمخلوق عليك ظلّ، ولا تصل إليك بالسّوء يدٌ،

فحيثما كنتَ وأينما كنت وكيفما كنتَ كن لنا وكن منّا، فإنّ من انقطع إلينا لا يتطرّق إليه حدَثان.

*

(...) فاذكروني بالتذلّل أذكركُم بالتفضّل،

فاذكروني بالانكسار أذكركم بالمبارّ،

فاذكروني باللّسان أذكركم بالجِنان،

فاذكروني بقلوبكم أذكركم بتحقيق مطلوبكم،

---

* التلوين: صفة أرباب الأحوال، فما دام المتصوف في الطريق فهو صاحب تلوين، لأنه يرتقي من حالٍ إلى حال، وينتقل من وصف إلى وَصْف. أما التمكين فصفة أهل الحقائق.

فاذكروني على الباب من حيث الخدمة أذكركم بالإيجاب على بساط القربة بإكمال النعمة،

فاذكروني بتصفية السّرّ أذكركم بتوفية البرّ،

فاذكروني بالجهد والعناء أذكركم بالجود والعطاء،

فاذكروني بِوَصْف السّلامة أذكركم يوم القيامة يوم لا تنفع الندامة.

فاذكروني بالرّهبة أذكركم بتحقيق الرّغبة.

*

مَنْ طالَع الأشياء مِلْكاً للحقّ رأى نفسه أجنبيّاً بينه وبين حكمه، فَمُنشئ الخَلْق أولى بالخَلْق من الخَلق.

مَنْ شَهِد المصائبَ شهد نفسَه لله وإلى الله، ومن شاهد المُبْلي عَلِم أنّ ما يكون من الله فهو عبدٌ بالله، وشتّان بين من كان لله وبين من كان بالله. الذي كان لله فصابِرٌ واقف، والذي هو بالله فساقِطُ الاختيار والحكم، وإن أثبته ثبت، وإن محاه انمحى، وإن حرّكه تحرّك، وإن سكَّنه سكن،

فهو عن اختياراته فانٍ، وفي القَبْضةِ مصرَّف.

*

«الواحد» من لا مِثْلَ له يدانيه، ولا شكل يلاقيه.

لا قسيمٌ يجانسه ولا نديم يؤانسه.

لا شريكٌ يعاضده ولا معينٌ يساعده ولا منازع يعانده.

أحَديّ الحق، صمدَيّ العين، ديموميّ البقاء، أبديّ العز، أزليّ الذات.

واحِدٌ في عزّ سنائه، فردٌ في جلال بهائه، وِتْرٌ في جبروت كبريائه، قديمٌ في سلطان عزّه، مَجيدٌ في جمال ملكوته. وكلّ من أطنب في وصفه أصبح منسوباً إلى العمى، فلولا أنه الرحمن الرحيم لتلاشى العبد إذا تعرض لعرفانِه عند أول ساطعٍ من باديات عزّه.

*

تعرَّف إلى قلوب الطالبين من أصحاب الاستدلال وأرباب العقول بدلالاتِ قدرته، وأماراتِ وجوده، وسمات ربوبيّته التي هي أقسام أفعاله. ونَبّههم على وجود الحكمة ودلالات الوحدانية بما أثبت فيها من براهين تلطُف عن العبارة، ووجوهٍ من الدّلالات تدقّ عن الإشارة،

فما من عينٍ من العدم محصولة، من شخصٍ أو طلل، أو رَسْم أو أَثر، أَو أسماءٍ أو فضاء، أو هواءٍ أو ماء، أو شمس أو قمر، أو قَطْر أو مطر، أو رمل أو حجر، أو نجم أو شجر،

إلا وهو على الوحدانيّة دليل، ولمن يقصد وجوده سبيل.

*

حقّ القصاص مشروعٌ، والعفو خيرٌ. فمن جنح إلى استيفاء حقه فَمُسَلَّمٌ له، ومن نزل عن ابتغاء حقه فمحسنٌ، فالأول صاحب عبادةٍ بل عبوديّة، والثاني صاحب فتوّة بل حريّة.

*

أعدى عدوّكَ نفسُكَ التي بين جَنْبَيْك. أي اسْتَوْفِ أحكامَ الرّياضات حتى لا يبقى للآثار البشرية شيء، وتُسْلِمَ النّفسَ والقلبَ لله، فلا يكون معارض ولا منازع منك لا بالتوقي ولا بالتلقّي، لا بالتدبير ولا بالاختيار،

تجري عليك صروفه كما يريد، وتكون مَحْواً عن الاختيارات، بخلاف ما يرد به الحكم. فإذا استسلمتِ النّفسُ فلا عدوان إلا على أرباب التقصير، فأمّا من قام بحقّ الأمر تقصَّى عن عهدة الإلزام.

*

نَزّهوا ذكر ربكم عن ابتذاله بأيّ حظٍّ من الحظوظ.

ويقال لا تجعلوا ذكر الله شركاً يُصطادُ به حطامُ الدّنيا.

*

قَبَضَ القلوب بإعراضه، وبَسَطَها بإقباله.

ويقال القَبضُ لما غلب القلوب من الخوف، والبَسْطُ لما يغلب عليها من الرجاء،

ويقال القَبْضُ لقهره والبسْطُ لِبرّه،

ويقال القبض لسرّه والبسط لكشفه،

ويقال القبض للمريدين والبسطُ للمُرادِين،

ويقال القبض للمتسابقين والبسطُ للعارفين.

ويقال يقبضك عنك ثم يبسطك به،

ويقال القبض حقّه، والبسط حظّك.

ويقال القبض لمن تولّى عن الحق، والبسط لمن تجلَّى له الحق.

ويقال يقبضُ إذا أَشْهدَكَ فِعلَك، ويبسط إذا أشهدكَ فضله.

ويقال يقبض بذكر العذاب ويبسط بذكر الإيجاب.

*

«الم...»:

أشار بقوله ألف إلى قيامه بكفايتك على عموم أحوالك، فأنت في أسر الغفلة لا تهتدي إلى صلاحك ورشدك، وهو مُجْرٍ ما يجبُرك، وكافٍ لما ينصرك، فبغير سؤالك، بل بغير علمك بحالك، يكفيك من حيث لا تشعر، ويعطيك من غير أن تطلب. والإشارة من اللام إلى لطفه بك في خفيّ السر حتى أنه لا يظهر عليك محل المِنَّة فيما يثبتك فيه. والإشارة من الميم لموافقة جريان التقدير بمتعلِّقات الطَّلْبَة من الأولياء، فلا يتحرّك في العالم شيء، ولا تظهر ذرّة إلا وهو بمحل الرضا منهم حتى أنّ قائلاً لو قال في قوله: ﴿كلّ يوم هو في شأن﴾* إن ذلك الشأن تحقيق مراد الأولياء، لم يكن ذلك ببعيد.

---

* سورة الرحمن، آية: 55.

ويقال تفرّق عن القلوب باستماع هذه الحروف المقطّعة التي هي خلاف عادة الناس في التخاطب كل معلوم ومرسوم، ومعتاد وموهوم، من ضرورة أو حسّ أو اجتهاد، حتى إذا خلت القلوب عن الموهومات والمعلومات، وصفّى الأسرار عن المعتادات والمعهودات يرد هذا الاسم وهو قوله: «الله» على قلب مقدّسٍ من كلّ غير، وسرّ مصفّىً عن كلّ كَيْف، فقال ﴿الله لا إله إلا هو الحيّ القيّوم﴾*. فهو الذي لا يلهو فيشتغل عنك، ولا يسهو فتبقى عنه. فهو على عموم أحوالك رقيبُ سرّك، وإن خلوت فهو رقيبك، وإن توسَّطتَ الخلق فهو رقيبك، وفي الجملة، كيفما دارت بك الأحوال، فهو حبيبك.

*

جَنَّس عليهم الخطاب، فمن ظاهرٍ واضحٍ تنزيله، ومن غامضٍ مشكلٍ تأويلُه.

القسم الأول لبسط الشرع واهتداء أهل الظاهر،

والقسم الثاني لصيانة الأسرار عن اطلاع الأجانب عليها.

فسبيل العلماء الرسوخُ في طلب معناه على ما يوافق الأصول فما حصل عليه الموقوف فمقابل بالقبول، وما امتنعَ من التأثّر فيه بمعلول الفكر سلموه إلى عالم الغيب.

وسبيل أهل الإشارة والفهم إلقاء السمع بحضور القلب، فما سنح لمفهومهم من لائح التّعريفات بنوا عليه إشاراتِ الكشف.

*

الصبر حبس النفس، وذلك على ثلاث مراتب:

صبر على ما أمر به العبد،

---

* سورة البقرة، آية 2.

وصبر عما نهى عنه

وصبر هو الوقوف تحت جريان حكمه على ما يريد، إما في فوات محبوبك أو هجوم ما لا تستطيعه.

فإذا ترقيت عن هذه الصفة، بألا تصيبك مشقة أو تنال راحة، فذلك رضا لا صبر.

*

تولج الليل في النهار حتى يغلب سلطان الضياء التوحيد، فلا يبقى من آثار النفس وظلماتها شيء، وتولج النهار في الليل حتى كأن شموس القلب كسفت، أو كأنّ الليل دام، وكأن الصبح فقد.

*

محبة العبد لله حالة لطيفة يجدها من نفسه، وتحمله تلك الحالة على موافقة أمره على الرضا دون الكراهية، وتقتضي منه تلك الحالة إيثاره على كل شيء وعلى كل أحد.

وشرط المحبة ألا يكون فيها حظ بحال، فمن لم يفنَ عن حظوظه بالكليّة فليس له من المحبة شظيّة.

ومحبّة الحق للعبد إرادته إحسانه إليه ولطفه به، وهي إرادة فضل مخصوص، وتكون بمعنى ثنائه سبحانه ومدحه له، وتكون بمعنى فضله المخصوص معه، فعلى هذا تكون من صفات فعله.

ويقال شرط المحبّة امّحاء كليتك عنك لاستهلاكك في محبوبك.

والمحبّة تشير إلى صفاء الأحوال ومنه حبب الأسنان وهو صفاؤها.

والمحبة توجب الاعتكاف بحضرة المحبوب في السر.

ويقال أحب البعير إذا استناخ فلا يبرح بالضرب.

والحب حرفان حاء وباء، والإشارة من الحاء إلى الروح ومن الباء إلى البدن، فالمحب لا يدخر عن محبوبه لا قلبه ولا بدنه.

*

ليقل من شاء ما شاء، فإني لا أبالي.

*

الربّاني من ارتفع عنه ظلّ نفسه، وعاش في كنف ظلّه سبحانه.

ويقال الرباني الذي لا يثبت غير ربه موحداً، ولا يشهد ذرة من المحو والإثبات لغيره أو من غيره.

ويقال الرباني من هو محْقٌ في وجوده، سبحانه، ومحْوٌ عن شهوده، فالقائم عنه غيره، والمجري لما عليه سواه.

ويقال الرباني الذي لا تؤثر فيه تصاريف الأقدار على اختلافها.

الرباني الذي لا تغيّره محنة ولا تضرّه نعمة، فهو على حالة واحدة في اختلاف الطوارق.

الرباني الذي لا يتأثر بورود وارد عليه، فمن استنطقته رقّة قلب، أو استماله هجوم أمر، أو تفاوتت عنده أخطار حادث، فليس برباني.

إن الرباني هو الذي لا يبالي بشيء من الحوادث بقلبه وسره، ومن كان لا يقصر في شيء من الشرع بفعله.

*

كيف يصد غيره من هو مصدود في نفسه؟ إن في هذا لسراً للربوبية.

*

المعروف خدمة الحق، والمنكر صحبة النفس.

المعروف إيثار حق الحق، والمنكر اختيار حظ النفس.

المعروف ما يزلفك إليه، والمنكر ما يحجبك عنه.

وشرط الآمر بالمعروف أن يكون متصفاً بالمعروف، وحق الناهي عن المنكر أن يكون منصرفاً عن المنكر.

*

من تعوّد أن يتلهّف على ماضيه وسالفه، أو يتدبّر في مستقبله وآنفه، فأقل عقوبة له ضيق قلبه في تفرقة الهموم، وامّحاء نعت الحياة عن قلبه لغفلته وقالته ليت كذا ولعل كذا، وثمرة الفكرة في ليت ولعل الوحشة والحسرة وضيق القلب والتفرقة.

*

التسبيح يشير إلى سبح الأسرار في بحار التعظيم.

*

«طسم»:

الطاء إشارة إلى طهارة عزّه وتقدّس علوّه،

والسين إشارة ودلالة على سناء جبروته، والميم دلالة على مجد جلاله في آزاله.

ويقال الطاء إشارة إلى شجرة طوبى، والسين إلى سدرة المنتهى، والميم إلى اسم محمد صلى الله عليه وسلم، أي ارتقى محمد ليلة الإسراء عن شهوده شجرة طوبى حتى بلغ سدرة المنتهى، فلم يساكن شيئاً من المخلوقات في الدنيا والعقبى.

ويقال الطاء طرب أرباب الوصلة على بساط القرب بوجدان كما الروح، والسين سرور العارفين بما كوشفوا به من بقاء الأحدية باستقلالهم بوجوده، والميم إشارة إلى موافقتهم لله بترك التخير على الله، وحسن الرضا باختيار الحق لهم.

ويقال الطاء إشارة إلى طيب قلوب الفقراء عند فقد الأسباب لكمال العيش بمعرفة وجود الرزاق بدل طيب قلوب العوام بوجود الأرفاق والأرزاق.

ويقال الطاء إشارة إلى طهارة أسرار أهل التوحيد،

والسين إشارة إلى سلامة قلوبهم عن مساكنة كل مخلوق،
والميم إشارة إلى منة الحق عليهم بذلك.

*

(...) فثمرات الظاهر غذاء النفوس، وثمرات الباطن والأسرار ضياء القلوب،

وكما لا تبقى في وقت الربيع من وحشة الشتاء بقية، فلا يبقى في قلوبهم وأوقاتهم من الغيبة والحجبة والنفرة والتهمة شظية.

*

نفوس العابدين قرار طاعتهم، وقلوب العارفين قرار معرفتهم، وأرواح الواجدين قرار محبتهم، وأسرار الموحدين قرار مشاهدتهم. في أسرارهم أنوار الوصلة وعيون القربة، وبها يسكن ظمأ اشتياقهم وهيجان قلقهم واحتراقهم.

*

العارف كائن بائن؛ كائن مع الناس بظاهره، بائن عن جميع الخلق بسرائره.

*

الأوقات ظروف لما يحصل فيها من الأفعال والأحوال؛ فالظروف من الزمان متجانسة، وإنما الاختلاف راجع إلى أعيان ما يحصل فيها؛
فليالي أهل الوصال سادات الليالي، وليالي أهل الفراق أسوأ الليالي؛ فأهل القرب لياليهم قصار وكذلك أيامهم، وأرباب الفراق لياليهم طوال وكذلك جميع أوقاتهم في ليلهم ونهارهم.

*

النصيب من الدنيا ما يحمل على طاعته بالنفس، وعلى معرفته بالقلب، وعلى ذكره باللسان، وعلى مشاهدته بالسر.

*

الإحسانُ رؤيةُ الفضلِ دون توهّمِ الاستحقاق.

*

ما لاحظَ أحدٌ نفسَه إلا هلك بإعجابهِ.

*

السمُّ القاتلُ، والذي يُطفئ السراج المضيء،

النظر إلى النفس بعين الإثبات، وتوهم أن منك شيئا من النفي أو الإثبات.

*

العنكبوت يتخذ لنفسه بيتاً، ولكن كلما زاد نسجاً في بيته ازداد بعداً في الخروج منه؛ فهو يبني ولكن على نفسه يبني.

*

الدنيا أوسع رقعة من أن يضيق بمريد مكان،

فإذا نبا به منزل، لوجه من الوجوه، إما لمعلوم حصل، أو لقبول من الناس، أو جاه، أو لعلاقة أو لقريب أو لبلاء ضد، أو لوجه من الوجوه الضارة، فسبيله أن يرتحل عن ذلكِ الموضع وينتقل إلى غيره.

وكذلك العارف إذا لم يوافق وقته مكان انتقل إلى غيره من الأماكن.

*

والصبر الوقوف مع الله بشرط سقوط الفكرة.

الصبر العكوف في أوطان الوفاء،

الصبر حبس النفس على فطامها.

الصبر تجرع كاسات التقدير من غير تعبيس.

الصبر صفة توجب معية الحق، وأعزز بها!

وأول الصبر تصبر بتكلف، ثم صبر بسهولة، ثم اصطبار وهو ممزوج بالراحة، ثم تحقق بوصف الرضا؛ فيصير العبد فيه محمولاً بعد أن كان متحملاً.

والتوكل انتظار مع استبشار، والتوكل سكون السر إلى الله،

التوكل استقلال بحقيقة التوكل؛ فلا تتبرم في الخلوة بانقطاع الأغيار عنك.

التوكل إعراض القلب عن غير الرب.

*

يرسل رياح الرجاء على قلوب العباد فتكنس عن قلوبهم غبار الخوف وغثاء اليأس،

ثم يرسل عليها أمطار التوفيق فتحملهم إلى بساط الجهد، وتكرمهم بقوى النشاط.

ويرسل رياح البسط على أرواح الأولياء فيطهرها من وحشة القبض، وينشر فيها إرادة الوصال.

ويرسل رياح التوحيد فتهب على أسرار الأصفياء فيطهرها من آثار العناء، ويبشرها بدوام الوصال.

*

يرسل رياح عطفه وجوده مبشراتٍ بوصله وجوده،

ثم يمطر جود غيبه على أسرارهم بلطفه، ويطوي بساط الحشمة عن ساحات قربه، ويضرب قباب الهيبة بمشاهد كشفه، وينشر عليهم أزهار أنسه.

ثم يتجلى لهم بحقائق قدسه، ويسقيهم بيده شراب حبه، وبعد ما محاهم عن أوصافهم أصحاهم لا بهم ولكن بنفسه،

فالعبارات عن ذلك خُرْسٌ، والإشارات دونها طمس.

*

يحيي الأرض بأزهارها وأنوارها عند مجيء الأمطار ليخرج زرعها وثمارها،

ويحيي النفوس بعد نفرتها، ويوفقها للخيرات بعد فترتها،

فتعمر أوطان الرفاق بصادق إقدامهم، وتندفع البلايا عن الأنام ببركات أيامهم، ويحيي القلوب بعد غفلتها بأنوار المحاضرات، فتعود إلى استدامة الذكر بحسن المراعاة، ويهتدي بأنوار أهلها أهل العسر من أصحاب الإرادات، ويحيي الأرواح بعد حجبتها بأنوار المشاهدات، فتطلع شموسها عن برج السعادة، ويتصل بمشام أسرار الكافة نسيم ما يفيض عليهم من الزيادات، فلا يبقى صاحب نفس إلا حظي منه بنصيب، ويحيي الأسرار، وقد تكون لها وقفة فى بعض الحالات.

فتنتفي بالكلية آثار الغيرية، ولا يبقى فى الدار ديار ولا من سكانها آثار؛ فسطوات الحقائق لا تثبت لها ذرة من صفات الخلائق، هنالك الولاية لله.. سقط الماء والقطرة، وطاحت الرسوم والجملة.

*

المفترق بهمه، والمتشتت بقلبه، لا تزيده كثرة الوعظ إلا نفورا ونبوّاً؛ فسماعه كلا سماع، ووعظه هباء وضياع.

*

«الحكمة» الإصابة في العقل والعقد والنطق.

ويقال «الحكمة» متابعة الطريق من حيث توفيق الحق لا من حيث همة النفس.

ويقال «الحكمة» ألا تكون تحت سلطان الهوى.

ويقال «الحكمة» الكون بحكم من له الحكم.

ويقال «الحكمة» معرفة قدر نفسك حتى لا تمد رجليك خارجا عن كسائك.

ويقال «الحكمة» ألا تستعصي على من تعلم أنك لا تقاومه.

*

أفمن كان في حال الوصال يجر أذياله كمن هو في مذلة الفراق يقاسي وباله؟

أفمن كان في روح القربة ونسيم الزلفة كمن هو في هول العقوبة يعاني مشقة الكلفة؟

أفمن هو في روح إقبالنا عليه كمن هو محنة إعراضنا عنه؟

أفمن بقي معنا كمن بقي عنا؟

أفمن هو في نهار العرفان وضياء الإحسان كمن هو في ليالي الكفران ووحشة العصيان؟

أفمن أيد بنور البرهان وطلعت عليه شموس العرفان كمن ربط بالخذلان ووسم بالحرمان؟ لا يستويان ولا يلتقيان!

*

اتّبع ولا تبتدع، واقتد بما نأمرك به، ولا تهتد باختيارك غير ما نختار لك،

ولا تعرج أوطان الكسل، ولا تجنح إلى ناحية التواني، وكن لنا لا لك، وقم بنا لا بك.

*

انسلخ عن إهابك، واصدق في إيابك إلينا، وتشاغل عن حسبانك معنا، واحذر ذهابك عنا، ولا تقصر في خطابك معنا.

*

أحاط بهم سرادق البلاء، وأحدق بهم عسكر العدو، واستسلموا للاجتياح، وبلغت القلوب الحناجر، وتقسمت الظنون، وداخلتهم كوامن الارتياب، وبدا في سويدائهم جولان الشك.

*

(...) لو رأيتهم يومذاك لرأيت منظراً فظيعاً؛ يرجع بعضهم إلى بعض القول، ويحيل بعضهم على بعض الجرم؛

يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا: أنتم أضللتمونا،

وينكر الذين استكبروا ويقولون: بل أنتم اتبعتمونا... وهكذا أصحاب الزلات الأخلاء في الفساد.

*

أجرى سنته بأنه يظهر فضله في إحياء الأرض بالتدريج؛ فأولاً يرسل الرياح ثم يأتي بالسحاب،

ثم يوجه ذلك السحاب إلى الموضع الذي له تخصيصاً كيف يشاء، ويمطر هناك كيف يشاء.

كذلك إذا أراد إحياء قلب عبد بما يسقيه وينزل عليه من أمطار عنايته، فيرسل أولاً رياح الرجاء، ويزعج بها كوامن الإرادة،

ثم ينشىء فيها سحب الاهتياج، ولوعة الانزعاج، ثم يجود بمطر ينبت في القلب أزهار البسط، وأنوار الروح، فيطيب لصاحبه العيش إلى أن تتمَّ لطائف الأنس.

*

(...) ليس لقولهم تحقيق، ولا لعهدهم وضمانهم توثيق،

وما يعدون من أنفسهم فصريح زور، وما يوهمون من وفائهم فصرف تغرير.

وكذلك المريد في أوان نشاطه تمنيه نفسه فيتظاهر أمام من تقدمه حالاً بأنه عاهد الله، وأنه أكد عقده مع الله.

فإذا عضته شهوته، وأراد الشيطان أن يكذبه صرعه بكيده، وأركسه في هوة غَيِّهِ، ومنية نفسه؛

فَيَسْودُّ وجهه، وتذهب عند الله وجاهته.

*

اليوم سخر الله أعضاء بدن الإنسان بعضها لبعض، وغداً ينقض هذه العادة، فتخرج بعض الأعضاء على بعض، وتجري بينها الخصومة والنزاع؛

فأما الكفار فشهادة أعضائهم عليهم مبيدة، وأما العصاة من المؤمنين فقد تشهد عليهم بعض أعضائهم بالعصيان،

ولكن تشهد لهم بعض أعضائهم أيضا بالإحسان.

وفي بعض الأخبار المروية المسندة أن عبداً تشهد عليه أعضاؤه بالزلة فيتطاير شعره من جفن عينيه، فيستأذن بالشهادة له فيقول الحق: تكلمي يا شعرة جفن عبدي واحتجي عن عبدي، فتشهد له بالبكاء من خوفه، فيغفر له. وينادي مناد: هذا عتيق الله بشعرة.

*

زيَّن السماء الدنيا بالنجوم، وقلوبَ أوليائه بنجوم المعارف والأحوال، وحفظ السموات بأن جعل النجوم للشياطين رجوماً. وكذلك زين القلوب بأنوار التوحيد، فإذا قرب منها الشيطان رجمها بنجوم معارفهم.

*

إذا مسّه ضرّ خشع وخضع، وإلى قربه فزع، وتملق بين يديه وتضرع. فإذا أزال عنه ضره، وكفاه أمره، وأصلح شغله نسي ما كان يدعو إليه من

قبل، وجعل لله أنداداً، فيعود إلى رأس كفرانه، وينهمك في كبائر عصيانه، ويشرك بمعبوده.

هذه صفته فسحقاً له وبعداً، ولسوف يلقى عذاباً وخزياً.

*

قيامة الكلّ مؤجلة، وقيامة المحبين معجلة؛

فلهم في كل نفس قيامة من العقاب والعذاب والثواب، والبعاد والاقتراب، ولما لم يكن لهم في حساب،

وتشهد عليهم الأعضاء؛ فالدمع يشهد، وخفقان القلب ينطق، والنحول يخبر، واللون يفصح... والعبد يستر ولكن البلاء يظهر.

*

يقضي للأجانب بالبعاد، ولأهل الوصال بالوداد،

ويقضي يوم القدوم بعزل عمال الصدود.

وإذا ذبح الموت غداً بين الجنة والنار على صورة كبش أملح

فلا غرابة أن يذبح الفراق على رأس سكة الأحباب في صورة شخص منكر ويصلب على جذوع العبرة لينظر إلى أهل الحضرة.

*

ليس الطيب ما تستطيبه النفس إنما الطيب ما يستطيبه القلب.

*

والشمس، وإن علت، والقمر، وإن حسن،

فلأجلك خلقناهما، فلا تسجد لهما، واسجد لنا.

*

اللعب فعل يجري على غير ترتيب تشبيهاً باللعاب الذي يسيل لا على نظام مخصوص؛

فوصف المنافق باللعب؛ وذلك لتردده وتحيره، نتيجة شكه في عقيدته.

*

(...) لم يكن لهم من القدر والخطر ما يتحرك في العالم بسببهم ساكن، أو يسكن متحرك.

فلا الخضراء بسببهم اغبرّت، ولا الغبراء لغيبتهم اخضرّت.

لم يبق منهم عين ولا أثر، ولم يظهر من قبلهم على قلب أحد من عبادنا أثر.

وكيف تبكي السماء لفقد من لم تستبشر به من قبل؟

بعكس المؤمن الذي تُسَرُّ السماء بصعود عمله إليها، فإنها تبكي عند غيابه وفقده.

*

كلٌّ صامت ناطق، يصمت عن الكلام والقول وينطق بالبرهان في الحكم.

فمن استمع بسمع الفهم، واستبصر بنور التوحيد

فاز بذخر الدارين، وتصدى لعز المنزلين.

ومن تصامم بحكم الغفلة وقع في وهدة الجهل، ووُسِمَ بكيِّ الهجر.

*

إذا حصل الظفر بالعدو،

فالعفو عنهم وترك المبالغة في التشديد عليهم للندم موجبٌ، وللفرصة تضييع؛

بل الواجب إزهاقُ نفوسهم، واستئصال أصولهم، واقتلاع شجرهم من أصله.

وكذلك العبد إذا ظفر بنفسه فلا ينبغي أن يبقي بعد انتفاش شوكها بقية من الحياة، فمن وضع عليها إصبعاً بثّتْ سُمّها فيه.

*

الذي يطلع فجر قلبه، ويتلألأ نور التوحيد فيه،

ثم قبل مُتوع نهار إيمانه انكسفت شمس يومه، وأظلم نهار عرفانه، ودجا ليل شكه، وغابت نجوم عقله.

فحدث عن ظلماته، ولا حرج!

*

«الأول»: لاستحقاقه صفة القدم،

و«الآخر» لاستحالة نعت العدم.

و«الظاهر»: بالعلو والرفعة، و«الباطن»: بالعلم والحكمة.

ويقال: «الأول» فلا افتتاح لوجوده و«الآخر» فلا انقطاع لثبوته. «الظاهر» فلا خفاء في جلال عزه، «الباطن» فلا سبيل إلى إدراك حقه.

ويقال «الأول» بلا ابتداء، و«الآخر» بلا انتهاء، و«الظاهر» بلا خفاء، و«الباطن» بنعت العلاء وعز الكبرياء.

«الأول» بالعناية، «والآخر» بالهداية، و«الظاهر» بالرعاية، و«الباطن» بالولاية.

«الأول» بالخلق، و«الآخر» بالرزق، و«الظاهر» بالإحياء، و«الباطن» بالإماتة والإفناء.

(...)

«الأول» لا بزمان، و«الآخر» لا بأوان، و«الظاهر» بلا اقتراب، و«الباطن» بلا احتجاب.

«الأول» بالوصلة، و«الآخر» بالخلة، و«الظاهر» بالأدلة، و«الباطن» بالبعد عن مشابهة الجملة.

«الأول» بالتعريف، و«الآخر» بالتكليف، و«الظاهر» بالتشريف و«الباطن» بالتخفيف.

«الأول» بالإعلام، و«الآخر» بالإلزام، و«الظاهر» بالإنعام و«الباطن» بالإكرام.

«الأول» بأن اصطفاك و«الآخر» بأن هداك، و«الظاهر» بأن رعاك، و«الباطن» بأن كفاك.

من كان الغالب عليه اسمه «الأول» كانت فكرته في حديث سابقته: بماذا سماه مولاه؟ وما الذي أجرى له في سابق حكمه؟ أبسعادته أم بشقائه؟

ومن كان الغالب على قلبه اسمه «الآخر» كانت فكرته فيه: بماذا يختم له حاله؟ وإلام يصير مآله؟ أعلى التوحيد يخرج من دنياه أو، والعياذ بالله، في النار غداً، مثواه؟

ومن كان الغالب على قلبه اسمه «الظاهر»،

فاشتغاله بشكر ما يجرى في الحال من توفيق الإحسان وتحقيق الإيمان وجميل الكفاية وحسن الرعاية.

ومن كان الغلب على قلبه اسمه «الباطن»،

كانت فكرته في استبهام أمره عليه فيتعثر ولا يدري... أفضل ما يعامله به رب أم مكر ما يستدرجه به ربه؟

ويقال: «الأول» علم ما يفعله عباده ولم يمنعه علمه من تعريفهم، و«الآخر» رأى ما عملوا ولم يمنعه ذلك من غفرانهم و«الظاهر» ليس يخفى عليه شيء من شأنهم، وليس يدع شيئا من إحسانهم و«الباطن» يعلم ما ليس لهم به علم من خسرانهم ونقصانهم فيدفع عنهم فنون محنهم وأحزانهم.

*

«الغيب»: ما لا يعرف بالضرورة، ولا يعرف بالقياس من المعلومات. ويقال: هو ما استأثر الحق بعلمه، ولم يجعل لأحد سبيلاً إليه.

*

المحبة توجب الإيثار. وتقديم مراد حبيبك على مراد نفسك، وتقديم محبوب حبيبك على محبوب نفسك.

فإذا كان الحق تعالى يحب من العبد أن يقاتل على الوجه الذي ذكره فمن لم يؤثر محبوب الله على محبوب نفسه، أي على سلامته، انسلخ من محبته لربه،

ومن خلا من محبة الله وقع في الشق الآخر، في خسرانه.

*

لمّا زاغوا بترك الحد، أزاغ الله قلوبهم بنقض العهد.

لما زاغوا عن طريق الرشد، أزاغ الله قلوبهم بالصد والرد والبعد عن الود.

لما زاغوا بظواهرهم، أزاغ الله سرائرهم.

لما زاغوا عن خدمة الباب، أزاغ الله قلوبهم عن التشوق إلى البساط.

لما زاغوا عن العبادة، أزاغ الله قلوبهم عن الإرادة.

*

الموت نوعان: موت نفس، وموت قلب، ففي القيامة يبعثون من موت النفس، وأما موت القلب فلا بعث منه.

*

العبودية: الوقوف عند الحد، لا بالنقصان عنه ولا بالزيادة عليه، ومن راعى مع الله حده أخلص الله له عهده.

*

إذا فات الوقت استفحل الأمر، وانغلق الباب، وسقطت الحيل، فالواجب البدار والفرار لتصل إلى روح القرار.

*

من سمعَ بالحق سمع كلَّ ما يُقال عن الحقِّ من كلٍّ من يقول عن الحق،

فيحصل له الفهم لما يسمع، لأنه إذا كان من أهل الحقائق يكون سمعه من الله وبالله وفي الله.

*

الصبر الجميل ألا تستثقل الصبر بل تستعذبه.

الصبر الجميل ما لا ينتظر العبد الخروج منه، ويكون ساكناً راضياً.

الصبر الجميل ما تجرّد عن الشّكوى والدعوى.

*

لا تعط عطاء تطلب به زيادة ما تعطيه.

لا تستكثر الطاعة من نفسك.

لا تمنن بعملك فتستكثر عملك، وتعجب به.

*

أبو يعقوب يوسف بن أيوب بن يوسف بن الحسين الهمذاني*

السماعُ سفرٌ إلى الحقِّ ورسولٌ من الحقِّ،

وهو لطائف الحق وزوائده، وفوائد الغيب وموارده، وبوادي الفتح وعوائده، ومعاني الكشف وبشارته.

فهو للأرواح قوتها، وللأشباح غذاؤها، وللقلوب حياتها، وللأسرار بقاؤها.

فطائفةٌ أسمعها الحقُّ بشاهدِ التنزيهِ، وطائفةٌ أسمعها بنعتِ الرحمةِ، وطائفةٌ أسمعها بوصفِ القدرة، فقامَ لهم الحقُّ مسمعاً وسامعاً. فالسماع هتك الأستار، وكشف الأسرار،

وبرقةٌ لمعت، وشمسٌ طلعت، وسماعُ الأرواح باستماع القلوبِ على بساطِ القرب، بشاهدِ الحضورِ من غير نفس تكون هناك، فتراهم في السماع والِهين حيارى، رامقين أسارى، خاشعين سكارى.

*

---

* أصله من هَمْذان، ولد سنة 440 هـ وتاريخ وفاته مجهول.

عبد اللّه الأنصاري الهروي*

التفكّر

اعلمْ أن التفكّر تلمُّس البصيرة لاستدراك البغية.

وهو ثلاثة أنواع:

فكرة في عين التوحيد

وفكرة في لطائف الصَّنْعَةِ

وفكرة في معاني الأعمال والأحوال.

فأما الفكرة في عين التوحيد

فهي اقتحام بحر الجحود

لا ينجي منه إلا الاعتصام بضياء الكشف

والتمسك بالعلم الظاهر.

وأما الفكرة في لطائف الصَّنائع

فهي ماءٌ يسقي زرع الحكمة.

وأما الفكرة في معاني الأعمال والأحوال

فهي تسهل سلوك طريق الحقيقة.

وإنمّا يُتخّلص من الفكرة في عين التوحيد بثلاثة أشياء:

بمعرفة عجز العقل

---

* توفي سنة 481 هـ، انطوتْ شخصيته على تناقض من حيث كونه حنبليّاً متعصّباً، وشيخاً من مشايخ الصوفية.

وبالإياس من الوقوف على الغاية
وبالاعتصام بحبل التعظيم.
وإنما تُدرَك لطائف الصنائع بثلاثة أشياء:
بحسن النظر في مبادئ المِنَن
والإجابة لدواعي الإشارات
وبالخلاص من رقّ الشهوات.
وإنمّا يوقَف بالفكرة على مراتب الأعمال والأحوال بثلاثة أشياء:
باستصحاب العلم
واتهام المرسومات
ومعرفة مواقع الغِيَر.

*

الفرار

الفرار هو الهرب ممّا لم يكن إلى ما لم يزل.
وهو على ثلاث درجات.
فرار العامّة من الجهل إلى العلم عقداً وسعياً
ومن الكسل إلى التشمير حذراً وعزماً
ومن الضيق إلى السَّعة ثقةً ورجاءً.
وفرار الخاصّة من الخبر إلى الشهود
ومن الرسوم إلى الأصول
ومن الحظوظ إلى التجريد.
وفرار خاصّة الخاصّة مما دون الحقّ إلى الحقّ
ثم من شهود الفرار إلى الحقّ.

ثمّ الفرار من الفرار إلى الحقّ

*

الحزن

الحزن توجّعٌ لفائت أو تأسُّفٌ على ممتنع.

وله ثلاث درجات:

الدرجة الأولى حزن العامّة

وهو حزن على التفريط في الخدمة

وعلى التورط في الجفاء

وعلى ضياع الأيام.

والدرجة الثانية حزن أهل الإرادة.

وهو حزن على تعلّق الوقت بالتفرّق

وعلى اشتغال النفس عن الشهود

وعلى التسلي عن الحزن.

وليست الخاصّة من مقام الحزن في شيء

ولكن الدرجة الثالثة من الحزن.

التحزّن للعارضات دون الخواطر

ومعارضات القصود

والاعتراضات على الأحكام.

*

الزهد

الزُّهْدُ إسقاط الرَّغْبَة عن الشيء بالكلّيّة

وهو للعامة قربةٌ

وللمريد ضرورةٌ

وللخاصّة خسّةٌ

وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى الزهد في الشبهة بعد ترك الحرام

بالحذر من المعتبة

والأنفة من المنقصة

وكراهة مشاركة الفساق.

والدرجة الثانية الزهد في الفضول وما زاد على المسكة والبلاغ من القوت

باغتنام التفرّغ إلى عمارة الوقت

وحسم الجأش

والتحلّي بحلية الأنبياء والصّديقين

والدرجة الثالثة الزهد في الزهد بثلاثة أشياء:

باستحقار ما زهدت فيه

واستواء الحالات عندك

والذهاب عن شهود الاكتساب

ناظراً إلى وادي الحقائق.

*

التبتّل

قال الله عزّ وجلّ ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ *

التبتل الانقطاع بالكلّيّة

وقوله (إِلَيْهِ) دعوةٌ إلى التجريد المحض.

---

* سورة المزمل، آية:73.

وهو على ثلاث درجات

الدرجة الأولى تجريد الانقطاع عن الحظوظ واللحوظ إلى العالم خوفاً أو رجاءً أو مبالاةً بحالٍ:

بحسم الرجاء بالرضى

وقطع الخوف بالتسليم

ورفض المبالاة بشهود الحقيقة.

والدرجة الثانية تجريد الانقطاع عن التعريج على النفس

بمجانبة الهوى

وتنسّم رَوْح الأنس

وشَيْم برق الكشف

والدرجة الثالثة تجريد الانقطاع إلى السبق

بتصحيح الاستقامة

والاستغراق في قصد الوصول

والنظر إلى أوائل الجمع.

*

الرغبة

الرَّغبَةُ ألحقُ بالحقيقة من الرَّجاء

وهي فوق الرجاء

لأن الرجاء طمعٌ يحتاج إلى تحقيق

والرغبة سلوك على تحقيق.

والرغبة على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى رغبة أهل الخبر تتولد من العلم

فتبعث على الاجتهاد المنوط بالشهود
وتصون السالك من وهن الفترة
وتمنع صاحبها من الرجوع إلى غثاثة الرُخص
والدرجة الثانية رغبة أرباب الحال
وهي رغبة لا تبقي من المجهود إلاّ مبذولاً
ولا تدع للهمّة ذبولاً
ولا تترك غير المقصود مأمولاً.
والدرجة الثالثة رغبة أهل الشهود
وهي تشرفٌ تصحبه تقيّة لا تُبْقي معه من التفرّق بقيّة.

*

المراقبة

المراقبة دوام ملاحظة المقصود.
وهي على ثلاث درجات
الدرجة الأولى مراقبة الحقِّ في السير إليه على الدوام
بين تعظيم مذهل
ومداناةٍ حاملة
وسرور باعث
والدرجة الثانية مراقبة نظر الحقّ إليك
برفض المعارضة
وبالإعراض عن الاعتراض
ونقض رعونة التعرّض.
والدرجة الثالثة مراقبة الأزل

بمطالعة عين السبق
استقبالاً لعَلَم التوحيد
ومراقبة ظهور إشارات الأزل
على أحايين الأبد
ومراقبة الخلاص من ربطة المراقبة.

*

الاستقامة

قال الله عزّ وجلّ ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ*﴾
قوله عزّ وجلّ (إِلَيْهِ) إشارةٌ إلى عين التفريد.
والاستقامة روح تَحيى بها الأحوال
كما تربو للعامّة عليها الأعمال
وهي برزخٌ بين أوهاد التفرّق وروابي الجمع.
وهي على ثلاث درجات:
الدرجة الأولى الاستقامة على الاجتهاد في الاقتصاد،
لا عادياً رسم العلم
ولا متجوّزاً حّد الإخلاص ولا مخالفاً نهج السُّنّة.
والدرجة الثانية استقامة الأحوال
وهي شهود الحقيقة لا كسباً ورفض الدعوى لا علماً
والبقاء مع نور اليقظة لا تحفّظاً
والدرجة الثالثة استقامة بترك رؤية الاستقامة
وبالغيبة عن تطلّب الاستقامة

---

* سورة فصلت، آية: 41.

بشهود إقامة الحقّ وتقويمه عزّ اسمه.

*

الصبر

الصبر حبس النفس على جزعٍ كامن عن الشكوى.

وهو أيضا من أصعب المنازل على العامّة

وأوحشها في طريق المحبّة

وأنكرها في طريق التوحيد

وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى الصبر عن المعصية بمطالعة الوعيد

إبقاء على الإيمان وحذراً من الجزاء

وأحسنُ منها الصبر عن المعصية حياء.

والدرجة الثانية الصبر على الطاعة

بالمحافظة عليها دواماً

وبرعايتها إخلاصاً

وبتحسينها علماً

والدرجة الثالثة الصبر في البلاء

بملاحظة حسن الجزاء

وانتظار رَوْح الفرج وتهوين البليّة بعدّ أيادي المِنَن

وتذكر سوالف النِعَم.

وفي هذه الدرجات الثلاث من الصبر نزلت

{وَاصْبِرُوا} يعني في البلاء

{ وَصَابِرُوا} يعني عن المعصية

{وَرَابِطُوا} يعني على الطاعة.
وأضعفُ الصبر الصبر لله وهو صبر العامّة
وفوقه الصبر بالله وهو صبر المريد
وفوقهما الصبر على الله وهو صبر السالك.

*

الخلق

الخُلق ما يرجع إليه المتكلّف من نعته
واجتمعتْ كلمة الناطقين في هذا العلم أن التصوّف هو الخُلق
وجُماعُ الكلام فيه يدور على قطب واحد
وهو بذل المعروف وكفّ الأذى.
وإنما يُدَرك إمكان ذلك قي ثلاثة أشياء:
في العلم والجود والصبر.
وهو على ثلاث درجات:
الدرجة الأولى أن تعرف مقام الخَلق
أنهم بأقدارهم مربوطون
وفي طاقتهم محبوسون
وعلى الحكم موقوفون
فتستفيد بهذه المعرفة ثلاثة أشياء:
أمن الخَلقُ منك
ومحبّة الخَلق إيّاك
ونجاة الخَلقِ بك.
والدرجة الثانية تحسين خُلقك مع الحقّ

وتحسينه منك أنّ تعلم أن كلّ ما يأتي منك يوجب عذراً
وكلّ ما يأتي من الحقّ يوجب شكراً
وأن لا ترى له من الوفاء بُدّاً
والدرجة الثالثة التخلّق بتصفية الخُلق
ثم الصعود عن تفرّق التخلق
ثم التخلق بمجاوزة الأخلاق.

*

العزم

العزم تحقيق القصد طوعاً أو كرهاً
وهو على ثلاث درجات:
الدرجة الأولى إباء الحال على العلم
بَشْيم برق الكشف
واستدامة نور الأنس
والإجابة لإماتة الهوى
والدرجة الثانية الاستغراق في لوائح المشاهدة
واستنارة ضياء الطريق
واستجماع قوى الاستقامة
والدرجة الثالثة معرفة علّة العزم
ثمّ العزم على التخلّص من العزم
ثم الخلاص من تكاليف ترك العزم
فإن العزائم لم تورث أربابها ميراثاً أكرم
من وقوفهم على علل العزائم.

*

الإرادة

الإرادة من قوانين هذا العلم وجوامع أبنيته
وهي الإجابة لدواعي الحقيقة طوعاً
وهي على ثلاث درجات:
الدرجة الأولى ذهابٌ عن العادات بصحبة العلم
وتعلقٌ بأنفاس السالكين مع صدق القصد
وخلع كلّ شاغل من الإخوان
ومشتت من الأوطان.
والدرجة الثانية تقطُّعٌ بصحبة الحال
وترويحِ الأنس
والسير بين القبض والبسط.
والدرجة الثالثة ذهولٌ مع صحّة الاستقامة
وملازمةِ الرعاية
على تهذيب الأدب.

*

الأنس

الأنس عبارة عن رَوْح القرب
وهو على ثلاث درجات:
الدرجة الأولى الأنس بالشواهد
وهو استحلاء الذِّكر
والتغذّي بالسماع
والوقوف على الإشارات.

والدرجة الثانية الأنس بنور الكشف
وهو أنسٌ شاخصٌ عن الأنس الأوّل
تشوبه صولة الهيمان
ويضربه موج الفناء.
وهذا الذي غلب قوماً على عقولهم
وسلب قوماً طاقة الاصطبار
وحلّ عنهم قيود العلم.
وفي هذا ورد الخبر بهذا الدعاء:
«أسْأَلُكَ شَوْقاً إلى لقَائِكَ مِنْ غَيْرِ ضَرّاءٍ مُضِرَّةٍ وَلا فِتْنَةٍ مُضِلّة».
والدرجة الثالثة أنس اضمحلال في شهود الحضرة
لا يُعبّر عن عينه
ولا يشار إلى حدّه
ولا يوقَف على كنهه.

*

الفقر

الفقر اسم للبراءة من رؤية المَلَكَة
وهو على ثلاث درجات:
الدرجة الأولى فقر الزهّاد
وهو نفض اليدين من الدنيا ضبطاً أو طلباً
وإسكات اللسان عنها ذمّاً أو مدحاً
والسلامة منها طلباً أو تركاً
وهذا هو الفقر الذي تكلّموا في شرفه.

والدرجة الثانية الرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل
وهو يورث الخلاص من رؤية الأعمال
ويقطع شهود الأحوال
ويمحِّص من أدناس مطالعة المقامات.
والدرجة الثالثة صحّة الاضطرار
والوقوع في يد التقطّع الوحداني
والاحتباس في قيد التجريد
وهذا فقر الصوفيّة.

*

الغنى

الغنى اسم للملك التامّ.
وهو على ثلاث درجات:
الدرجة الأولى غنى القلب
وهو سلامته من السبب
ومسالمته الحكم
وخلاصه من الخصومة
والدرجة الثانية غنى النفس
وهو استقامتها على المرغوب
وسلامتها من المسخوط
وبراءتها من المراءاة.
والدرجة الثالثة الغنى بالحقّ
وهو على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى شهود ذكره إيّاك

والثانية دوام مطالعة أوّليّته

والثالثة الفوز بوجوده.

*

العلم

العلم ما قام بدليل ورفع الجهل

وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى علمٌ جليٌّ

يقع بِعَيانٍ

أو استفاضة صحيحة

أو صحّة تجربة قديمة

والدرجة الثانية علمٌ خفيٌّ

ينبت في الأسرار الطاهرة

من الأبزار الزاكية

بماء الرياضة الخالصة

ويظهر في الأنفاس الصادقة لأهل الهمّة العاليّة

في الأحايين الخالية

في الأسماع الصاخبة.

وهو علمٌ يُظهر الغائب

ويغيب الشاهد

ويشير إلى الجمع.

والدرجة الثالثة علمٌ لَدُنيٌّ

إسناده وجوده
وإدراكه عيانه
ونعته حكمه
ليس بينه وبين الغيب حجاب.

*

الحكمة

الحكمة اسم لأحكام وضع الشيء في موضعه
وهي على ثلاث درجات:
الدرجة الأولى أن تعطي كل شيء حقّه
ولا تعدّيه حدّه
ولا تعجله وقته.
والدرجة الثانية أن تشهد نظر الله في وعيده
وتعرف عدله في حكمه
وتلحظ برّه في منعه.
والدرجة الثالثة أن تبلغ في استدلالك البصيرة
وفي إرشادك الحقيقة
وفي إشارتك الغاية.

*

الفراسة

التوسمّ التفرّس
وهو استئناس حكم غيب
من غير استدلال بشاهد ولا اختبار بتجربة.

وهي على ثلاث درجات:
الدرجة الأولى فراسةٌ طارئة نادرة
تسقط على لسانٍ وحشيٍّ في العمر مرّة
لحاجة سمع مريد صادق إليها
لا يوقف على مَخرجها
ولا يُوبَهُ بصاحبها.
وهذا شيء لا يلخص من الكهانة وما ضاهاها
لأنها لم تشر عن عين
ولم تصدر عن علم
ولم تُسْق بوجود.
والدرجة الثانية فراسةٌ تُجنى من غرس الإيمان
وتطلع من صحّة الحال
وتلمع من نور الكشف.
والدرجة الثالثة فراسةٌ سَرِيّة
لم تجتلبها روّية
على لسان مصطنع
تصريحاً أو رمزاً.

*

الإلهام

الإلهام مقام المحدَّثين
وهو فوق الفراسة
لأنّ الفراسة ربّما وقعت نادرةً

أو استصعبت على صاحبها وقتاً
واستعصت عليه
والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد
وهو على ثلاث درجات:
الدرجة الأولى إلهام نبأ يقع وحياً قاطعاً
مقروناً بسماع أو مطلقاً.
والدرجة الثانية إلهام يقع عيناً
وعلامة صحته أنّه لا يخرق ستراً
ولا يجاوز حدّاً
ولا يخطئ أبداً
والدرجة الثالثة إلهام يجلو عين التحقيق صرفاً
وينطق عن عين الأزل محضاً
وللإلهام غاية تمتنع عن الإشارة إليها.

*

المحبة

المحبة تَعَلُّق القلب بين الهمة والأنس في البذل والمنع على الإفراد.
والمحبة أول أودية الفناء
والعقبة التي ينحدر منها على منازل المحو
وهي آخر منزل تلقى فيه مقدمة العامة ساقة الخاصّة
وما دونها أغراض لأعواض.
والمحبة هي سمة الطائفة
وعنوان الطريقة

ومعقد النسبة.

وهي على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى محبةٌ تقطع الوساوس

وتلذّ الخدمة

وتسلي عن المصائب.

وهي محبة تنبت من مطالعة المنّة

وتثبت باتّباع السنّة

وتنمو على الإجابة للفاقة

والدرجة الثانية محبةٌ تبعث على إيثار الحقّ على غيره وتُلهج اللسان بذكره

وتعلق القلب بشهوده.

وهي محبةٌ تظهر من مطالعة الصفات

والنظر في الآيات

والارتياض بالمقامات.

والدرجة الثالثة محبةٌ خاطفة تقطع العبارة

وتدقق الإشارة

ولا تنتهي بالنعوت.

وهذه المحبّة هي قطب هذا الشأن

وما دونها محابٌّ نادت عليها الألسن

وادعتها الخليقة

وأوجبتها العقول.

*

الغيرة

الغيرة سقوط الاحتمال ضنّاً
والضيق عن الصبر نفاسةً
وهي على ثلاث درجات:
الدرجة الأولى غيرة العابد على ضائع يستردّ ضياعه ويستدرك فواته ويتدارك تواه.
والدرجة الثانية غيرة المريد على وقت فات
وهي غيرة قاتلة
فإنّ الوقت وحيّ الغضب
أبيّ الجانب
بطيء الرجوع.
والدرجة الثالثة غيرة العارف على عين غطّاها غينٌ
وسرّ غشيه رينٌ
ونفس علق برجاءٍ
أوالتفت إلى عطاء.

*

الشوق

الشوقُ هبوبُ القلبِ إلى غائبٍ
وفي مذهب هذه الطائفة علّة الشوق عظيمة
فإنّ الشوق إنمّا يكون إلى غائب
ومذهب هذه الطائفة إنمّا قام على المشاهدة
ولهذه العلّة لم ينطق القرآن باسمه.

ثم هو على ثلاث درجات:
الدرجة الأولى شوق العابد إلى الجنّة
ليأمن الخائف
ويفرح الحزين
ويظفر الآمل.
والدرجة الثانية شوقٌ إلى الله عزّ وجلّ
زرعه الحبّ الذي نبت على حافات المِنَن
فعلق قلبه بصفاته المقدّسة
فاشتاق إلى معاينة لطائف كرمه
وآيات بره
وأعلام فضله.
وهذا الشوق تفثأه المبارّ
وتخالجه المسارّ
ويقاويه الاصطبار.
والدرجة الثالثة نارٌ أضرمها صفو المحبّة
فنغّصت العيش
وسلبت السلوة
ولم ينهنهها مُعَزٍّ دون اللقاء.

*

القلق

القلق تحريك الشوق بإسقاط الصبر
وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى قلقٌ يضيّق الخُلق
ويبغّض الخَلق
ويلذّذ الموت.
والدرجة الثانية قلقٌ يغالب العقل
ويخلي السمع
ويصاول الطاقة
والدرجة الثالثة قلقٌ لا يرحم أبداً
ولا يقبل أمداً
ولا يُبقي أحداً.

*

الوجد

الوجد لهبٌ يتأجّج من شهود عارض مُقلق.
وهو على ثلاث درجات:
الدرجة الأولى وجدٌ عارضٌ
يستفيق له شاهد السمع
أو شاهد البصر
أو شاهد الفكر
أبقى على صاحبه أثراً أو لم يُبقِ.
والدرجة الثانية وجدٌ يستفيق له الرُّوح
بلمع نور أزليّ
أو سماع نداء أوليّ
أو جذب حقيقيّ

إن أبقى على صاحبه لباسه
وإلا أبقى عليه نوره.
والدرجة الثالثة وجدٌ يخطف العبد من يد الكونين
ويمحّص معناه من درن الحظّ
ويسلبه من رقّ الماء والطين
إن سلبه أنساه اسمه
وإن لم يسلبه أعاره رسمه.

*

اللحظ

اللحظُ لمحٌ مسترقٌ
وهو في هذا الباب على ثلاث درجات:
الدرجة الأولى ملاحظة الفضل سبقاً
وهي تقطع طريق السؤال إلا ما استحقّته الربوبّية من إظهار التذلل لها وتُثبت السرور إلاّ ما يشوبه من حذر المكر وتبعث على الشكر إلاّ ما قام به الحقّ عزّ وجلّ من حقّ الصفة.
والدرجة الثانية ملاحظة نور الكشف
وهي تُسبل لباس التولي
وتذيق طعم التجلي
وتعصم من عوار التسلي
والدرجة الثالثة ملاحظة عين الجمع
وهي توقظ لاستهانة المجاهدات
وتخلص من رعونة المعارضات

وتفيد مطالعة البدايات.

*

الغربة

الاغتراب اسم يشار به إلى الانفراد عن الأكفاء

وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى الغربة عن الأوطان

وهذا الغريب موته شهادة

ويقاس له في قبره من متوفّاه إلى وطنه

ويجمع يوم القيامة إلى عيسى بن مريم عليه السلام.

والدرجة الثانية غربة الحال

وهذا من الغرباء الذين طُوبَى لَهُم

وهو رجلٌ صالحٌ في زمان فاسدٍ بين قوم فاسدين

أو عالمٌ بين قوم جاهلين

أو صديق بين قوم منافقين.

والدرجة الثالثة غربة الهمّة

وهي غربة طلب الحقّ

وهي غربة العارف

لأن العارف في شاهده غريب

ومصحوبه في شاهده غريب

وموجوده فيما يحمله علم أو يظهره وجد

أو يقوم به رسم أو تطيقه إشارة

أو يشمله اسم غريب.

فغربة العارف غربة الغربة
لأنه غريب الدنيا وغريب الآخرة.

*

المكاشفة

المكاشفة مهاداة السرّ بين متباطنين
وهي في هذا الباب بلوغ ما وراء الحجاب وجوداً
وهي على ثلاث درجات:
الدرجة الأولى مكاشفة تدلّ على التحقيق الصحيح
وهي أن تكون مستديمة.
فإذا كانت حيناً دون حينٍ
لم يعارضه تفرّق
غير أنّ الغين ربمّا شاب مقامه
على أنه قد بلغ مبلغاً
لا يلفته قاطعٌ
ولا يلويه سببٌ
ولا يقتطعه حظٌّ.
وهي درجة القاصد
فإذا استدامت فهي الدرجة الثانية.
وأما الدرجة الثالثة فمكاشفة عين
لا مكاشفة علم
ولا مكاشفة حال
وهي مكاشفة لا تذرُ سمةً تشير إلى التذاذ

أو تُلجئ إلى توقّف أو تُنزل على ترسّم.

وغاية هذه المكاشفة المشاهدة.

*

المشاهدة

المشاهدة سقوط الحجاب بتّاً

وهي فوق المكاشفة

لأن المكاشفة ولاية النعت

وفيه شيءٌ من بقاء الرسم

والمشاهدة ولاية العين والذات.

وهي على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى مشاهدة معرفةٍ

تجري فوق حدود العلم

في لوائح نور الوجود

منيخة بفناء الجمع.

والدرجة الثانية مشاهدة معاينةٍ

تقطع حبال الشواهد

وتلبس نعوت القدس

وتخرس ألسنة الإشارات،

والدرجة الثالثة مشاهدة جمعٍ

تجذب إلى عين الجمع

مالكة لصحة الورود

راكبة بحر الوجود.

*

المعاينة

المعاينات ثلاث:

إحداها معاينة الأبصار

والثانية معاينة عين القلب

وهي معرفة الشيء على نعته

علماً يقطع الريبة ولا تشوبه حيرة

وهذه معاينةٌ بشواهد العلم.

والمعاينة الثالثة معاينة عين الروح

وهي التي تعاين الحق عِياناً محضاً

والأرواح إنما طُهرِّت وأكرمت بالبقاء

لتناغي سناء الحضرة

وتشاهد بهاء العزّة

وتجذب القلوب إلى فِناء الحضرة.

*

السكر

السكر في هذا الباب اسمٌ يشار به إلى سقوط التمالك في الطرب

وهذا من مقامات المحبين خاصةً

فإنّ عيون الفناء لا تقبله

ومنازل العلم لا تبلغه.

وللسكر ثلاث علامات:

الضيق عن الاشتغال بالخبر والعظيم قائم

واقتحام لجّة الشوق والتمكّن دائم

والغرق في بحر السرور والصبر هائم.
وما سوى ذلك فحيرةٌ تنحل اسم السكر جهلاً
أو هيمان يُسمّى باسمه جوراً
وما سوى ذلك فكلّه نقائص البصائر.
كسكر الحرص
وسكر الجهل
وسكر الشهوة.

*

الصحو

الصحو فوق السكر
وهو يناسب مقام البسط.
والصحو مقام صاعدٌ عن الانتظار
مُغنٍ عن الطلب
طاهر من الحرج.
فإنّ السكر إنمّا هو في الحقّ والصحو إنمّا هو بالحقّ
وكلّ ما كان في عين الحق لم يخلُ من حيرة
لا حيرة الشبهة
بل الحيرة في مشاهدة نور العزّة.
وما كان بالحق لم يَخلُ من صحّة
ولم يخف عليه من نقيصه
ولم تتعاوره علّة.
والصحو من منازل الحياة

وأودية الجمع ولوائح الوجود.

*

المعرفة

المعرفة إحاطة بعين الشيء كما هو

وهي على ثلاث درجات

والخلق فيها ثلاث فرَق:

الدرجة الأولى معرفة الصفات والنعوت

وقد وردت أساميها بالرسالة

وظهرت شواهدها في الصنعة

بتبصير النور القائم في السرّ

وطيب حياة العقل لزرع الفكر

وحياة القلب بحسن النظر

بين التعظيم وحسن الاعتبار

وهي معرفة العامّة

التي لا تنعقد شرائط اليقين إلا بها.

وهي على ثلاثة أركان:

أحدها إثبات الصفة باسمها من غير تشبيه

ونَفْي التشبيه عنها من غير تعطيل

والإياس من إدراك كنهها وابتغاء تأويلها.

والدرجة الثانية معرفة الذات

مع إسقاط التفريق بين الصفات والذات

وهي تنبت بعلم الجمع

وتصفو في ميدان الفناء
وتستكمل بعلم البقاء
وتشارف عين الجمع.
وهي على ثلاثة أركان:
إرسال الصفات على الشواهد
وإرسال الوسائط على المدارج
وإرسال العبارات على المعالم
وهي معرفة الخاصّة
التي تؤنس من أفق الحقيقة.
والدرجة الثالثة معرفة مستغرقة في محض التعريف
لا يوصل إليها الاستدلال
ولا يدلّ عليها شاهد
ولا تستحقها وسيلة.
وهي على ثلاثة أركان:
مشاهدة القرب
والصعود عن العلم
ومطالعة الجمع.
وهي معرفة خاصّة الخاصّة.

*

الإمام أبو حامد الغزالي*

(...) إن سنحت لأبصارهم** صور، عبرت إلى المصور بصائرهم. وإن قرعت أسماعهم نغمة، سبقت إلى المحبوب سرائرهم. وإن ورد عليهم صوت مزعج أو مقلق أو مطرب أو محزن أو مهيّج أو مشوق، لم يكن انزعاجهم إلا إليه، ولا طربهم إلا به، ولا قلقهم إلا عليه، ولا حزنهم إلا فيه، ولا شوقهم إلا إلى ما لديه، ولا انبعاثهم إلا له، ولا ترددهم إلا حواليه. فمنه سماعهم، وإليه استماعهم.

*

(...) لولا ظلمة الكون، لظهر نور الغيب.

ولولا فتنة النفس، لارتفعت الحجب.

ولولا العوائق، لانكشفت الحقائق.

ولولا العقل، لبرزت القدرة،

ولولا الطمع، لرسخت المحبة، ولولا البعد، لشُوهد الرَّبُّ.

*

(...) فإذا أرادك بخصوصية الاصطفائية، سقاك بكأس محبته شربة، فتزداد بذلك الشرب ظمأ، وبالذوق شوقاً، وبالقرب طلباً، وبالسكون قلقاً.

فإذا تمكن منك هذا السكر، أدهشك.

---

* توفي سنة 505 هـ.

** يقصد الأولياء.

فإذا أدهشك خيرك، فأنت ها هنا مريد. فإذا دام لك تحيرك، أخذك منك، وسلبك عنك، فتبقى مسلوباً مجذوباً، فأنت حينئذ مراد.

(...) فإن رسخ قدمك، وتمكن سرك حال سكرك، قلت: هو، وإن غلب عليك وجدك، وتجاوز بك حدك عن حد الثبوت، قلت: أنت. فأنت في الأول متمكن، وفي الثاني متلون.

*

يا حبيبي، أطبقْ جفنيك وانظرْ ماذا ترى. فإن قلتَ لا أرى شيئاً، فهو خطأ منك، بل تبصر، ولكن ظلام الوجود لفرط قربه من بصيرتك، لا تجده، فإن أحببت أن تجده وتبصره قدامك، مع أنك مطبق جفنيك، فأنقص من وجودك شيئاً، أو أبعد من وجودك شيئاً.

*

قد يكون الظهور سبب الخفاء.

*

عين القضاة الهمذاني الميجاني*

إن خطر ببالك أن الله تعالى لِمَ يُوْجِدُ؟ ألغرضٍ يرجع إليه؟ فهو محال. أم لغير غرضٍ وهو أيضاً محالٌ إلا من طريق الطَّبع المحض. ولا يوصف الله سبحانه بذلك. فاعلم أن هذا السؤال تحير فيه أكثر العلماء وهو الخاطر الذي خطر لداود النبي عليه السلام حيث قال: «أي ربِّ، لِمَ خَلقت الخلق؟ فقال له: كنتُ كنزاً مخفياً فأحببتُ أن أُعْرَف» وكان المعنى الذي يقتضي صدور الوجود عنه هو الذي كنى عنه بقوله: «فأحببتُ أن أُعْرَف». ولا يُتصور إدراك ذلك المعنى إلا للعارفين؛ وإنما نصيب العقل أن يستدل على وجوده بوجود الموجودات، وذلك بعد ما تحقق عنده أن الله عالم بالجزئيات بحيث لا يتشكك فيه. فإن العقل إذا تحقق استناد الموجودات إليه وتحقق بعد ذلك علمه بالجزئيات ظهر له لا محالة، أن إيجاد الواجب مع علمه بالإيجاد، صفة ضرورية الوجود لتلك الذات؛ كما أن القِدم مثلاً صفة ضرورية لها. وكما لا يجوز للواجب أن لا يكون قديماً فلا يجوز له أن لا يكون مصدراً للخلق، وكان قول القائل: لِمَ كان مصدراً للوجود كقوله لِم كان قديماً.

والجواب أنه لو لم يكن قديماً لم يكن واجباً، ولو لم يكن مصدراً للوجود أيضاً لم يكن واجباً. فمن تحقق استناد الوجود إليه فلا بُد وأن يقول: إن

* عبد الله بن علي بن الحسن، أبو المعالي، عين القضاة الهمذاني الميجاني قُتل صلباً سنة 525 هـ. والمقاطع الواردة في السياق، كانت سبباً في إصدار الفتوى بإعدامه.

الإيجاد صفةٌ له، فيقول: هذه الصفة إن كانت ضرورية الوجود لـه فالسؤال بِلِمَ عن كونه موصوفاً بها، هوسٌ، فهو كالسؤال بِلِمَ عن كونه قديماً؛

وإن كانت غير ضرورية الوجود لـه، فهي صفةٌ عارضةٌ خارجةٌ عن ذاته، والعوارض تحتاج إلى العلل والواجب يأبى بذاته أن يحتاج في شيءٍ إلى شيءٍ وإلا لَم يكن واجباً.

*

كلُّ موجودٍ حادثٌ وُجد فهو مقدورٌ، إذ لو لم يكن مقدوراً لَما وجد؛ فمصدر الوجود إذاً قادرٌ. وكلُّ موجودٍ مقدور فهو مرادٌ إذ لو لم يكن مراد الوجود لما وجد؛ فمصدر الوجود إذاً مريدٌ. وكلُّ موجودٍ مرادٍ فلهُ إلى الواجب نسبة ما؛ وله، أعني للواجب، إلى كلِّ موجودٍ وجه. وكل موجود فهو حاضرٌ للواجب، والواجب معاين لكل موجود، وما ليس بحاضر للواجب فهو معدومٌ إذ ليس له إليه وجه.

ولولا وجه القيوم لم يكن للموجودات أصلاً وجود؛ كما يقال في النظر العامي: لولا وجه الشمس المقوِّم لوجود الشعاعات المنبسطة على الأرض، لم يكن للشعاعات أصلاً وجود.

وإذا كان للواجب إلى كل شيء وجهٌ، كان بالضرورة عالماً بكل ذرة من ذرات الوجود.

فهذه غاية العقل في عروجه فإنه يُثبت في الواجب كل ما يراه ضرورياً له من طريق الاستدلال عليه بالموجودات وصفاتها، كما تراه من استدلاله بالموجودات وحدوثها على قدمه وقدرته وعلمه وإرادته؛ وأما ما وراء ذلك فليس إدراكه من شأن العقل.

*

من ظن أن تغير الشعاعات، بسبب حجاب يمنع استعداد الأرض لقبولها كالسحاب مثلاً، يلزم منه تَغيُّر الصفة التي هي ينبوع الشعاعات، فقد ضل ضلالاً بعيداً. ولعمري يجوز أن تتغير الشمس فتتغير الشعاعات عند تغيرها؛ ولكننا فرضنا الكلام في ما إذا كان تغير الشعاعات صادراً عن حجاب يمنع قبول الأرض لنور الشمس، لست أقول يمنع فيضان الشمس فإن الشمس بصفاتها كما كانت لم يتغير شيءٌ منها بسبب هذا الحجاب، وإنما الحجاب يمنع قبول الأرض لفيضان نور الشمس.

*

فاعلم أن الشمس بذاتها كاملة في سلطان إشراقها ليست تحتاج في اكتساب كمالٍ الى شيءٍ آخر؛ فمن ظن أنها إذا قابلت جسماً، فظهر شعاعها عليه وبلغ أثرها إليه، كان ذلك كمالاً في حقها فقد أخطأ خطأ فاحشاً. فإن كمال كل شيء في مقابلته للشمس حتى يحظى من كمال إشراقها بنصيبٍ ما فإما أن تكون مُقَابلةُ الشمس لشيءٍ كمالاً لها فكلا وحاشا. هذا من حيث النظر العامي مثالٌ جليٌّ في تفهيم المقصود، وهو عند ذوي الألباب لبُّ اللبِّ وكمال الكمال.

وهذه الألفاظ تبعد غاية البعد عن أن تتجلى حقائق معانيها لبصيرة العقل، وإنما إدراكها إلى طور وراء العقل؛ ومهما كان في باطنك شيءٌ منه فلو أفيضت عليك المعقولات كلها دفعةً واحدةً، لم يشف ذلك غليلك أصلاً. وكما لا يُسكن طلبُ الجائع بالماء ولا طلب العطشان بالخبز، وكذلك طلب العارف المخصوص بالطور الذي وراء العقل لا يسكن بالمعقولات.

*

العقل إنما خُلق في الأصل لإدراك الأوليات التي لا يُحتاج فيها إلى مقدمات؛ فأما إدراكه لغوامض النظريات من طريق الاستدلال والاعتبار

بالمقدمات، فكأنه خارجٌ عن طبعه الأصلي؛ وهذا كما أن حاسة اللمس خُلقت في الأصل لإدراك الملموسات من حيث أنها ملموسات، فإذا استعملها الأكمه للاستدلال على وجود ما يُدرك بالقوة الباصرة، كان ذلك خارجاً عن طبعها أعني عن طبع الحاسة اللامسة. وكذلك الكتابة من خاصية اليد، فإذا كان الأقطعُ يكتب برجله كان ذلك خارجاً عن طبعها؛ فإن القدرة الأزلية لم توجِد الرِجل للكتابة بل لأمورٍ أخرى.

فاعلم من ذلك أن إدراك المعقولات الغامضة، إلى طور وراء العقل يُستغنى في إدراكها عن المقدمات، نسبته إلى الغوامض نسبة العقل إلى الأوليات.

*

إذا انفتحت للسالك عين المعرفة،

فَبقَدْر كمالها واستعدادها للإدراك تفيض عليه لطائف الأمور الإلهية؛ وبقَدْر فيضان ذلك عليه، يحصل له إلفٌ مع عالم الملكوت وأُنسٌ بألطاف الحق وعشقٌ بجمال الحضرة الأزلية؛

فيتناقص أنسه بهذا العالم على التدريج شيئاً فشيئاً،

ويتزايد بقدر ذلك أنسه بالعالم الإلهي. وربما تقيس الآن هذا الأنس على ما يحصل للناظر من الأنس بالعلوم النظريَّة، وذلك ظنٌّ فاسد وخطأ شنيع وخاطر فاحش،

وإنما استعير هاهنا لفظ الأنس وغيره من العشق والجمال وغيرهما ضرورةً، فلا يَغُرَّنك تشابههما في المعاني المختلفة، فتضل من حيث لا تدري.

*

كل ما في الوجود فهو فانٍ من حيث الحقيقة ولا بقاء إلا لوجود الحي القيوم،

كما أن الصورة التي في المرآة فانيةٌ بالحقيقة ولا بقاء إلا للصورة الخارجة.

هذا من حيث النظر العامي في القناعة بالأمثلة المحسوسة، وإلا فالصورة الخارجة مع المرآة في نظر العارف فانية أيضاً حسب فناء الصورة الداخلة في المرآة من غير تفاوت.

*

المرآة عبرةٌ عظيمةٌ لأولي الأبصار. ومن نظر في المرآة نظراً شافياً ولم يَنحلَّ له كثيرٌ من المشكلات، فليس يستحق أن يُعدَّ في زمرة العقلاء. ولعمري لم ينظر في المرآة عاقلٌ إلا ويعتور عقلَه إشكالاتٌ عظيمةٌ ويتشكك في جليات الأمور، ولكن تنحلُّ له مع ذلك مشكلات كثيرة. والمرآة بالحقيقة مرآة العقلاء إذ يرون فيها صورة العقل العاجز عن إدراك حقائق كثيرة، فحسبك بها شاهدةٌ على أنَّ العقل معزولٌ عن إدراك كثيرٍ من المحسوسات الظاهرة فضلاً عن المعقولات الخفية.

فمن أراد أن يشاهد عقله على صورته التي هو عليها من العجز فليُكثر النظر في المرآة. ولست أنكر أن العقل خُلق لإدراك أمورٍ عظيمةٍ من الغوامض ولكنه لا يُعجبني إذا عدا طوره في دعواه وجاوز قدره وتخطاه.

*

المرآة تظهر فيها صورة مطابقة للصورة الخارجة من طريق الانطباع. والعقل في أوَّل النظر وبادئ الرأي يُفرق بين الوجود الخارج وبين الوجود الداخل، فأحدهما مستتبع والآخر تابع، ولا يُتصور أن يشك أحدٌ في ذلك. وحاصل الوجود التابع يَرجع الى نسبةٍ حاصلةٍ على وجهٍ مخصوصٍ بين الصورة الخارجة وبين المرآة. فإذا طالع البصر تلك النسبة الحاصلة بينهما

أدرك الصورة الداخلة التابعة، المعدومة من حيث الحقيقة الموجودة من حيث الظاهر. ولا يشك العقل في أنَّ وجودَ الصورةِ الداخلةِ ليس ذاتياً أعني ليس موجوداً بذاته مستقلاً بالوجود، بل هو موجودٌ بالإضافة إلى أربعة أمور: وهي المرآة والصورة الخارجة والنسبة الحاصلة ومطالعة البصير. لذلك فإذا بطلت هذه النسبة بطل وجود تلك الصورة الداخلة، وعلم العاقل أنَّ تلك الصورة لم يكن لها استقلالٌ بالوجود.

*

ولو تُصوِّر وجودُ المرآة، أو الماء أو ما يضاهيها في محاكاة الصور، بحيث كان يحاكي الصورَ ولا يُتصَوَّر عليه تغيرٌ، لم يُدْرِك أحدٌ من الخلائق أن تلك الصورة الداخلة، تابعةٌ في الوجود للصورة الخارجة، وأن هذه خاصية للمرآة والماء، لا يُشاركهما فيه جسمٌ من الأجسام كالطين والجص وأمثالهما. ولكن لمَّا كانت الصورة الخارجة تتغيَّر، وكانت النِّسَبُ الحاصلة أيضاً تتغيَّر، وعند ذلك تتغيَّر الصورة الداخلة حسب تغيُّر الصورة الخارجة على منهاجٍ واحدٍ، لم يتخالج للعقلاء ريبٌ في أن الداخلة تابعةٌ لوجود الخارجة وأن الخارجة مُتقدمةٌ في الوجود على الداخلة تقدُّماً رُتبيّاً لا زمانياً.

*

كانت الدموع ملأت المحاجر والقلوب بلغت الحناجر، وبرَّحت بالعاشق صبوتُه وعظمت حسرته وقال: إلى متى الهذيان الفارغ وأنَّى ينفع ذكر المعشوق والعاشق في سجن الفراق؟

*

إن خطر ببالك أنه ما الذي جرى؟ نوديتَ من وراء حجب الغيب: تأدب! ما للعميان والسؤال عن حقيقة الألوان؟

فوالذي بيده المُلك والملكوت، وتحت سلطانه العظموت والجبروت، لو ظهرت مما جرى بيننا ذرَّةٌ في عالمكم هذا لَتلاشى العرش والكرسيّ فضلاً عن السموات والأرضين.

*

إذا أوتيت رشدك وبرزَتْ لك الأمانة من خِدْرها، وهي الخزانة النبوية، فنفذت من أقطار السموات والأرض، واستدار لك الزمان كهيئة يوم لا يوم بعده،

فحينئذٍ تطلع شمسك ويحسُد غدك أمسَك، وتوجِّه وجهك لفاطر السموات والأرض، وتُقبل في مناهل الحي القيوم على شرب ماء الحياة، وتخرق الآن من قلبك خرقاً إلى ربك، وهو طريق طيرانك إلى الأزل،

فلا تزال شموس الأزلية تشرق عليك متى شئت. وأقلُّ علامات الإشراق أن تتلاشى فيه إذ يستحيل للعاشق أن يصل إلى معشوقه إلاَّ بعد تلاشيه، فلا تظنَّن أنَّ الوصول يحتمل زحمة الوجود. وهذا لا يُتصوَّر بيانه فإنه يجاوز حدود العلم والعقل.

*

أبو العباس أحمد الرفاعي*

أيها السالك! إيّاك ورؤية النفس، إياك والغرور، إياك والكِبْرَ فإن كلّ ذلك مهلك، ما دخل ساحة القرب من استصغر الناس واستعظم نفسه! مَنْ أنا ومن أنت؟

أي أخي: كلٌّ واحد منَّا مُسَيْكين، أوّله مُضْغة، وآخره جيفة. شرف هذا العَرَضِ جوهر العقل. العقل ما عقل النفس وأوقفها عند حدها، فإذا لم يكن عقل المرء عاقلاً لنفسه، موقفاً لها عندَ حدّها، في أَخْذِها وردِّها، فليس بعقل.

*

وإذا حُرِمَ المرءُ الجوهر، ذهب شرفُه وبقي عَرَضاً ثقيلاً كثيفاً، لا يليقُ لمرتبة عزيزة، ولا لمنصب نفيس. وإذا تمَّ عقله وكمُلَ، صار الحُكْمُ فيه للجوهر المَحْض، فصلح أن يكونَ على تيجان الملوك والأكاسرة.

وأوّلُ مراتب العقل: الانخلاعُ عن الأنانية الكاذبة، والدعوى الباطلة، وصَوْلة الفتق والرتق، والوَهْب والسَّلْب.

وإذا حكمه المقام وصار ذا صفة علية أيضاً، فاللازم عليه أن يعرف مبتدأه الطِّيني، ومنتهاه الترابيّ! وأنْ يقفَ بين هذه البداءة والنهاية.

*

---

* أحمد بن علي بن يحيى الرفاعي الحسيني، أبو العباس (512–578 هـ)، مؤسس الطريقة الرفاعية. ولد في قرية حسن من أعمال واسط بالعراق، وقد أثرت طريقته منذ ذلك الوقت حتى الآن في عدد كبير من الناس. ويبلغ عدد الزوايا الصوفية على الطريقة الرفاعية في سوريا وحدها المئات.

أي أخي: أنت غيرٌ، ونفسك غيرٌ، وغيرك غيرٌ،
كل ما أدركه بصرك، واختلج بشكله وكيفيته سِرُّك، فهو غيرٌ.

*

أي أخي: أخاف عليك من الفرح بالكرامة وإظهارها، الأولياء يستترون من الكرامة، كاستتار المرأة من دم الحيض!

*

أي سادة: أحذِّرُكم الدنيا، وأحذّركُم رُؤية الأغيار؛ الأمر صعب، والناقد بصير، إيّاكم وهذه البطالات، إياكم وهذه الغفلات، إياكم والعوالم، إياكم والمحدثات. اطلبوا الكلَّ بترك الكلِّ. مَنْ ترك الكُلَّ نال الكلَّ، من أراد الكلَّ فاته الكلّ.

*

أيْ مسكين: تمشي مع وهمك، مع خيالك، مع كذبك، مع عُجبك وغرورك، وتحملُ نجاسة أنانيتك، وتظنّ أنك على شيء! وكيف يكون ذلك؟ تعلَّم علمَ التواضع، تعلَّم علم الحيرة، تعلَّم علم المسكنة والانكسار.

*

أي سادة: هذه الخيالات الباطلة، أخذَتْكم من وادٍ إلى وادٍ، وهذه الحجب الغليظة، حوّلَتْكم من مقام إلى مقام. ليست الهمة أن يقف الرجل عند حجابه، بل الهمة أن يفتق شراع الحجاب، ويتدلّى إلى الرِّحاب.

*

أي سادة، العبدية، حقها الانقطاع عن غير السيد بالكلية.
العبدية، ترك كل كليّة وجزئية.
العبدية، رَدُّ القصد عن طلب كلّ مزيّة.

العبدية، عدمُ رؤية العبد لنفسه على إخوانه رفعة أو فرقية.
العبدية، الوقوفُ عند ما حُدَّ للطينة الآدمية.
العبدية، الخشيةُ والخضوع تحتَ مجاري الأقدار الربانية.

*

لا يكون العبد عبداً كاملاً، حتى يصل إلى مرتبة الحريّة، والتخلص من رقِّ الأغيار بالكلّيّة.

*

أي سادة، ما تركتُ طريقاً صعباً، ولا مسلكاً غضّاً، إلا كشفْتُ قناعه، ورفعتُ بأكفِّ عساكر الهمّة سترَه المسدول وشراعَه. ودخلت على الله من كل باب، فرأيت على الكلّ ازدحاماً عظيماً فجئته من باب الذُّلِّ والانكسار، فرأيته خالياً، فوصلتُ وحصَّلْتُ مطلوبي. والطُلاّب على الأبواب. أعطاني ربي من فضله ومواهبه ما لا عَيْنٌ رأت، ولا أُذْنٌ سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر، منْ أهل هذا العصر.

*

تساوت طينة البشر من حيث الصُّورُ، وتباينت في التفضيل بما بدا عليها وظهر. فكُلُّ ما ظهر عليها فبقَدَر،

فإذا انبلج الصبح من غيمه، وأسفَرَ وأشرق النور عليها فبهر، وامتد منها إلى سواها وانتشر سلطانه فقهر، وتمكّن شاهده واستقرّ، وظهرت الإشاراتُ والمعاني على الصور،

قد نُفخ في الصور، ووُضع الكتاب المسطور، وكان الغائبُ المحتجب هو الظاهر المشهود المنظور،

حينئذٍ يُبَعْثَرُ ما في القبور، ويُحَصَّلُ ما في الصدور، ويزول الغرور، ويحظى المتَّقون بالحبور، وينال المحبوب غايةَ السرور.

*

والله يا هذا، ما ثَمَّ اتّصالٌ ولا انفصال، ولا حلولٌ ولا انتقال، ولا حركة ولا زوال، ولا مماسّة ولا مجاورة، ولا محاذاةٌ ولا مقابلة، ولا مُسَاواة ولا مماثلة، ولا مجانسة ولا مشاكلة،

ولا تجسُّدٌ ولا تصوُّرٌ ولا انفعال، ولا تَكَوُّنٌ ولا تَغَيُّرٌ، كلُّ هذه نعوتُ حَدَثِكَ.

والحقُّ سبحانه من وراء نعوتك وصفاتك، إذ هي مبتدعاته ومخترعاته، فكيف يظهر بها أو فيها، أو عنها أو منها، وبه ظهَرتْ لا بها ظَهَر، وهو وراء الأشكال والمعاني والصور، وما بطن فيها ولا ظهر، ولا أُدْرِكَ بالفكر ولا حُصِرَ في النظر، ونطاقُ النُّطْق يضيق عن الإفصاح بحقيقة الخبر، وإنما سومح في اللفظ لضرورة تفهيم البشر.

فكل صفة لا تعقلها إلا بالمقايسة إلى صفاتك، فإنما سبقت لضرورة تفهيمك بمعنىً ثَبَتَ عنك، موجوداً متحقّقاً من حيث طاقتك، لا من حيث حقيقة ما نُعتَ لك نعتٌ من نعوته، تقدَّس عما دَلَّتْ عليه ظواهرُ النعوت، وهو المنزَّه عن دلالة النعت الظاهر، من حيث دلّتْ بنفسها على مقايسة وصف المحدَث، ولا تنفكّ في دلالتها عن ذلك،

فله من النعوت والتعريف لإثبات ما يستحقّ، والذي يستحقّه وراء إحاطة العلم، وحَصْرِ الفَهْم، وإحصاء العقل.

*

الشيخ عبد القادر الجيلاني الحسني*

وكنت أقتات الخرنوب والشوك وقمامة البقل وورق الخس من جانب النهر والشط. وبلغت الضائقة في غلاء النُزل ببغداد أن بقيت أياماً لم آكل طعاماً بل كنت أتتبع المنبوذات أطعمها. فخرجت يوماً من شدة الجوع لعلِّي أجد ورق الخس أو البقل أو غير ذلك فأتقوت به، فما ذهبت الى موضع إلا وغيري قد سبقني إليه.

وإن وجدت أجد الفقراء يتزاحمون عليه فأتركه حياءً.

فرجعت أمشي وسط البلد لا أدرك منبوذاً إلا وقد سُبِقْتُ إليه؛ حتى وصلت إلى مسجد ياسين بسوق الرياحين ببغداد، وقد أجهدني الضعف وعجزت عن التماسك. فدخلت إليه ووقعت في جانب منه وقد كدت أصافح الموت، إذ دخل شاب أعجمي ومعه خبز صاف وشواء وجلس يأكل فكنت أكاد كلما رفع يده باللقمة أن أفتح فمي من شدة الجوع، حتى أنكرت ذلك على نفسي فقلت: ما هذا؟ وقلت ما ههنا إلا الله أو ما قضاه عليَّ من الموت؛ إذ التفت إليَّ العجمي فرآني فقال: بسم الله يا أخي فأبيت فأقسم عليَّ فبادرت نفسي فخالفتها؛ فأقسم أيضاً فأجبته فأكلت متقاصراً فأخذ يسألني ما شغلك، ومن أين أنت، وبمن تُعْرَف؟ فقلت: أنا مُتَفَقِّهٌ من جيلان فقال: وأنا من جيلان، فهل تعرف شاباً جيلانياً يسمى عبد القادر؟ فقلت:

---

* الشيخ عبد القادر الجيلاني (470-561 هـ)، يرجع بنسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو رأس الطريقة الصوفية القادرية.

أنا هو. فاضطرب وتغير وجهه وقال: والله لقد وصلت إلى بغداد ومعي بقية نفقة لي، فسألت عنك فلم يرشدني أحد، ونفذت نفقتي ولي ثلاثة أيام لا أجد ثمن قوتي إلا مما كان لك معي وقد حلت لي الميتة، وأخذت من وديعتك هذا الخبز والشواء، فكل طيباً فإنما هو لك وأنا ضيفك الآن بعد أن كنت ضيفي. فقلت له: وما ذاك؟ فقال: أمك وجهت لك معي ثمانية دنانير. فاشتريت منها هذا للاضطرار فأنا متعذر إليك. فسكّنته، وطيبت نفسه ودفعت إليه باقي الطعام وشيئاً من الذهب برسم النفقة، فقبله وانصرف.

*

التصوف هو الصدق مع الحق وحسن الخُلُق مع الخلْق.

*

اتبعوا ولا تبتدعوا، وأطيعوا ولا تخالفوا، واصبروا ولا تجزعوا، واثبتوا ولا تتمزقوا، وانتظروا ولا تيأسوا، واجتمعوا على الذكر ولا تتفرقوا، وتطهروا عن الذنوب ولا تتلطخوا، وعن باب مولاكم لا تبرحوا.

*

احذر ولا تركن، وخف ولا تأمن، وفتش ولا تغفل فتطمئن، ولا تضف إلى نفسك حالاً ولا مقالاً ولا تدع شيئاً من ذلك ولا تخبر أحداً به، فإن الله تعالى كل يوم هو في شأن في تغيير وتبديل يحول بين المرء وقلبه؛ فيزلك عما أخبرت به، ويعزلك عما تخيلت إثباته؛ فتخجل عند من أخبرته بذلك بل احفظْ ذلك ولا تعده إلى غيرك؛ فإن كان الثبات والبقاء فتعلم أنه موهبة فتشكر.

*

اخرج من نفسك وتنحَّ عنها، وانعزل عن ملكك وسلِّم الكل إلى الله،

فكن بوابه على باب قلبك، وامتثل أمره في إدخاله، وانته بنهيه في صدِّ من يأمرك بصده،

فلا تدخل الهوى قلبك، بعد أن خرج منه، فإخراج الهوى من القلب بمخالفته، وترك متابعته في الأحوال كلها، وإدخاله في القلب بمتابعته وموافقته،

فلا ترد إرادة غير إرادته وغير ذلك منك تَمَنٍّ وهو وادي الحمقاء، وفيه حتفك وهلاكك وسقوطك من عينه وحجابك عنه،

احفظْ أبداً أمره، وانته أبداً نهيه وسَلِّم أبداً لمقدوره،

ولا تشركه بشيء من خلقه، فإرادتك وهواك وشهواتك كلها خلقهُ، فلا ترد زيادة ولا تهوَ ولا تشتهِ.

*

الكشف قوة جاذبة، فخاصّيتها نور عين البصيرة إلىَ فيض الغيب، فيتّصل نورها به اتّصال الشعاع بالزجاجة الصافية، حال مقابلتها بالمنع المجذوب إلى فيضه،

ثم يتقاذف نوره منعكساً بضوئه على صفاء القلب،

ثم يترقَّى ساطعاً إلى عالم العقل، فيتّصل به اتصالاً معنوياً، له أثر في استفاضة نور العقل على ساحة القلب،

فيشرق نور العقل على إنسان عين السِّرِّ، فيرى ما خفي عن الأبصار موضعه، ودق عن الأفهام تصوره، واستتر عن الأعيان مرآه.

*

إذا سألتم الله تعالى فاسألوه بي،

ويا أهل الأرض شرقاً وغرباً تعالوا تعلَّموا مني.

يا أهل العراق الأحوال عندي كثياب معلقة في بيتٍ أيها شئت لبست، فعليكم بالسلام أو لآتينكم بجنود لا قِبَلَ لكم بها.

يا غلام، سافر ألف عام لتسمع مني كلمة. يا غلام، الولايات ههنا درجات. ههنا في مجلسي تفرّق الخلع، وما من نبي خلقه الله تعالى ولا وليٌّ إلا وقد حضر مجلسي هذا. الأحياء بأبدانهم والأموات بأرواحهم. يا غلام سل عني منكراً ونكيراً حين مجيئهما إلى قبرك يخبراك عني.

*

يا هذا ناديناك، وما أجبت،
وكم ردعناك وما ارتدعت،
وكم استعجلناك وما عجلت،
وكم وبخناك وما خجلت،
وكم كاشفناك وأنت تعلم أنّا نراك،
وكم أمهلناك أياماً وشهوراً،
وكم سترناك أعواماً ودهوراً، وأنت لا تزداد إلا نفوراً، ولا ترينا إلا فجوراً.

يا هذا كم نقضت العهود، وأخلفت الوعود، وعدت بعد أن عاهدتنا أن لا تعود،

وها نحن قد أنذرناك لكي تقوم، وما يدريك أنّ صفحنا عنك لا يدوم، فكيف بنا إذا رددناك أو طردناك وما أردناك ولا غدرناك ولا أعدناك، أو محونا ربوعك ولم نقبل رجوعك!

ألم تعلم أنك جئتنا خاشعاً ووقفت بأبوابنا خاضعاً ثم انحرفت عنا راجعاً!

*

قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله.

*

أنا شيخ الملائكة والإنس والجن.

*

رأيت في المنام كأني في حجر عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وأنا أرضَع ثديها الأيمن. ثم أخرجت ثديها الأيسر فرضعته. فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا عائشة هذا ولدنا حقاً.

*

سرير الأسرار لا يُنصب إلا في سرادق حق اليقين،
وحق اليقين نقطة دائرة التوحيد، والتوحيد قاعدة بناء الوجود،
والهداية الأحدية مغناطيس حديد قلوب العارفين،
والروضة الأبدية مراتع أسرار المكاشفين.

*

انفرادك في طريق طلبه أمارة صحة المحبَّة.

*

لفت عين قلبك إلى ما سِواه أمارة البُعد.

*

نطقك بغير ذِكره رين على صفاء وجه مرآة قلبك.

*

ما ذاق حلاوة وصله من اشتغل بغيره.

*

ما قرب من جناب رحمته من مال إلى سواه طرفة عين.

*

العدل على الجوارح، والحق على العقول، والصدق على القلوب.

*

الوجه باب الفكرة.

*

كثرة التفكر علامة حضور القلب، وحضور القلب مع الله علامة التوفيق، وحضور التوفيق دليل على حضرة القدس.

*

يا هذا كن مع الله تعالى كأن لا خلق، ومع الخلق كأن لا نفس.

فإذا كنت مع الله تعالى كأن لا خلق وجدت، وعن الكل فنيت، وإذا كنت مع الخلق كأن لا نفس عدلت واتقيت.

*

اترك الكل على باب خلوتك، وادخل وحدك، ترى مؤنسك في خلوتك بغير سؤالٍ، وتشاهد ما وراء العيان، وتزول النفس، ويأتي مكانها أمر الله وقربه،

فإن جهلك علمٌ، وبُعدك قربٌ، وصمتك ذِكرٌ، ووحشتك أُنسٌ.

*

يا موتى القلوب، طلبكم الجنة قيّدكم عن الحق سبحانه وتعالى.

*

السهروردي*

البرزخ الميت لا يدور بنفسه.

*

النّور السافل إذا لم يكن بينه وبين العالي حجاب، يشاهد العالي ويشرقُ نور العالي عليه. فالنور، الأقرب يشرقُ عليه شعاع من نور الأنوار.

*

لعينك مشاهدةٌ وشروق شعاع.

*

النور السافل لا يحيطُ بالنور العالي، فإنّ النور العالي يقهره.

*

لا ميّت في عالم الأثير.

*

الشقاوة والشرّ إنما لزما في عالم الظّلمات من الحركات، والظلمة والحركة لزمتا من جهة الفقر في الأنوار القاهرة والمدبرة، والشر لزم بالوسايط.
ونور الأنوار يستحيلُ عليه هيئات وجهات ظلمانية، فلا يصدر منه شرّ. والفقر والظلمات لوازم ضرورية للمعلولات كساير لوازم الماهية الممتنعة السلب.

---

* شهاب الدين السهروردي (549-587 هـ)، شيخ الإشراق، أمر بإعدامه صلاح الدين الأيّوبي بسبب تحريض الفقهاء له عليه، ونفّذ ابن صلاح الدين «الملك الظاهر» حكم الإعدام على مضض نظراً لصداقته مع السهروردي، وتمّ تنفيذ الحكم في قلعة حلب.

ولا يتصور الوجود إلا كما هو عليه. والشرّ في هذا العالم أقل من الخير بكثير.

*

سبِّحوا الله الذي جعل الشمس وسيلة والنيرين خليفة والجواري حملةً في قربة الله: يتنعمون، فينعمون. وأشخاص الضوء في مدارج الحراك بنور الله ينتفعون، فينفعون النازلين.

*

(...) فليكن أنَّ النُّور هو الظاهر في حقيقة نفسه المُظْهِر لغيره بذاته. وهو أظهر في نفسه من كلِّ ما يكون الظهور زائداً على حقيقته،

ولهذا لا يمكن أن يكتب بحدٍّ أو رسم ولا أن يُعلم بحجةٍ وبرهان لاستحالة أن يدرك أنَّ الظاهر بما هو أقلّ ظهوراً منه، لوجوب كون المُعرِّف أجلى من المُعرَّف.

*

(...) وهذا الشوق أو العشق حركة إلى تتميم كمالٍ ظنّيٍّ أو عقليّ أو غيرهما، إذ العشق من ناقصٍ إلى كامل، وكلما كان الإدراك أتم والمدرك أكمل كان العِشقُ أشد، ونورُ الأنوار أكمل الموجودات ولذلك فهو المعشوق الأول أو هو يعشقُ نفسه، لأنَّ كماله أشدّ ظهوريَّةً له من غيره فهو عاشقٌ لنفسه ومعشوق أيضاً. وظهور ذاته لذاته يولِّدُ عنده لذَّةً، وهذه اللَّذةُ هي الشُّعورُ بالكمال الحاصل من حيث هو كمال، ولا تزيد لذَّاته وعشقُه لذاته شيئاً على ذاته.

*

(...) وعالم الأثير أي عالم الأفلاك والكواكب عالَم حيٌّ، وذلك لأنَّ كُلَّ فلكٍ يتحرَّكُ بالإرادة، ولكلِّ فلكٍ نفسٌ مُدَبِّرَةٌ. وتُسمَّى عقول الأفلاك والكواكب

بالمدبرات العُلويَّة. أما النفوس الناطقة الإنسانيَّة فتسمَّى بالمدبرات السفليَّة. ونفوس الأفلاك أنوار مجرَّدة قائمة بذواتها مدركة للمعقولات، وهناك فرقٌ بين أجسامنا وأجسام الأفلاك، فبينما الأولى لها ميلٌ يُخالفُ ميل نفوسنا، لأنَّ ميل أبداننا إلى جهة المركز، وميلُ نفوسنا قد يكون إلى تلك الجهة كالنازلِ من عُلُوٍّ إلى أسفل وقد يكون إلى خلافها كالصَّاعدِ من تحت إلى فوق، نجد أنَّه ليس لأجرام الأفلاك ميلٌ يُخالِفُ ميل نفوسها، وإذاً فبرازِخُ الأفلاك مقهورةٌ لعقولها، لأنها تُحرِّكها هذه الحركة المستديمة.

*

أهلاً بالحيّ الناطق الأنور، والشخص الأظهر، الكوكب الأزهر،

السلام عليك وتحيات الله وبركاته أيُّها النَيِّرُ الأعظم، والسَّيَّارُ الأشرف الطابع، المبدع، المتحرك في عشق جلال باريه،

أنت قاهر العشق، رئيس السَّماء، فاعل النهار بأمر الله تعالى، ملك الكواكب، سيد الأشخاص العُلويَّة، مالك رِقاب الأنوار المُتجسِّدة بحول الله تعالى وقوته المُطاعة، الجِرْمُ المنيرُ، الزاهِر الحكيم الفاضل، أكبر أولاد القدس، خليفة النور في عالم الأجرام.

*

(...) النور المدبر يستطيع الإدراك المباشر بعد التجرّد من الجسد،

ولذلك شاهد المتألهون، أصحاب الرياضات والمجاهدات، الأنوار المجردة، وذلك بعد انسلاخهم عن أبدانهم.

ومن جاهد في الله حق جهاده وقهر الظلمات رأى أنوار العالم الأعلى مشاهدة أتم من المبصرات هاهنا.

فنور الأنوار والأنوار القاهرة مرئية برؤية النفس الناطقة، ومرئية برؤية بعضها بعضاً،

والأنوار المجردة كلها باصرة وليس بصرها يرجع إلى علمها، بل علمها يرجع إلى بصرها، وكل ما في البدن ظِلٌّ لنور النفس الناطقة، والهيكل طِلسمُه.

*

إنَّ النفوس الناطقة من جوهر الملكوت. وإنما يشغلها عن عالمها هذا القوى البدنية ومشاغلها، فإذا قويت النفس بالفضائل الروحانية وضعف سلطان القوى البدنية بتقليل الطعام وتكثير السهر تتخلص أحياناً إلى عالم القدس وتتصل بأبيها المقدَّس، وتتلقى منه المعارف وتتصل بالنفوس الفلكية العالمة بحركاتها.

*

(...) فأوَّلُ ما يبتدئ عليهم* أنوار خاطفة لذلك سموها الطوالع واللوائح، وهي كلمة بارق سريعة الانطواء،

ثم يمعنون في الرياضة إلى أن يكثر عليهم ورودها لملكة مُتَمَكِّنَةٍ، وقد يخرجُ على اختيارهم هجومها،

ثم بعد ذلك يثبت الخاطف وعند ثباته يُسمّى السكينة، وعند التوغُّل في الرياضة تصير مَلَكة، ثم بعد ذلك تحصل لهم قوة عروج إلى الجناب الأعلى، وما دامت النفس مبتهجة باللذات من حيث هي لذَّات فهي بعد غير واصلة، وإذا غابت عن شعورها بذاتها وشعورها بلذاتها، فذلك الذي سَموه الفناء، وإذا فنيت عن الشعور، فهي باقية ببقاء الله تعالى، وقد سبقت إشارة إلى الاتحاد.

---

* يعني المريدين.

وثَمَّ مقام آخر في الفناء هو الفناء في الخلة وهو أقرب الحالات إلى الموت، وربما سمَّاه بعض الصوفية «مقام الخلة» وأشار إليه أفلاطون وهذا غير الفناء الذي قد يجتمع مع التحريك البدني المشهور.

*

الأرض لا تخلو من متوغِّلٍ في التأله أبداً.

*

لابدَّ أن أملك الأرض.

*

العقل الفعَّال (...) ربُّ الإنسي، روح القدس، معطي الحيوة والفضيلة بأمر الله تعالى، مدبر العالم العنصري.

العقل الفعَّال مفيض طِلَّسْم النفوس النواطق، صاحب الظفر، والغالب ليتقدّس به نوع الإنس الكريم.

*

(...) الشرّ لا ذات له، بل هو عدم ذات، أو عدم كمال الذات. وما يوجد شرّاً فإنما هو لإفضائه إلى عدمٍ ما، إذ لو كان موجوداً ما فوَّت شيئاً على غيره، فليس شرَّاً لغيره، ولا لنفسه،

والإصبع الزايدة إنما توجدُ شرَّاً لأنها تبطل هيئة مستحسنة عن اليد، وكذا غيرها.

*

كمال الكلمة تشبّهها بالمبادئ على حسب الطاقة البشرية، فلابدّ من التجرّد بحسب القدرة.

وينبغي أن يكون للكلمة الهيئة الاستعلائية على البدن لا للبدن عليها. فكمالها من جهة علاقتها مع البدن والخُلْقِ المسمى بالعدالة.

والعدالة هي حكمة وشجاعة وعفة.

والعفة هي توسط القوة الشهوانية مما يُشتهى ولا يُشتهى بحسب الرأي الصحيح، وهي بين الشَبَق والخمود.

والشجاعة هي توسط القوة الغضبية في ما يُغضَب له ولا يُغضَب بحسب الرأي الصحيح، وهي متوسطة بين الجبن والتهوّر.

*

الفطنة جودة الحدس، وهو سرعة هجوم النفس على المبادئ الموصلة إلى الحقائق من غير طلب كثير، ويوازيها من الرذائل الغباوة.

*

والبيان وهو تحسين نقل ما في ضمير المخاطِب إلى ضمير من يخاطبه، ويقابله العِيّ.

*

إصابة الرأي هو حسن ملاحظة عواقب الأمور التي يتفكر فيها حتى يدرك جهة الصواب على الوجه الملائم.

*

الحزم هو تقديم العمل في الحوادث الممكن وقوعها بما هو أسلم وأبعد عن الضرر، ويوازيه العجز.

*

الصدق موافقة الآلة المعبّرة للضمير بحيث يتوافقان إيجاباً وسلباً، وصدقهما هو موافقتهما للأمر في نفسه، ويوازيه الكذب.

*

الوفاء هو ثبات النفس على مقتضى ما ضَمِنَت والتزمت، ويوازيه الجفاء والغدر.

*

الرحمة لُحُوق الرقة على ما حلّ به المكروه من الجنس، ويقابله القساوة.

*

الحياء هيئة للنفس تقتضي حسن الامتناع عن أمر يلاحَظ تأدّيه إلى اللوم، ويوازيه الوقاحة.

*

عِظَم الهمة هو أن لا يرضى الإنسان من الفضائل إلا بأعلى ما يقدر عليه، ويوازيه دناءة الهمة.

*

حسن العهد هو المحافظة على أحوال القرابات والصداقات والاعتناء بها وتذكّرها، ويوازيه من الرذائل سوء العهد.

*

التواضع هو حطّ الإنسان نفسه دون منزلة يستحقها من غير نقيصة، ويوازيه التكبّر والصَلَف.

*

القناعة هي ضبط القوة الشهوانية عن الاشتغال بالزائد على الكفاية وعن الحرص على ما يُشاهَد من الغير، وهي بين الحرص والاستهانة بتحصيل الكفاية.

*

السخاء هو ملكة الإنسان لبذل ما لَه من المال لجنسه على حسب الحاجة والرأي الصحيح، وهو بين البخل والإسراف.

*

الصبر هو ضبط القوة الغضبية عن شدة التأثر بالمكروه النازل الذي يوجب العقلُ احتمالَه وعدمَ الجزع عنه، أو ضبطُها عن حب مُشتهىً يوجب العقلُ اجتنابَه.

*

الحِلم هو الإمساك عن الابتدار إلى دعاء الغضب، إلى الانتقام من الجاني بحسب ما يقتضيه العقل لا بناءً على مانع خارج.

*

سعة الصدر هو أن لا تتأثر النفس بهجوم الحوادث بحيث تتحيّر، بل تستعمل الواجب وإن عظُم الوارد.

*

كتمان السرّ هو ضبط قوة الكلام عن إظهار ما في الضمير في غير وقته وأهله.

*

الأمانة هو حفظ النفس عن التصرف في مال الغير عنده، وذبّه عنه لينتفع به، وحِفظُ ذلك من غير صاحبه إلا بإذنه، وضبطُه عما يفسده بحسب الطاقة إن كان مما يحتاج إلى ذلك.

*

الحال هو عبارة عن كمالٍ سريع الزوال غير محسوس.

*

الخاطر هو ما يَرِدُ على النفس من السوانح الداعية إلى أمر ما كان متعلّقاً بالجَنْبَةِ العالية أو السافلة.

*

التوبة عبارة عن تألّم النفس على ما ارتكبت من الرذائل مع جزم القصد إلى تركها وتدارك الفائت بحسب الطاقة.

*

الإرادة هي أول حركة للنفس إلى الاستكمال بالفضائل.

*

المريد هو طالب الطهارة الحقيقية.

*

الرجاء هو ابتهاج النفس بملائم لها أُخْطِرَت إمكان حصوله في المستقبل.

*

الخوف هو تألّم النفس بمكروه أُخْطِرَت إمكان حصوله في المستقبل، ويتخصص عندهم بالأمور والهيئات النفسانية من الفضائل والرذائل النفسانية.

*

المعرفة هو ارتسام الحقائق في النفس بمقدار ما ترتقي إليه طاقة البشر من ذات واجب الوجود سبحانه وتعالى، وما يليق بصفاته وأفعاله ونظام صنعه.

*

الوجد عبارة عن كل ما يَرِدُ على النفس وتجده في ذاتها من الأمور المتعلقة بالفضائل.

*

التواجد هو استجلاب الوجد بالتكلّف.

*

السكينة خُلْسة لذيذة تثبت زماناً أو خلسات متتالية لا تنقطع حيناً من الزمان، وهي حالة شريفة. ومن اللوائح والسكينة تنبت جميع الأحوال الشريفة. والسكينة هي السُبُحات. فإذا حصلت ملَكة السكينة سهل الأمر.

*

الغَيْبة هي خُلْسة للنفس إلى عالمها بحيث تغيب عن الحواس. والغيبة عن الحواس حضور في الغيب، وحضور الحواس غيبة عن القدس.

*

الأُنس حالة للنفس تتضمن ابتهاجاً لها فتصير مطمئنة بالنسبة إلى المبادئ مما يَرِدُ عليها من النور المُلِذّ.

*

التوحيد ليس هو عبارة عمّا هو مشهور من معرفة الله تعالى بالوحدانية والقيّومية، بل ههنا عبارة عن إفراد الكلمة عن علائق الأجرام بحسب الإمكان على وجه ينطوي ملاحظة المبادئ والترتيب في العظمة القيّومية.

*

المكاشفة هي حصول علم للنفس إمّا بفكر أو حدس أو بسانح غيبي متعلق بأمر جزئي واقع في الماضي أو المستقبل.

*

الفناء هو سقوط ملاحظة النفس للذّاتها من شدة استغراقها في ملاحظة ذات ما تلتذّ به وإذا سقط شعورها بما سوى محبوبها. وعن الفناء أيضاً فهو المحو والطمس.

*

والعارف ما دام لا يزول عنه النظر إلى العرفان فهو بعدُ متوسط حتى يفنى العرفان في ذات المعروف. وهذه الأشياء كلها على اللذة النورية تُبتنى.

*

أبو مدين شعيب بن الحسين*

الحق تعالى مُمِدٌّ، والوجود مستمدٌّ، والمادة عين الوجود، فلو انقطعت المادة انهدم الوجود.

*

إذا ظهر الحق لم يبق معه غيره.

*

من رزق حلاوة المناجاة زال عنه النوم.

*

السالك ذاهب إليه، والعارف ذاهب فيه.

*

من اشتغل بطلب الدنيا، ابتلي بالذل فيها.

*

من تزيّن بزائل فهو مغرور.

*

اللَّهمَّ فهمنا عنك، فإنا لا نفهم عنك إلاّ بك.

*

الجمع ما أسقط تفرقتك، ومحا إشارتك.

*

* شعيب بن الحسين القطينياني الأندلسي (509-594 هـ).

الجمع استغراق أوصافك، وتلاشي نعوتك.

*

المدعي من أشار إلى نفسه.

*

شتّان ما بين مَن هِمّته الحور والقصور، وبين من همّته رفع الستور ودوام الحضور.

*

شاهده بمشاهدته لك، ولا تشاهده بمشاهدتك له.

*

للأرواح الرعاية، وللأشباح الوقاية.

*

من عرف نفسه لم يغتر بثناء الناس عليه.

*

الغيرة أن لا تَعْرِفَ ولا تُعْرَفَ.

*

الحق تعالى لا يراه أحد إلاّ مات، ومن لم يمت لم يرَ الحق.

*

انكسار العاصي خير من صولة المطيع.

*

احذر صحبة النساء اتّقاءً على قلبك.

*

الذكر شهود المذكور ودوام الحضور.

*

بقاء الأبد في فنائك عنك.

*

ثمن التصوّف تسليم كلك.

*

الأحوال مالكة لأهل البدايات فهي تصرفهم، ومملوكةٌ لأهل النهايات فهم يصرفونها.

*

كل حقيقة لا تمحو أثر العبد و رسومه فليست بحقيقة.

*

احرص أن لا يكون لك شيء تعرف به كل شيء.

*

من لم يكن بالأحد، لم يكن بأحد.

*

دليل وحشتك أنسك بالمستوحشين.

*

أنفع الكلام ما كان إشارة عن مشاهدة، أو نبأ عن حضور.

*

الذكر ما غيّبك عنك بوجوده، وأخذك منك بشهوده.

*

الذكر شهود الحقيقة وخمود الخليقة.

*

من عرف أحداً لم يعرف الأحدَ سبحانه.

*

ما بان عنه أحد، ولا اتّصل به أحد.

*

الأجسام أقلام، والأرواح ألواح، والنفوس كؤوس.

*

الوجد حضرة تلهب، ثم نظرة تسلب.

*

من أنس بالخلق استوحش من الحق.

*

بالغفلة تنال الشهوة.

*

الشيخ من شهدت له ذاتك بالتقديم، وسرّك بالاحترام والتعظيم.

*

الشيخ من جمعك بحضوره، وحفظك في مَغْيَبِه.

*

الشيخ من هذبك بأخلاقه، وأدّبك بإطراقه، وأنار باطنك بإشراقه.

*

(...) آثار نوره مع الفقراء بالأنس والانبساط، ومع الصوفية بالأدب والارتباط، ومع المشايخ بالخدمة والاغتباط، ومع العارفين بالتواضع والانحطاط. فعامل كل شيء بما يؤنسه ولا يوحشه. فمع العلماء بحسن الاستماع والافتقار، ومع أهل المعرفة بالسكون والانتظار، ومع أهل المقامات بالتوحيد والانكسار، يبرز لك مدد الرحمة والعصمة والخلافة والنيابة، ومدد حملة العرش،

ويكشف لك عن حقيقة الذات وإحاطة الصّفات، ويُكرم بكرامة الحكم والفصل بين الوجودين، وانفصال الأوّل عن الأوّل، وما انفصل عنه إلى منتهاه، وما يثبت فيه، وحكم ما قبل وما بعد، وحكم ما لا قَبْل ولا بَعد، وعلم اليد، وهو العلم المحيط بكل شيء، وبكل معلوم بدا في السرّ الأول إلى منتهاه، ثم يعود إليه.

*

محيي الدين ابن عربي*

(...) ورأينا جماعةً مِمّن صحبوا الجِنّ حقيقةً، وظهرتِ لهم براهين على صحّة ما ادّعوه من صحبتهم،

وكانوا أهلَ جِدٍّ واجتهادٍ وعبادة، ولكن لم يكن عندهم من جهتهم شمّة من العلم بالله.

ورأينا فيهم عزّةً وتكبراً، فما زلنا بهم حتى حُلنا بينهم وبين محبتهم وطلبهم الأنفس،

كما رأينا ضدّ ذلك منهم. فما أفْلح ولا يُفلح مَنْ هذه صفته، إذا كان صادقاً.

وأمّا الكاذب، فلا تشتغل به. فإنّ مجالسة الجِنّ رديئة جداً، وقليلٌ أن تنتج خيراً.

ورأينا جماعةً مِمّن يدركون العلومَ من الروائح بالقوة الشّميّة.

رأيتهم بإشبيلية وبمكة، وبالبيت المقدّس، وفاوضناهم فمع ذلك مفاوضةَ حال، لا مفاوضةَ نُطق.

كما أنّي فاوضت طائفةً أخرى من أصحاب النظر البصريّ، فكنت أسأل وأُجاب ونُسْأل ونُجيب بمجرّد النظر، ليس بيننا كلامٌ معتاد، ولا اصطلاحٌ بالنظر أصلاً.

---

* أبو بكر محمد بن علي المعروف باسم «ابن عربي». وُلد سنة 560 هـ وتوفيّ سنة 638 هـ في مدينة دمشق.

لكن، كنت إذا نظرت إليه علمتُ جميعَ ما يريده منّي، وإذ نظر إليَّ علم جميعَ ما نريده منه، فيكون نظره إليّ سؤالاً وجواباً. ونظري إليه كذلك، فنحصّل علوماً جمة بيننا من غير كلام،

فإن الحواسّ طريق موصلة إلى العلم، والعلم بالأمر هو المطلوب لا بما حصل.

*

الخضر (...) كان في جيشٍ، فبعثه أمير الجيش يرتاد لهم ماءً، فوقعَ بعين الحياة، فشرب، فعاش إلى الآن.

وعين الحياة ماءٌ خَصّ الله بالحياة شاربَه. ثم عاد إلى أصحابه، فأخبرهم بالماء، فسارعَ الناس إلى ذلك الموضع ليستقوا منه، فأخذ الله بأبصارهم عنه، فلم يقدروا عليه.

وكان الخضر لا يعرف ما خَصّ الله به من الحياة شاربَ ذلك الماء.

*

(...) اتفق لي أني كنت بمرسى تونس بالحضرة في مركب في البحر، فأخذني وجعٌ في بطني، وأهل المركب قد ناموا،

فقمت إلى جانب السَّفينة، وتطلعت إلى البحر، فرأيت شخصاً على بعدٍ في ضوء القمر، وكانت ليلة البدر، وهو يأتي على وجه الماء، حتّى وصل إليّ، فوقف معي، ورفع قدمه الواحدة واعتمد على الأخرى، فرأيت باطنَها وما أصابَها بَلل.

ثم اعتمد عليها ورفع الأخرى، فكانت كذلك. ثم تكلم معي بكلام كان عنده. ثم سلّم وانصرف، يطلب المنارة على شاطئ البحر، على تَلٍّ بيننا وبينه مسافة تزيد على ميلين،

فقطع تلك المسافة في خطوتين أو ثلاث، فسمعت صوته وهو على ظهر المنارة يسبّح الله.

*

(...) أخذ حصيراً صغيراً كان في محراب المسجد، فبسطه في الهواء على قدر علوّ سبعة أذرع من الأرض، ووقف على الحصير في الهواء يَتَنَفَّل.

فقلت لصاحبي أما تنظر إلى هذا وما فعل بها؟

فقال لي سِر إليه وسَلْهُ. (...)

لما فرغ من صلاته سلمت عليه. فقال:

ما فعلتُ ما رأيتَ إلا في حق هذا المُنكِر، وأشار إلى صاحبي الذي كان ينكر خَرْق العوائد.

رددت وجهي إلى المنكِر، وقلت له: ما تقول؟

فقال: ما بعدَ العين ما يُقال.

*

(...) فمن أرادَ الدُّخولَ على الله، فليترك عقله (...) فإن الله لا يقبل التقييد، والعقلُ تَقْيِيد.

بل له التجلي في كلّ صورة، كما له أنْ يُركِّبَكَ في أيّ صورةٍ شاء. فالحمد لِله الذي ركَّبنا في الصّورة التي لم تقيده، سبحانه، بصورةٍ معينة ولا حصرته فيها، بل جعلت له ما هُوَ لهُ، بِتعريفه أنّه له، وهو تحوّله في الصّور.

*

لابدّ لكلّ طالبٍ ربَّه أن يخلو بنفسه مع ربّه في سرّه، لأنّ الله ما جعلَ للإنسان ظاهراً وباطِناً إلا ليخلوَ مع الله في باطنه، ويشاهده في ظاهره في

أسبابه، بعد أن ينظر إليه في باطنه، حتى يميّزه في عين الأسباب، وإلاّ فلا يعرفه أبداً. (...) فباطِنُ الإنسان بيتُ خلوته.

*

(...) تجرّدتُ عن هيكلي، تجرداً علمياً حالياً، لجهلي بمكانة الحق من هذا الهيكل، وعدم علمي بأنّ لِلّه وجهاً خاصًّاً في كل شيء.

فلمّا صرت عن هذا الهيكل أجنبياً، نظرت إليه (...) لم أرَ فيه من النّور شيئاً.

فسألت عن هذه الظلمة من أين لحقت، فقيل لي:

هذه ظلمة الطبيعة وهي الطبقة الأولى التي تلي بصرَك.

ثم إنّ هذه الطبيعة ما وجدت إلا في المرتبة الثالثة، ففوقها ظلمة السّبب الحادث الممكن، التي وجدت عنها، فهي وجود محدث عن محدث وهي النفس، فهي الظلمة الثانية. (...) فأُشْهِدْتُ النّفس، فرأيت ظلمةً فوق ظلمة،

ثم قيل لي: فوق هذه الظلمة الثانية ظلمة ثالثة وهي السبب الذي وجدت عنه هذه النفس، وهو العقل الأوّل،

فَكُشِفَ لي عنه، فرأيت ظلاماً متراكماً بعضه.

فقلت: ألهذا سبب آخر وجد عنه؟

فقيل لي: لا، بل هذا أوجده الحق لا عن سبب.

فقلت: فما باله مظلماً؟

فقيل لي: هذه الظلمة له ذاتية. وهي ظلمة إمكانه يستمدّها من ظلمة الغيب الذي لا يقع عليه شهود، كما يقع على المغيّب فيه إذا ظهر منه، وفارقه، وصار شهادة.

فمن هذه الظلمات الثلاث، كان الإنسان مِن حيث هو جسم حيوانيّ في بطن أمّه في ظلماتٍ ثلاث: ظلمة الرَّحِم، ظلمة المشيمة، وظلمة البطن. فإذا ولد اندرجت ظلمته فيه، فكان ظاهره نوراً وباطنه ظلمة، فلا يتمكن له المشي في ظلمة باطنه إلا بِسراج العلم.

فلما رأيت هيكلي وظلمته، وعلمت أنّه لو لم يكن له نور بوجهٍ ما، ما صَح نظري إليه ولا إدراكي إيّاه.

فسألت عن النّور الذي أعدَّه، لتعلق رؤيتي به، فقيل لي نور الوجود، به رأيتَه.

فنظرت إليَّ من حيث أنّي راءٍ لتلك الظلمة، فرأيت ظِلّها ينبسط عليَّ، وما رأيت نوري يُزيلها. فتعجبت، فقِيل لي لا يزول عنك ظلام إمكانك، فإنّه نعتٌ ذاتي لك، فإنّك لست بواجب الوجود لذاتك.

فقلت: فمن لي بنورٍ لا ظلمةَ فيه؟

فقيل لي: لا تجده أبداً.

قلت: إذاً، فلا أشاهد مُوجدي أبداً، فإنه النّور المحض، والوجود الخالص.

فقيل لي: لا تشاهده أبداً إلا منك. لا تراه أبداً في صورة واحدة، فلا تحيط به علماً. (...) فلا يعرف إلا من طريق الكشف والشهود. وأمّا بالأدلة النظرية، فلا يُعلم إلا حكمه لا عينه (...) ويُعطيه الشهود رتبة فوق هذا، تُذاق ولا تَنْقال.

*

(...) إنّ الله لمّا أحبَّ أن يُعرف، لم يمكن أن يعرفه إلاّ من هو على صورته،

وما أوجدَ الله على صورته أحداً إلا الإنسان الكامل. (...) فَجَبَر هذا التعريف الإلهي انكساري، وعلمتُ أنّي من الكُمَّل، وأنّي لست بإنسانٍ حيوانٍ فقط. (...) فلمَّا أشهدني نسبَة العالم إليَّ ونسبتي إلى العالم، وميزت بين المرتبتين، وعلمت أنّ العالم كله لولا أنا ما وُجِد، وأنّه بوجودي صحّ المقصود مِن العلم الحادث بالله والوجود الحادث الذي هو على صورة الوجود القديم.

وعلمت أن العلم بالله المُحدث الذي هو على صورة العلم بالله القديم لا يمكن أن يكونَ إلا لمن هو في خلقه على الصّورة، وليس غير الإنسان الكامل، ولهذا سُمّي كاملاً، وأنّه روح العالم، والعالم مسخّرٌ له، علوّه وسفله، وأن الإنسان الحيوان مِن جملة العالم المسخّر له، وأنّه يشبه الإنسان الكامل في الصّورة الظاهرة لا في الباطن.

(...) فأوقفني الحقّ على نسبة الأسماء الإلهية إليّ، لتحصل لي الصّورة المقصودة، فتنطلق عليّ جميع الأسماء الإلهية التي تنطلق عليه تعالى، لا يفوتني منها اسمٌ بوجهٍ من الوجوه.

*

علمنا أنّ لقاء الله لا يكون إلا بالموت،

وعلمنا معنى الموت، فاستعجلناه في الحياة الدنيا، فمتنا في عين حياتِنا عن جميع تَصرفاتِنا وحركاتنا وإراداتِنا: فلما ظهر الموت علينا في حياتنا التي لا زوال لها (...) لقينا الله فلقينا، فكان لنا حكم من يلقاه محباً للقائه. فإذا جاء الموت المعلوم في العامّة، وانكشف عنا غطاء هذا الجسم، لم يتغير علينا حال، ولا زدنا يقيناً على ما كنا عليه.

فما ذقنا إلا الموتة الأولى، وهي التي متناها في حياتِنا الدّنيا.

الفتوح الثلاثة

1 –فتوح العبارة، لا يكون إلا للمحمديّ الكامل من الرّجال.

(...) لا يمكن لصاحب هذا الفتح أن يصوّر كلاماً في نفسه، ويرتِّبه بفكره، ثم ينطق به بعد ذلك.

بل زمانُ نطقهِ هو زمانُ تصوّره لذلك اللفظ الذي يعبّر به عما في نفسه،

فإن قيام ذلك المعنى في نفسه وصورته. وليس الغير صاحب هذا الفتح، هذا الوصف.

ومن علامة صاحب هذا الفتح عند نفسه استصحاب الخشوع، وتوالي الاقشعرار عليه في جسده، بحيث أنه يحسّ بأجزائه قد تفرّقت،

فإن لم يجد ذلك في نفسه، فليعلم أنّه ليس ذلك الرجل المطلوب، ولا هو صاحب هذا الفتح.

وهذا فتح ما رأيت له في عمري في مَن لقيته مِن رجال الله أثراً في أحد. وقد يكون في الزّمان رجال لهم هذا الفتح ولم أَلْقَهم.

غير أنّي منهم بلا شكٍ عندي، ولا ريب.

وإني لأجد مِن قوة الوارد، وازدحام تموّج المعارف في باطني ما أجده، ولا أقدر على إذاعة ما أجده مع القوة التي أعطاني الله على التعبير عنه وإيصاله إلى الأفهام القاصرة، فأحرى ما فوقها مِن الأفهام (...) إن نكتاً وأسراراً إلهيّة، غاب عنها أكثر العارفين، لا يمكننا كشفها لإخوانِنا إلا مشافهةً.

2 –فتوح الحلاوة، هو في الباطن وهو سبب جذب الحق بأعطافه.

فهذه الحلاوة، وإن كانت معنوية، فإنّ أثرها عند صاحبها يُحس به كما يحسّ ببرودة الماء البارد.

وصورة الإحساس بها كصورة الإحساس بكل محسوس. (...) تنزل إلى محل الطعم، فيجدها ذوقاً، ويجد عند حصول هذا الذوق استرخاءً في الأعضاء والمفاصل، وخدراً في الجوارح (...) لا يمكن أن يشبهها لذة من اللذات المحسوسة لأنها غريبة، لكونها معنويّة (...) فما تشبه حلاوة العسل ولا حلاوة الجماع.

3 -فتوح المكاشفة، هو سبب معرفة الحق.

والمكاشفة سبب معرفة الحقّ في الأشياء، والأشياء على الحق كالسّتور، فإذا رفعت وقع الكشف لما وراءها، فكانت المكاشفة. فيرى المكاشف الحق في الأشياء كشفاً. (...) فأعين العامة لا تقع إلا على حكم الأشياء،

والذين لهم فتوح المكاشفة لا تقع أعينهم في الأشياء إلا على الحق.

*

(...) سمعنا الأحجار تذكر الله رؤيةَ عينٍ بلسانٍ ناطق، تسمعه آذاننا منها، وتخاطبنا مخاطبة العارفين بجلال الله، مما ليس يدركه كلّ إنسان.

*

(...) رأينا ذلك عياناً في الدنيا في زمن الأحوال التي كنا فيها، أعني نُطقَ الجوارح.

إذا أراد العبد أن يصرفها في ما لا يجوز شرعاً، تقول له الجارحة:

يا هذا، لا تفعل، لا تجبرني على فعل ما حُجِر عليك فعله، فإنّي شهيدٌ عليك يوم القيامة، فاجعلني شاهداً لكَ لا عليك.

فإذا وقع منه الفعل، تقول الجارحة:

يا رب قد نهيتهُ، كما نهيتَه، فلم يسمع.

اللهم إني أبرأ إليكَ مما وَصَل إليه من مخالفتك بي.

*

مَنْ أُدْرجت النبوة بين جنبيه، وجاءه القرآن فاستقرَّ في صدره، عن ظهر غيب، أُعطي الرؤيةَ مِن خلفه، كما أُعطيها مِن أمامه.

(...) واعلمْ أنّ النّور الذي بين يديك هو النور الذي تقتدي به.

والنور الذي من خلفك هو النور الذي يسعى بين يدي مَن يقتدي بك.

(...) وهذا مقام رأيته نوراً يكاد يكون أكشف من الذي بين يديّ. غيرَ أنّي لمَّا رأيته، زال عني حكم الخلف،

وما رأيت لي ظهراً ولا قفاً،

ولم أفرّق في تلك الرؤية بين جهاتي،

بل كنت مثل الكرة لا أعقل لنفسي جهةً إلا بالفَرْض لا بالوجود.

*

فإن الإنسان لا تسهل عليه شدائد البداية إلاَّ إذا عرف شرف الغاية. ولاسيما إنْ ذاق من ذلك عذوبة الجنى، ووقع منه بموقع المنى. فإذا حَصر البابُ البصر، تَردَّد عيْنُ بصيرة الحكيم فنظر، فاستخرج اللآلئ والدرر. ويعطيه البابُ، عند ذلك، ما فيه من حِكَم روحانية، ونكتٍ ربانية، على قدر نفوذه وفهمه، وقوة عزمه وهَمِّه، واتساع نَفَسه، من أجل غَطْسه في أعماق بحار علمه.

*

(...) عَلِمَ الكليات على الإطلاق. كما علم الجزئيات بإجماعٍ من أهل النظر الصحيح واتفاق.

فهو المريد للكائنات، في عالم الأرض والسماوات. لم تتعلق قدرته بشيءٍ حتى أراده. كما أنه لم يُرِدهُ حتى عَلِمَه. إذ يستحيل في العقل أن يريد ما لا

يَعْلَم، أو يفعل المختار، المتمكن من ترك ذلك الفعل، ما لا يريد. كما يستحيل أن توجد نِسَبُ هذه الحقائق في غير حَيّ. كما يستحيل أن تقوم الصفات بغير ذاتٍ موصوفة بها.

فما في الوجود طاعةٌ ولا عصيان، ولا ربح وخسران،

ولا عبد ولا حُرّ، ولا برد ولا حَرّ،

ولا حياة ولا موت، ولا حصول ولا فَوْت،

ولا نهار ولا ليل، ولا اعتدال ولا مَيْل،

ولا بَرّ ولا بحر، ولا شفع ولا وِتْر،

ولا جوهر ولا عَرَض، ولا صحة ولا مرض،

ولا فرح ولا تَرَح، ولا روح ولا شبح،

ولا ظلام ولا ضياء، ولا أرض ولا سماء،

ولا تركيب ولا تحليل، ولا كثير ولا قليل،

ولا غَداة ولا أصيل، ولا بياض ولا سواد،

ولا رُقاد ولا سُهاد، ولا ظاهر ولا باطن،

ولا متحرّك ولا ساكن، ولا يابس ولا رطب،

ولا قِشْر ولا لُبّ، ولا شيءٌ من هذه النسَب المتضادات منها والمختلفات والمتماثلات، إلا وهو مراد للحق.

وكيف لا يكون مراداً له وهو أوجده؟ فكيف يوجِد المختارُ ما لا يريد؟ لا رادّ لأمره، ولا معقِّب لحكمه.

ما شاءَ كان، وما لم يشأ أن يكون لم يكن.

والعالم معدوم، غير موجود، وإن كان ثابتاً في العلم في عينه. ثم أوجد العالم من غير تفكّر ولا تدبّر، عن جهل أو عدم علم، فيعطيه التفكّر

والتدبّر علم ما جهل. جَلّ وعلا عن ذلك! بل أوجده عن العالم السابق، وتعيين الإرادة المنزَّهة الأزلية، القاضية على العالم بما أوجدته عليه من زمان ومكان، وأكوان وألوان. فلا مريد في الوجود، على الحقيقة، سواه.

وإنه، سبحانه، كما علم فأحكم، وأراد فخصَّص، وقدَّر فأوجد، كذلك سمع ورأى ما تحرّك أو سكن أو نطق في الورى، من العالم الأسفل والأعلى. ولا يحجب سمعَه البعدُ: فهو القريب. ولا يحجب بصرَه القربُ: فهو البعيد. يسمع كلام النَّفْس في النَّفْس، وصوت المماسَّة الخفية عند اللمس. ويرى السواد في الظلام، والماء في الماء. لا يحجبه الامتزاج ولا الظلمات ولا النور.

تكلَّم، سبحانه، لا عن صمت متقدِّم، ولا سكوت متوهَّم، بكلامٍ قديمٍ أزلي، كسائر صفاته: من علمه وإرادته وقدرته من غير حروف ولا أصوات ولا نَغَم ولا لغات. بل هو خالق الأصوات والحروف واللغات.

فكلامه، سبحانه، من غير لهاةٍ ولا لسان.

كما أن سمعه من غير أصمخة ولا آذان.

كما أن بصره من غير حدقة ولا أجفان.

كما أن إرادته من غير قلب ولا جَنَان.

كما أن علمه من غير اضطرار ولا نظر في برهان.

كما أن حياته من غيرِ بخارِ تجويفِ قلبٍ، حَدَثَ عن امتزاج الأركان. كما أن ذاته لا تقبل الزيادة والنقصان.

أكمل صنع العالم وأبدعه، حين أوجده واخترعه. لا شريك له في ملكه، ولا مدبِّر معه في مُلكه.

إن أنعم فَنَعَّمَ: فذلك فضله.

وإنْ أبْلَى فَعَذَّبَ: فذلك عدله.

لم يتصرف في مِلك غيره فيُنْسَبُ إلى الجَور والحَيف. ولا يَتوَجَّهُ عليه لسواه حُكمٌ، فَيتَّصِفُ بالجزع لذلك والخوف.

فهو الملهم نفوس المكلَّفين التقوى والفجور. وهو المتجاوز عن سيئات من شاء، والآخذُ بها من شاء، هنا وفي يوم النشور: لا يَحْكُمُ عَدلُه في فضله، ولا فضلُه في عدله.

أخرج العالم قَبْضَتَيْن. وأوجد لهم منزلتين. فقال: «هؤلاء للجنة، ولا أُبالي! وهؤلاء للنار، ولا أُبالي!» ولم يعترض معترضٌ هناك. إذ لا موجود، كان ثَمَّ، سواه. فالكل تحت تصريف أسمائه: فقبضةٌ تحت أسماءِ بلائه، وقبضةٌ تحت أسماءِ آلائه.

ولو أراد، سبحانه، أن يكون العالم سعيداً لكان. أو شقيّاً لَمَا كان، من ذلك، في شان. لكنه، سبحانه، لم يُردْ: فكان كما أراد. فمنهم الشقيّ والسعيد، هنا وفي يوم المعاد. فلا سبيل إلى تبديل ما حَكَمَ عليه القديمُ.

وذلك لحقيقة عميت عنها الأبصار والبصائر. ولم تعثر عليها الأفكار ولا الضمائر.

*

الجسوم الإنسانية وأنواعها

وهي أربعة أنواع: جسم آدم، وجسم حواء، وجسم عيسى، وأجسام بني آدم. وكل جسم من هذه الأربعة، نِشْؤه يخالف نشْء الجسم الآخر في السببية، مع الاجتماع في الصورة الجسمانية والروحانية. وإنما سقنا هذا ونبهنا عليه لئلا يتوهم الضعيف العقل أن القدرة الإلهية، أو أن الحقائق لا تعطي أن تكون هذه النشأة الإنسانية إلا عن سبب واحد، يعطي بذاته

النشء. فردّ الله هذه الشبهة بأن أظهر هذا النشء الإنساني في آدم بطريق لم يظهر به جسم حواء؛ وأظهر جسم حواء بطريق لم يظهر به جسم آدم؛ وأظهر جسم أولاد آدم بطريق لم يظهر به جسم عيسى.

*

جسم آدم وجسم حواء

ولَمَّا ظهر جسم آدم، فيه شهوة نكاح؛ وكان قد سبق في علم الحق إيجاد التوالد والتناسل والنكاح في هذه الدار، والنكاح في هذه الدار إنما هو لبقاء النوع، فاستخرج، من ضِلْع آدم القُصيْري، حواءَ. فقَصُرَت المرأة بذلك عن درجة الرجل كما قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾*. وكانت حواء من الضِلْع للانحناء الذي في الضلوع، لتحنو بذلك على ولدها وزوجها. فحنوّ الرجل على المرأة، حنوُّه على نفسه، لأنها جزء منه؛ وحنوّ المرأة على الرجل لكونها خلقت من الضِلْع، والضِلْع فيه انحناء وانعطاف.

*

... وحب آدم وحب حواء

وعَمَر الله الموضع من آدم، الذي خرجت منه حواء، بالشهوة إليها، إذ لا يبقى في الوجود خلاء. فلما عمره بالهواء، حنَّ آدم إليها، حنينه إلى نفسه، لأنها جزء منه؛ وحنَّت حواء إليه. لكونه أي آدم موطنها الذي نشأت فيه. فحب حواء هو حب الموطن، وحب آدم هو حب نفسه. ولذلك يظْهر حب الرجل للمرأة، إذ كانت عينه. وأعطيت المرأة القوة المعبَّر عنها بالحياء في محبة الرجال، فقويت على الإخفاء، لأن الموطن لا يتحد بها، اتحاد آدم بها.

---

* سورة البقرة، آية: 228.

فصوَّر الحق، في ذلك الضلْع، جميع ما صوّره وخلقه في جسم آدم. فكان نشء جسم آدم، في صورته، كنشء الفاخوريّ في ما ينشئه من الطين والطبخ. وكان نشء جسم حواء نشء النجار في ما ينحته من الصور في الخشب. فلما نحتها في الضِلْع، وأقام صورتها، وسوّاها، وعدَّلها نفخ فيها من روحه. فقامت حواء حية، ناطقة، أنثى، ليجعلها محلاً للزراعة والحرث لوجود الإنبات الذي هو التناسل. فسكن آدم إليها، وسكنت إليه. وكانت «لباساً له، وكان لباساً لها». قال تعالى! ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾*. وسرت الشهوة منه في جميع أجزائه، فطلبها.

*

تكوين الجسم الثالث

فلمَّا تَغشَّاها آدم، وألقى الماء في الرحم، ودار بتلك النطفة من الماء دمُ الحيض الذي كتبه الله على النساء، تكوَّن في ذلك الجسم جسمٌ ثالث على غير ما تكوَّن منه جسم آدم وجسم حواء. فهذا هو الجسم الثالث، فتولاه الله بالنشء في الرحم حالاً بعد حال: بالانتقال من ماء، الى نطفة، إلى علقة، الى مضغة، الى عظم، ثم كسا الله العظم لحماً. فلما أتم الله نشأته الحيوانية، أنشأه خلقاً آخر: فنفخ فيه الروح الإنساني ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾**.

*

تكوين جسم عيسى

ولمَّا قال أهل الطبيعة: إن ماء المرأة لا يتكوَّن منه شيء؛ وإن الجنين الكائن في الرحم إنما هو من ماء الرجل؛ لذلك جعلنا تكوين جسم عيسى

---

* البقرة، آية: 187.

** المؤمنون، آية: 14.

تكويناً آخر، وإن كان تدبيره في الرحم تدبيرَ أجسام البنين. فإن كان تكوين جسم عيسى من ماء المرأة إذ تمثل لها الروح بشراً سوياً؛ أو كان عن نفخ بغير ماء؛ فعلى كلِّ وجهٍ، هو أعني جسم عيسى جسمٌ رابع، مغاير في النشء غيره من أجسام النوع. ولذلك قال تعالى!: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى﴾*، أي صفة نشء عيسى، ﴿عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾**، الضمير يعود على آدم، ووقع الشبه في خلقه من غير أب؛ أي صفة نشئه عيسى، صفةُ نشء آدم. إلا أن آدم خلقه من تراب، ثم قال له: كن!

ثم إن عيسى، على ما قيل، لم يلبث في بطن أمه لبث البنين المعتاد؛ لأنه أسرع إليه التكوين، لَمَا أراد الله أن يجعله آية (للناس)، ويرد به على الطبيعيين حيث حكموا على الطبيعة بما أعطتهم من العادة، لا بما تقتضيه مما أودع الله فيها من الأسرار والتكوينات العجيبة. ولقد أنصف بعض حذّاق هذا الشأن الطبيعةَ فقال: «لا نعلم منها إلا ما أعطتنا خاصة، وفيها ما لا نعلم».

*

الإنسان في الأرض نظير العقل في السماء

(...) ذكرنا ابتداء الجسوم الإنسانية، وأنها أربعة أجسام، مختلفة النشء، وأنه، أعني الإنسان، آخر المولدات. فهو نظير العقل، وبه ارتبط. لأن الوجود دائرة، فكان ابتداء الدائرة وجود العقل الأول، الذي ورد في الخبر أنه: «أول ما خلق الله العقل». فهو أول الأجناس؛ وانتهى الخلق إلى الجنس الإنساني. فكملت الدائرة؛ واتصل الإنسان بالعقل؛ كما يتصل آخر

---

* سورة آل عمران، آية 59.

** سورة آل عمران، آية 59.

الدائرة بأولها، فكانت دائرة. وما بين طرفي الدائرة جميعُ ما خلق الله من أجناس العالَم، بين العقل الأول، الذي هو القلم أيضاً. وبين الإنسان الذي هو الموجود الآخر.

ولمَّا كانت الخطوط الخارجة من النقطة، التي في وسط الدائرة، إلى المحيط الذي وجد عنها، تخرج على السواء لكل جزء من المحيط: كذلك نسبة الحق تعالى! إلى جميع الموجودات هي نسبة واحدة، فلا يقع هناك تغيير البتة. وكانت الأشياء كلها ناظرة إليه وقابلة منه ما يهبها كنظر أجزاء المحيط إلى النقطة.

وأقام، سبحانه، هذه الصورة الإنسانية بالحركة المستقيمة، كصورة العَمَد الذي للخيمة، فجعله عَمَداً لقبة هذه السماوات؛ فهو، سبحانه، يُمسكها أن تزول بسببه. فعبَّرنا عنه أي عن الإنسان بالعَمد. فإذا فنيت هذه الصورة الإنسانية، ولم يبق منها على وجه الأرض متنفس، ﴿انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فهي يومئذ واهية﴾*. لأن العمد زال، وهو الإنسان.

ولما انتقلت العِمارة إلى الدار الآخرة بانتقال الإنسان إليها؛ وخرجت الدنيا بانتقاله عنها؛ علمنا قطعاً أن الإنسان هو العين المقصود لله من العالَم، وأنه الخليفة حقاً، وأنه محلّ ظهور الأسماء الإلهية. وهو الجامع لحقائق العالم كله: من ملك وفلك وروح وجسم وطبيعة وجماد وحيوان. هذا، بالإضافة الى ما خُصَّ به من علم الأسماء الإلهية، مع صغر حجمه وجِرمه. وإنما قال الله فيه بأن «خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس» لكون الإنسان متولداً عن السماء والأرض؛ فهما له كالأبوين، فرفع الله مقدارها لأجله ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾**. فلم يُرد الحق الكِبرَ في الجرمية، «فإن ذلك معلوم حِساً».

---

* سورة الحاقّة، آية: 69.

** سورة الأعراف، آية: 7.

غير أن الله، تعالى، ابتلاه أي الإنسان ببلاء ما ابتلى به أحداً من خلقه، إمّا لأن يُسعده أو لأن يُشقيه، على حسب ما يوفقه الى استعماله. فكان البلاء الذي ابتلاه الله به أن خلق فيه قوة تسمى الفكر؛ وجعل هذه القوة خادمة لقوة أخرى تسمى العقل. وجبر الله العقل، مع سيادته على الفكر، أن يأخذ منه ما يعطيه. ولم يجعل الله للفكر مجالاً إلا في القوة الخيالية. وجعل، سبحانه، القوة الخيالية محلاً جامعاً لما تعطيها القوة الحسَّاسة. وجعل له قوة يقال لها: المصورة، فلا يحصل في القوة الخيالية شيء إلا ما أعطاه الحس، أو أعطته القوة المصورة. ومادة المصورة من المحسوسات، فتركب صوراً لم يوجد لها عين، لكنْ أجزاؤها كلها موجودة حسَّاً.

وذلك لأن العقل خُلق ساذجاً، ليس عنده من العلوم النظرية شيء، وقيل للفكر: مَيِّزْ بين الحق والباطل الذي هو في هذه القوة الخيالية. فينظر الفكر بحسب ما يقع له؛ فقد يَحْصُلُ في شبهة، وقد يحصل في دليل عن غير علم منه بذلك. ولكن في زعمه أنه عالم بصور الشُّبَه من الأدلة، وأنه قد حَصَل على علم؛ ولم ينظر إلى قصور المواد التي استند إليها في اقتناء العلوم. فيقبلها العقل منه، ويحكم بها: فيكون جهله أكثر من علمه بما لا يتقارب!

ثم إن الله كلَّف هذا العقل معرفته، سبحانه، ليرجع إليه فيها، لا إلى غيره. ففهم العقل نقيض ما أراد به الحق بقوله، تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا؟﴾*، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**. فاستند إلى الفكر، وجعله إماماً يقتدى به، وغفل عن

---

* سورة الروم، آية:8.

** سورة يونس، آية:24.

الحق في مراده بالتفكر: إنه خاطبه أن يتفكر، فيرى أن علمه بالله لا سبيل إليه إلا بتعريف الله! فَيَكْشِف له عن الأمر على ما هو عليه. فلم يفهم كل عقل هذا الفهم، إلا عقولُ خاصة الله، من أنبيائه وأوليائه.

يا ليت شعري! هل بأفكارهم «قالوا: بلى!» حين أشهدهم الحق على أنفسهم في «قبضة الذرية» من ظهر آدم؟ لا، والله! بل عناية من الله إشهادُه إياهم ذلك، عند أخذه إياهم عنهم من ظهورهم. ولكن لمَّا رجعوا إلى الأخذ عن قواهم المفكرة في معرفة الله، لم يجتمعوا فقط على حكم واحد في معرفة الله، وذهبت كل طائفة إلى مذهب. وكثرت القالة في الجناب الإلهي. واجترؤا، أي أصحاب الفكر، الآخذون عن أفكارهم لا عن الله غاية الجرأة على الله . وهذا كله من الابتلاء الذي ذكرناه، من خلقه الفكر في الإنسان.

وأمّا أهل الله فقد افتقروا إليه في ما كلّفهم من الإيمان بهِ في معرفته. وعلموا أن المراد منهم هو رجوعهم إليه.

فرجعوا إلى الله في المعرفة به، وتركوا الفكر في مرتبته ووفوه حقه: لم ينقلوه إلى ما لا ينبغي له التفكر فيه. وقد ورد النهي عن التفكر في ذات الله. والله يقول: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾*. فوهبهم الله من معرفته ما وهبهم، وأشهدهم من مخلوقاته ومظاهره ما أشهدهم. فعلموا أنَّ ما يستحيل عقلاً من طريق الفكر، لا يستحيل نسبةً إلهية.

*

---

* سورة آل عمران، آية 28.

في معرفة الأرض التي خُلقت
من بقية خميرة طينة آدم

اعلمْ أن الله، تعالى، لمَّا خلق آدم الذي هو أول جسم إنساني تكوَّن، وجعله أصلاً لوجود الأجسام الإنسانية؛ وفضلت من خميرة طينته فضلةٌ خَلَق منها النخلة؛ فهي أخت لآدم، وهي لنا عَمَّة! وسماها الشرع «عَمَّة» وشبَّهها بـ «المؤمن». ولها أسرار عجيبة دون سائر النبات. وفضل من الطينة، بعد خلق النخلة، قدرُ السَّمْسِمَة في الخفاء، فمدَّ الله في تلك الفضلة أرضاً واسعة الفضاء، إذا جُعِل العرش وما حواه والكرسي والسماوات والأرضون وما تحت الثرى والجناتُ كلها والنار، في هذه الأرض: كان الجميع فيها كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض! وفيها من العجائب والغرائب مالا يُقْدَر قدره، وَيَبْهَرُ العقول أمْرُه، وفي كل نَفَس خَلَقَ الله فيها عوالم.

وفي هذه الأرض ظهرت عظمة الله، وعَظُمت، عند المشاهِد لها، قدرتُه. وكثير من المحالات العقلية، التي قام الدليل الصحيح العقلي على إحالتها، هي موجودة في هذه الأرض. وهي مسرح عيون العارفين، العلماء بالله؛ وفيها يجولون. وخلق الله من جملة عوالمها عالَماً على صورنا، إذا أبصرهم العارف يشاهد نفسه فيها.

*

مجلس الرحمة في أرض الحقيقة

فلنرجع إلى ذكر هذه الأرض واتساعها، وكثرة عالَمها المخلوقين فيها ومنها، وما يقع للعارفين فيها من تجليات إلهية. أخبر بعض العارفين بأمر أعرفه شهوداً، قال: دخلت فيها يوماً مجلساً يسمى مجلس الرحمة لم أر مجلساً قط أعجب منه. فبينا أنا فيه، إذ ظهر لي تجلّ إلهي، لم يأخذني عني، بل أبقاني معي. وهذا من خاصية هذه الأرض. فإن التجليات الواردة

على العارفين في هذه الدار، في هذه الهياكل، تأخذهم عنهم وتفنيهم عن شهودهم، من الأنبياء والأولياء، وكل من وقع له ذلك. وكذلك عالم السماوات العلى والكرسي الأزهى وعالَم العرش المحيط الأعلى، إذا وقع لهم تجلٍّ إلهي أخذهم عنهم وصَعِقُوا. وهذه الأرض، إذا حَصَل فيها صاحبُ الكشف، العارفُ، ووقع له تجلٍّ، لم يفنه عن شهوده، ولا اختطفه عن وجوده، وجُمِع له بين الرؤية والكلام.

*

مراسم الدخول في أرض الحقيقة

(...) وفي تلك الأرض، صورٌ عجيبة النشء، بديعة الخلق، قائمون على أفواه نواصي السِكك المشرفة على هذا العالَم الذي نحن فيه، من الأرض والسماء والجنة والنار. فإذا أراد واحد منا الدخول لتلك الأرض، من العارفين، من أيّ نوع كان: من إنس أو جنّ أو مَلَك، أو أهل الجنة بشرط المعرفة وتَجَرَّدَ عن هيكله، وجد تلك الصور على أفواه السِكك، قائمين موكَّلين بها، قد نصبهم الله سبحانه! لذلك الشغل. فيبادر واحد منهم إلى هذا الداخل، فيخلع عليه حُلَّة على قدر مقامه، ويأخذ بيده، ويجول به في تلك الأرض. ولا يمر بحجر ولا شجر ولا مَدَر ولا شيء. ويريد أن يكلمه، إلاَ كلَّمهُ كما يكلِّم الرجلُ صَاحبه. ولهم لغات مختلفة.

وتعطي هذه الأرض بالخاصية لكل من دخلها الفهم بجميع ما فيها من الألسنة. فإذا قضى منها العارفُ وطره، وأراد الرجوع إلى موضعه، مشى معه رفيقه إلى أن يوصله إلى الموضع الذي دخل منه. يوادعه، ويخلع عنه تلك الحُلَّة التي كساه، وينصرف عنه.

*

حكاية الشيخ أوحد الدين الكرماني مع شيخه

وقد ظهر عندنا، في هذه الدار وهذه النشأة، ما يعضد هذا القول. فمن ذلك ما شاهدناه ولا أذكره. ومنها ما حدثني أوحد الدين حامد ابن أبي الفخر الكرماني قال: كنت أخدم شيخاً وأنا شاب. فمرض الشيخ، وكان في مَحارة، وقد أخذه البَطْن. فلما وصلنا تكريت قلت له: يا سيدي، اتركني أطلب لك دواءً ممسكاً من صاحب مارستان سِنْجار من السبيل. فلما رأى احتراقي قال: رُحْ إليه!

قال: فرحت إلى صاحب السبيل وهو، في خيمته، جالس، ورجاله بين يديه قائمون، والشمعة بين يديه. وكان لا يعرفني ولا أعرفه. فرآني واقفاً بين الجماعة. فقام إليّ، وأخذ بيدي، وأكرمني. وسألني: ما حاجتك؟ فذكرت له حال الشيخ. فاستحضر الدواء، وأعطاني إياه، وخرج معي في خدمتي، والخادم بالشمعة بين يديه فخفت أن يراه الشيخ فَيَخْرُج. فحلفت عليه أن يرجع، فرجع.

فجئت الشيخ وأعطيته الدواء، وذكرت له كرامة الأمير، صاحب السبيل، بي. فتبسم الشيخ وقال لي: يا ولدي، إني أشفقت عليك لِما رأيت من احتراقك من أجلي، فأذنت لك. فلمَّا مشيتَ خفتُ أن يخجلك الأمير بعدم إقباله عليك. فتجردت عن هيكلي هذا، ودخلت في هيكل ذلك الأمير، وقعدت في موضعه. فلما جئتَ أكرمتُك، وفعلتُ معك ما رأيت. ثم عدتُ إلى هيكلي هذا. ولا حاجة لي في هذا الدواء، وما أستعمله. فهذا شخص قد ظهر في صورة غيره، فكيف أهل تلك الأرض؟

*

تربة أرض الحقيقة وثمرها

قال لي بعض العارفين: لَمَّا دخلت هذه الأرض، رأيت فيها أرضاً كلها مسك عطر؛ لو شمَّه أحد منّا في هذه الدنيا لهلك لقوة رائحته. تمتد رائحته ما شاء الله أن تمتد. ودخلت في هذه الأرض أرضاً من الذهَب الأحمر اللين، فيها أشجار كلها من ذهب، وثمرها ذهب. فيأخذ الإنسان التفاحة، أو غيرها من الثمر، فيأكلها فيجد من لذة طعمها وحسن رائحتها ونَعْمتها ما لا يصفها واصف، تقصر فاكهة الجنة عنها: فكيف فاكهة الدنيا؟ والجسم والشكل والصورة ذهب. والصورة والشكل كصورة الثمرة وشكلها عندنا، وتختلف في الطعم. وفي الثمرة من النقش البديع والزينة الحسنة ما لا تتوهمه نفس.

ورأيت من كبر ثمرها بحيث لو جعلت الثمرة بين السماء والأرض، لحجبت أهل الأرض عن رؤية السماء، ولو جُعِلت على الأرض لفضلت عليها أضعافاً؛ وإذا قبض عليها الذي يريد أكلها، بهذه اليد المعهودة في القدر، عَمَّها بقبضته لِنَعْمتها. هي ألطف من الهواء. يُطبق الرجل عليها يده، مع هذا العظم! وهذا بما تحيله العقول هنا في نظرها. ولَمّا شاهدها ذو النون المصري، نطق بما حُكِي عنه من إيراد الكبير على الصغير، من غير أن يُصغَّر الكبير، أو يُكَبَّر الصغير، أو يُوسَّع الضيِّق، أو يُضَيَّق الواسع. فالعِظَم في التفاحة، على ما ذكرته، باقٍ، والقبض عليها باليد الصغيرة، والإحاطة بها، موجودٌ؛ والكيفيةُ مشهودة مجهولة، لا يعرفها إلا الله. وهذا العلم مما انفرد الحق به. واليوم الواحد الزماني عندنا هو عدة سنين عندهم. وأزمنة تلك الأرض مختلفة.

قال: ودخلت فيها أرضاً من فضة بيضاء في الصورة، ذات شجر وأنهار وثمر شهي. كل ذلك فضة، وأجسام أهلها منها كلُّها فضة. وكذلك كل

أرض: شجرها وثمرها وأنهارها وبحارها وخلقها من جنسها. فإذا تُنُوولت ثمارها وأكلت وجد فيها، من الطعم والروائح والنَّعْمة، مِثْلُ سائر المأكولات، غير أن اللذة لا توصف. ودخلت فيها أرضاً من الكافور الأبيض. وهي، في أماكن منها، أشدُّ حرارةً من النار، يخوضها الإنسان ولا تحرقه؛ وأماكن منها معتدلة، وأماكن باردة. وكل أرض من هذه الأرضين، التي هي أماكن في هذه الأرض الكبيرة، لو جعلت السماء فيها لكانت كحلقة في فلاة، بالنسبة إليها. وما في جميع أراضيها أحسنُ عندي، ولا أوفق لمزاجي من أرض الزعفران. وما رأيت عالَماً من عالَم كل أرض أبسطَ نفوساً منهم، ولا أكثر بشاشةً بالوارد عليهم، يَتَلَقَّوْنه بالترحيب والتأهيل.

ومن عجائب مطعوماتها، أنَّ أيَّ شيء أكلت منها، إذا قطَعتَ من الثمرة قطعة نبتت، في زمان قطعك إياها مكانها، ما سدّ تلك الثلمة. أو تَقْطِفُ بيدك ثمرة من ثمرها، فزمان قطفك إياها يتكون منها مثلها، بحيث لا يشعر بها إلا الفطن؛ فلا يظهر فيها نقص أصلاً.

*

نساء أرض الحقيقة
وبحارها ومواكبها

وإذا نظرت إلى نسائها، ترى أن النساء الكائنات في الجنة من الحور، بالنسبة إليهن، كنسائنا من البشر بالنسبة إلى الحور في الجنان. وأما مجامعتهن فلا يشبه لذَّتَها لذةٌ. وأهلها أعشق الخلق في من يرد عليهم. وليس عندهم تكليف. بل هم مجبولون على تعظيم الحق وجلاله. ولو راموا خلاف ذلك ما استطاعوا.

وأما أبنيتهم فمنها ما يحدث عن هِمَمهم؛ ومنها ما يحدث كما تُبْنَى عندنا (الأبنية) من اتخاذ الآلات وحسن الصنعة.

ثم إن بحارها لا يمتزج بعضها ببعض، كما قال تعالى: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ﴾*. فتعاين منتهى بحر الذهب تصطفق أمواجه، ويباشره بالمجاورة بحر الحديد: فلا يدخل من واحد في الآخر شيء. وماؤهم ألطف من الهواء، في الحركة والسيلان، وهو، من الصفاء، بحيث لا يخفى عنك من دوابه، ولا من الأرض التي يجري البحر عليها، شيء. فإذا أردت أن تشرب منه وجدت له من اللذة مالا تجده لمشروب أصلاً.

وخلقها ينبتون فيها كسائر النباتات، من غير تناسل، بل يتكوَّنون من أرضها تكوُّنَ الحشرات عندنا. ولا ينعقد، من مائهم، في نكاحهم، ولد. وإن نكاحهم إنما هو لمجرد الشهوة والنعيم.

وأما مراكبهم فتعظم وتصغر، بحسب ما يريده الراكب. وإذا سافروا من بلد إلى بلد، فإنهم يسافرون براً وبحراً. وسرعة مشيهم في البر والبحر أسرع من إدراكِ البصر للمُبْصَر.

وخلقها متفاوتون في الأحوال: ففيهم من تغلب عليهم الشهوات؛ وفيهم من يغلب عليه تعظيم جناب الحق. ورأيت فيها ألواناً لا أعرفها في ألوان الدنيا. ورأيت فيها معادن تشبه الذهب. وما هي بذهب ولا نحاس. ورأيت فيها أحجاراً من اللآلئ ينفذها البصر لصفائها، شَفَّافةً، من اليواقيت.

*

عجائب أرض الحقيقة

ومن أعجب ما فيها إدراك الألوان في الأجسام السفلية التي هي كالهواء. ويتعلق الإدراك بألوانها كما يتعلق بالألوان التي في الأجسام الكثيفة. وعلى

---

* سورة الرحمن، آية: 19، 20.

أبواب مدائنها عقود الأحجار الياقوتية، كل حجر منها يزيد على الخمس مائة ذراع. وعلو الباب في الهواء عظيم. وعليه معلّق من الأسلحة والعُدَد ما لو اجتمع مُلْك الأرض كلّها ما وَفَّى بها.

وعندهم ظلمة ونور من غير شمس تتعاقب، وبتعاقبهما يعرفون الزمان. وظلمتهم لا تحجب البصر عن مُدْرَكه، كما لا يحجبه النور. ويغزو بعضهم بعضاً من غير شحناء ولا عداوة ولا فسادِ نيّة. وإذا سافروا في البحر وغرقوا، لا يعدو عليهم الماء كما يعدو علينا، بل يمشون فيه كمشي دوابه، حتى يلحقوا بالساحل. وتحلّ بتلك الأرض زلازل، لو حلّت بنا لانقلبت الأرض، وهلك ما كان عليها.

وقال: لقد كنت يوماً مع جماعة منهم. وجاءت زلزلة شديدة بحيث إني رأيت الأبنية تتحرك كلها تحركاً لا يقدر البصر أن يتمكن من رؤيتها، لسرعة الحركة مروراً وكروراً، وما عندنا خبر بهذا كله؛ وكأنّا، على الأرض، قطعةٌ منها، إلى أن فرغت الزلزلة. فلمَّا فرغت، وسكنت الأرض، أخذت الجماعة بيدي، وعَزَّتْني في ابنة لي اسمها فاطمة. فقلت للجماعة: إني تركتها في عافية عند والدتها. قالوا: صدقت! ولكن هذه الأرض ما تزلزل بنا، وعندنا أحد، إلاّ مات ذلك الشخص، أو مات له أحد، وإن هذه الزلزلة لموت ابنتك. فانظر في أمرها.

فقعدت معهم ما شاء الله، وصاحبي ينتظرني. فلمَّا أردت فراقهم مشوا معي إلى فم السِّكَّة. وأخذوا خِلْعتهم، وجئت إلى بيتي. فلقيت صاحبي، فقال لي: إن فاطمة تنازع، فدخلت عليها، فقضت. وكنت مجاوراً بمكة. فجهزناها ودفناها بالْمَعْلَى. فهذا من أعجب ما أُخبرتُ به عن تلك الأرض.

قال: ورأيت بها كعبة يطوف بها أهلها، غير مكسوَّة؛ تكون أكبر من البيت الذي بمكة، ذات أركان أربعة. تكلمهم إذا طافوا بها، وتحييهم، وتفيدهم علوماً لم تكن عندهم.

ورأيت في هذه الأرض بحراً من تراب، يجري مثل ما يجري الماء. ورأيت حجارة صغاراً وكباراً، يجري بعضها إلى بعض كما يجري الحديد إلى المغناطيس، فتتألف هذه، ولا ينفصل بعضها من بعض بطبعه، إلاَّ إن فصلها فاصل مثل ما يُفْصَل الحديد عن المغناطيس، ليس في قوته أن يمتنع. فإذا تُركت حجارة هذه الأرض وَطَبْعَها، جرى بعضها إلى بعض، على مقدار، من المساحة، مخصوص، فَتُضَمُّ هذه الحجارة، بعضُها إلى بعض، فينشأ منها صورة سفينة.

ورأيت منها مركباً صغيراً وشينيين فإذا التأمت السفينة أو الشِّيني من تلك الحجارة، رموا بها في بحر التراب وركبوا فيها وسافروا حيث يشتهون من البلاد. غير أن قاع السفينة من رمل أو تراب، يَلْصَق بعضه ببعض لصوق الخاصية. فما رأيت، في ما رأيت، أعجب من جريان هذه السفن في ذلك البحر. وصورة الإنشاء، في المراكب، سواء. غير أن لهم في جناحي السفينة، مما يلي مؤخرها، أسطوانتين عظيمتين، تعلو المركب أكثر من القامة. وأرض المركب، من جهة مؤخره، ما بين الأسطوانتين، مفتوحٌ، متساوٍ مع البحر؛ ولا يدخل فيه من رمل ذلك البحر شيء أصلاً بالخاصية.

*

مدائن أرض الحقيقة

وفي هذه الأرض مدائن تسمى مدائن النور، لا يدخلها من العارفين إلاَّ كل مصطفى مختار. وهي ثلاث عشرة مدينة، وما هي على سطح واحد؛ وبنيانها عجيب. وذلك أنهم عمدوا إلى موضع في هذه الأرض، فبنوا فيه مدينة صغيرة لها أسوار عظيمة، يسير الراكب فيها، إذا أراد أن يدور بها،

مسيرة ثلاثة أعوام. فلما أقاموها جعلوها خزانة لمنافعهم ومصالحهم وعُددهم. وأقاموا على بعد، من جوانبها، أبراجاً تعلو على أبراج المدينة مما دار بها؛ ومدوا البناء بالحجارة حتى صار للمدينة كالسقف للبيت. وجعلوا ذلك السقف أرضاً بنوا عليه مدينة أعظم من التي بنوا أولاً، وعَمَروها واتخذوها مسكناً. فضاقت عنهم، فبنوا عليها مدينة أخرى أكبر منها. وما زال يكثر عُمَّارها. وهم يصعدون بالبنيان طبقة فوق أخرى، حتى بلغت ثلاث عشرة مدينة.

*

ملوك أرض الحقيقة

ثم إني غبت عنهم مدة. ثم دخلت إليهم مرة أخرى. فوجدتهم قد زادوا مدينتين، واحدةً فوق أخرى. ولهم ملوك فيهم لطف وحنان. صحبت منهم جماعة. منهم التالي وهو التابع. بمنزلة الْقَيْل في حِمْيرَ. ولم أر ملكاً أكثر منه ذكراً لله قد شغله ذكر الله عن تدبير ملكه. انتفعت به. وكان كثير المجالسة لي. ومنهم ذو العُرْف. وهو ملك عظيم. لم أر في ملوك الأرض أكثر من تأتي إليه الرسل من الملوك، منه. وهو كثير الحركة. هيّن. ليّن. يصل إليه كل أحد. يتلطف في النزول. لكنه إذا غضب لم يقم لغضبه شيء. أعطاه الله من القوة ما شاء.

ورأيت لبحرها ملكاً منيع الحمى يسمى السابح. هو قليل المجالسة مع من يقصد إليه. وماله ذلك الالتفاتُ الى أحد. غير أنه مع ما يخطر له، لا مع ما يراد منه. ويجاوره سلطان عظيم، اسمه السابق. إذا دخل عليه الوافد، قام إليه من مجلسه، وبَشَّ في وجهه، وأظهر السرور بقدومه، وقام له بجميع ما يحتاج إليه من قبل أن يسأله عن شيء. فقلت له ما السبب

في ذلك؟ فقال لي: أكره أن أرى في وجه السائل ذِلة السؤال لمخلوق، غَيْرة أن يَذِلَّ أحد لغير الله. وما كل أحد يقف مع الله على قدم التوحيد. وإن أكثر الوجوه مصروفة إلى الأسباب الموضوعة، مع الحجاب عن الله. فهذا يجعلني أبادر إلى ما ترى من كرامة الوافد.

ودخلت على ملك آخر يدعى القائم بأمر الله. لا يلتفت إلى الوافد عليه لاستيلاء عظمة الحق على قلبه. فلا يشعر بالوافد. وما يفد عليه، من يفد عليه من العارفين، إلاَّ لينظروا إلى حاله التي هو عليها. تراه واقفاً، قد عقد يديه الى صدره، عقد العبد الذليل الجاني، مطرقاً إلى موضع قدميه؛ لا تتحرك منه شعرة، ولا يضطرب منه مَفْصِل.

ورأيت ملكاً يدعى بالرادع. مهيب المنظر، لطيف المخبر، شديد الغَيْرة. دائم الفكرة في ما كلف النظر فيه. إذا رأى أحداً يخرج عن طريق الحق، ردَّه إلى الحق. صحبته، وانتفعت به، وجالست من ملوكهم كثيراً، ورأيت منهم من العجائب، مما يرجع إلى ما عندهم من تعظيم الله، ممّا لو سطرناه لأعيا الكاتب والسامع. فاقتصرنا على هذا القدر من عجائب هذه الأرض. ومدائنها لا تحصى كثرة. ومدائنها أكثر من ضياعها. وجميع من يملكها من الملوك ثمانية عشر سلطاناً. منهم من ذكرناه، ومنهم من سكتنا عنه. ولكل، سلطان سيرةٌ وأحكام ليست لغيره.

*

ترتيب مملكة أرض الحقيقة

وحضرت يوماً في ديوانهم لأرى ترتيبهم. فمما رأيت أن الملك منهم هو الذي يقوم برزق رعيته، بلغوا ما بلغوا. فرأيتهم إذا استوى الطعام، وقف خلق لا يحصى عددهم كثرة، يسمونهم الجباة، وهم رُسل كل بيت. فيعطيه الأمين من المطبخ على قدر عائلته، ويأخذه الجاني وينصرف.

وأما الذي يقسمه أي يقسم رزق الرعية عليهم، فهو شخص واحد لا غير، له من الأيدي على قدر الجباة. فيغرف في الزمن الواحد لكل شخص طعامه في وعائه وينصرف؛ وما فضل من ذلك الطعام يرفع إلى خزانة. فإذا فرغ منهم ذلك القاسم، دخل الخزانة وأخذ ما فضل من الطعام وخرج به إلى الصعاليك الذين على باب دار المَلِك، فيلقيه إليهم، فيأكلوه. وهكذا في كل يوم.

ولكل ملك، شخصٌ حسن الهيئة، هو قائم على الخزانة، يدعونه الخازن، بيده جميع ما يملكه ذلك الملِك. ومن شرعهم، أنه إذا وَلاَّه الملِك أي إذا وَلَّى الخازنَ ليس له عزله. أي ليس للملك عزل الخازن بعد توليته. ورأيت فيهم شخصاً أعجبتني حركاته، وهو جالس إلى جانب الملِك، وكنت على يمين الملك. فسألته: ما منزلة هذا عندكم؟ فتبسم وقال: أعجبك؟ قلت له: نعم! قال: هذا المِعْمار الذي يبني لنا المساكن والمدن، وجميع ما تراه من آثار عمله. ورأيت في سوق صيارفهم أنه لا يَنْتَقِد لهم سِكَّتهم إلا واحد في المدينة كلها، وفيما تحت يد ذلك الملِك من المدن.

*

المستحيل في دار الدنيا
جائز واقع في أرض الحقيقة

وهكذا رأيت سيرتهم في كل أمر: لا يقوم به إلا واحد، لكن له وَزَعَة. وأهل هذه الأرض أرض الحقيقة أعرف الناس بالله. وكلُّ ما أحاله العقل، بدليله عندنا، وجدناه في هذه الأرض أرض الحقيقة ممكناً قد وقع. فعلمنا أن العقول قاصرة، وأن الله قادر على جمع الضدين، ووجود الجسم في مكانين، وقيام العرض بنفسه، وانتقاله، وقيام المعنى بالمعنى. وكل حديث

وآية وردت عندنا، مما صرفها العقل عن ظاهرها، وجدناها على ظاهرها في هذه الأرض. وكل جسد يتشكل فيه الروحاني مِن ملَك وجن، وكل صورة يَرَى الإنسانُ فيها نفسه في النوم: فمن أجساد هذه الأرض أرض الحقيقة. لها أي للأرواح البشرية من هذه الأرض، موضع مخصوص في أرض الحقيقة. ولهم أي لسكان أرض الحقيقة رقائق ممتدة إلى جميع العالم، وعلى كل رقيقة أمين؛ فإذا عاين ذلك الأمين روحاً من الأرواح قد استعدّ لصورة من هذه الصور التي بيده، كساها إيّاها: كصورة دِحْيَة لجبريل.

وسبب ذلك أن هذه الأرض مَدَّها الحق تعالى في البرزخ، وعين منها موضعاً لهذه الأجساد التي تَلْبَسُها الروحانيات، وتنتقل إليها النفوس عند النوم وبعد الموت، فنحن من بعض عالمها. ومن هذه الأرض طرف يدخل في الجنة يسمى السوق سوق الصور. ونحن نبين لك مثال صورة امتداد الطرف الذي يلي العالَم من هذه الأرض: وذلك أن الإنسان إذا نظر إلى السراج أو الشمس أو القمر، ثم حال بأهداب أجفانه بين الناظر والجسم المستنير، يبصر من ذلك الجسم المستنير إلى عينيه شبه الخطوط من النور، تتصل من السراج إلى عينيه متعددة؛ فإذا رفع تلك الأهداب من مقابلة الناظر، قليلاً قليلاً، يرى تلك الخطوط الممتدة تنقبض إلى الجسم المستنير.

فالجسم المستنير، مِثالٌ للموضع المعيَّن من هذه الأرض لتلك الصور؛ والناظر، مِثالُ العالَم، وامتداد تلك الخطوط هو كصور الأجساد التي تنتقل إليها، في النوم، وبعد الموت، وفي سُوق الجنة سُوق الصور، والتي تَلْبَسُها الأرواح. وقصدك إلى رؤية تلك الخطوط بذلك الفعل، من إرسال الأهداب

الحائلة بين الناظر والجسم النيِّر، هو مِثال الاستعداد. وانبعاث تلك الخطوط، عند هذه الحال، هو انبعاث الصور عند الاستعداد. وانقباض الخطوط إلى جسم النيِّر، عند رفع الحائل، هو رجوع الصور إلى تلك الأرض عند زوال الاستعداد. وليس بعد هذا البيان بيان.

*

لقاء ابن عربي بابن رشد في قرطبة

ولقد دخلت يوماً بقرطبة على قاضيها أبي الوليد بن رشد؛ وكان يرغب في لقائي لَمّا سمع وبلغه ما فتح الله به عليّ في خلوتي؛ فكان يظهر التعجب مما سمع. فبعثني والدي إليه في حاجةٍ، قصداً منه، حتى يجتمع بي، فإنه كان من أصدقائه. وأنا صبي ما بَقَلَ وجهي ولا طُرَّ شاربي. فعندما دخلت عليه، قام من مكانه إليّ محبةً وإعظاماً، فعانقني وقال لي: نَعَم! قلت له: نَعَم! فزاد فرحه بي لفهمي عنه. ثم استشعرت بما أفرحه من ذلك، فقلت له: لا! فانقبض، وتغيَّر لونه، وشك في ما عنده. وقال لي: كيف وجدتم الأمر في الكشف والفيض الإلهي: هل هو ما أعطاه لنا النظر؟ قلت له: نعم، لا! وبين نعم ولا تطير الأرواح من موادِّها، والأعناقُ من أجسادها. فاصفرَّ لونه، وأخذه الإفْكِل، وقعد يحوقل، وعرف ما أشرت إليه. وهو عين هذه المسألة التي ذكرها هذا القطب الإمام، أعني «مُداوِي الكُلُومِ».

وطلب بعد ذلك من أبي الاجتماع بنا ليعرض ما عنده علينا: هل هو يوافق أو يخالف؟ فإنه كان من أرباب الفكر والنظر العقلي. فشكر الله تعالى! الذي كان في زمان رأى فيه من دخل خلوته جاهلاً، وخرج مثل هذا الخروج، من غير درس ولا بحث ولا مطالعة ولا قراءة. وقال: هذه حالةٌ أثبتناها، وما رأينا لها أرباباً.

ثم أردت الاجتماع به مرة ثانية. فأقيم لي في الواقعة في صورة، ضُرِب بيني وبينه فيها حجاب رقيق، أنظر إليه منه ولا يبصرني ولا يعرف مكاني، وقد شُغِل بنفسه عني. فقلت: إنه غير مراد لما نحن عليه. فما اجتمعت به حتى دَرَجَ، وذلك سنة خمس وتسعين وخمس مائة، بمدينة مُرَّاكش، ونقل إلى قرطبة، وبها قبره. ولَمّا جُعِل التابوت الذي فيه جسده على الدابة، جُعِلت تواليفه تعادله من الجانب الآخر. وأنا واقف، ومعي الفقيه الأديب أبو الحسن محمد بن جُبَيْر، كاتب السيد أبي سعيد، وصاحبي أبو الحَكَم عمرو بن السَّرَّاج، الناسخ. فالتفت أبو الحَكَم إلينا وقال: ألا تنظرون إلى من يعادل الإمام ابن رشد في مركوبه؟ هذا الإمام، وهذه أعماله، يعني تواليفه!. فقال له ابن جُبَيْر: يا ولدي، نِعْمَ ما نظرت! لا فُضَّ فوك! فَقَيَّدْتُها عندي موعظةً وتذكرةً.

*

العشق الكوني

اعْلَمْ، أَيَّدَك الله، أَن هذا هو علم التوالد والتناسل. وهو من علوم الأكوان. وأصله من «العلم الإلهي». فَلْنُبَيِّنْ لك، أولاً، صورته في الأكوان، وبعد ذلك نظهره لك في «العلم الإلهي». فإن كل علم، أَصلُه من «العلم الإلهي»، إذ كان كل ما سوى الله من الله. فهذا علم التوالج، سارٍ في كل شيء. وهو علم الالتحام والنكاح، ومنه حسي ومعنوي وإلهي. فاعلم أَنك إذا أَردت أَن تعلم حقيقة هذا، فلتنظره، أَوّلاً، في عالم الحس، ثم في عالم الطبيعة، ثم في المعاني الروحانية، ثم في «العلم الإلهي».

فأَمَّا التوالد والتناسل في الحسّ، فاعلم أَنه إذا شاء الله أَن يُظْهِر شخصاً بين اثنين، فذانك الاثنان هما ينتجانه. ولا يصح أَن يظهر عنهما ثالث ما

لم يقم بهما حكمٌ ثالث: وهو أَن يُفْضِي أَحدهما إِلى الآخر بالجماع فإذا اجتمعا على وجهٍ مخصوص، وشرطٍ مخصوص، وهو أَن يكون المحل قابلاً للولادة، لا يُفْسِدُ البذرَ إذا قَبِلَه، ويكونَ البذرُ يقبل فتح الصورة فيه؛ هذا هو الشرط الخاص؛ وأَمَّا الوجه المخصوص فهو أَن يكون التقاء الفرجين، وإِنزالُ الماء، أَو الريح، عن شهوة؛ . فلابُدَّ من ظهور ثالث، وهو المُسَمَّى ولداً. والاثنان يسميان والدين. وظهور الثالث يُسَمَّى ولادة. واجتماعهما يسمى نِكاحاً أو سِفاحاً. وهذا أمر محسوس، واقع في الحيوان.

وإنما قلنا «بوجهٍ مخصوص وشرطٍ مخصوص» فإنه ما يكون عن كل ذكر وأُنثى، يجتمعان بنكاحٍ، ولدٌ ولابُدَّ، إلاَّ بحصول ما ذكرناه.

*

العشق في العالم الإلهي

وأَما هذا «التَّوالُجُ» في «العِلْم الإلهي»، و«التوالدُ»، فاعلم أَن ذات الحق تعالى لم يظهر عنها شيء أَصلاً، من حيث كونها ذاتاً، غَيْر منسوب إليها أمرٌ آخر. وهو أَن يُنْسَبَ إلى هذه الذات أَنها قادرة على الإيجاد، عند أهل السنة، أَهل الحق، أَو يُنْسَب إليها كَوْنُها عِلَّةً.

وليس هذا مذهب أَهل الحق. ولا يصحُّ. وهذا مِمَّا لا نحتاج إليه. ولكن كان الغرض في سياقه، من أَجل مخالفي أَهل الحق: لنقرر، عنده، أَنه ما نَسَبَ وجودَ العالَمَ لهذه الذات، من حيث كونها ذاتاً، وإِنما نسبوا العالَمَ لها بالوجود من حَيْثُ كَوْنُها عِلَّةً. فلهذا أَوردنا مقالتهم.

ومع هذه النسبة، وهي كونه تعالى قادراً، لابُدَّ من أَمر ثالث: وهو إرادته الإيجاد لهذه العين المقصودة بأَن توجد. ولابُدَّ من التوجه بالقصد إِلى إيجادها بالقدرة عقلاً، وبالقول شرعاً، بأَن تتكوَّن. فما وجد الخلق إلاَّ عن

«الفرديـة» لا عـن «الأَحديـة» لأَن «أَحديتـه» تعـالى! لا تقبـل الثـاني، لأَنهـا ليست أَحدية عدد. فكان ظهور العالَم، في «العِلْم الإِلهي» عن ثلاث حقائق معقولة. فسرى ذلك في توالد الكون، بعضِـهِ عن بعض، لكون الأَصل على هذه الصورة.

*

الليل والغيب

اعلم، أَيّدك الله بروح منـه، أَن الله جعل الليل لأَهلـه مثل الغيب لنفسـه. فكما لا يشـهد أَحد فعل الله في خلقه، لحجاب الغيب الذي أَرسله دونهم، كذلك لا يشهد أَحد فعل أَهل الليل مع الله في عبادتهم، لحجاب ظلمة الليل التي أرسلها الله دونهم. فهم خير عصبة في حق الله، وهم شر فتية في حق أنفسهم. ليسوا بأَنبياء تشريع، لما ورد من «غلق باب النبوة». ولا يقال في واحد منهم عندهم: إنه وليٌّ، لما فيه من المشاركة مع اسم الله، فيقال فيهم: أَولياء. ولا يقولون ذلك عن أَنفسهم، وإن بُشِّرُوا.

فجعل الله الليل لباساً لأهله يلبسونه. فيسترهم هذا اللباس عن أعين الأَغيار. يتمتعون، في خلواتهم الليلية، بحبيبهم فيناجونه من غير رقيب. لأَنه، تعالى! جعل النوم، في أَعين الرقباء، «سُباتاً»: أي راحةً، لأهل الليل، إلهيةً. كما هو راحة، للناس، طبيعيةٌ. فإذا نام الناس، استراح هؤلاء مع ربهم، وخلوا به حِسّاً ومعنىً في ما يسألونه: من قبول توبة، وإجابة دعوة، ومغفرة حَوْبة، وغير ذلك. فنوم الناس، راحةٌ لهم.

وإن الله تعالى ينزل إليهم بالليل إلى السماء الدنيا: فلا يبقى بينه وبينهم حجاب فلكي. ونزوله إليهم، رحمةٌ بهم. ويتجلّى من «سماء الدنيا» عليهم، كما ورد في الخبر. فيقول: كذب مَنِ ادَّعَى محبتي فإذا جَنَّه الليلُ نام عَنِّي.

أَليس كل محب يطلب الخلوة بحبيبه؟ هاأنذا قد تجلَّيْتُ لعبادي! هل من داعٍ فأَستجيب له؟ هل من تائب فأَتوب عليه؟ هل من مستغفر فأَغفر له؟ وهكذا شأن الحق حتى ينصدع الفجر!

*

الليل لله والنهار للإنسان

قال محمد بن عبد الجبار النِّفَّرِي، وكان من أَهل الليل: «أَوقفني الحق في موقف العلم» وذكَّر بما قاله له الحق في موقفه ذلك. فكان من جملة ما قال له في ذلك الموقف: يا عبدي! الليلِ لي، لا للقرآن يُتْلَى. الليل لي، لا للمحمدة والثناء!

فاجعل الليل لي، كما هو لي. فإن في الليل نزولي فلا أَزال أَراك، في النهار، في معاشك فإذا جاء الليل وطلبتك، ونزلت إليك، وجدتك نائماً في راحتك، وفي عالم حياتك. وما ثَمَّ إلا ليل ونهار. فلا في النهار وجدتك، وقد جعلته لك، ولم أَنزل فيه إليك، وسلمته لك. وجعلتُ الليل لي، فنزلت إليك فيه لأُناجيك وأُسامرك، وأَقضي حوائجك. فوجدتك قد نمت عنّي، وأسأْت الأَدب معي، مع دعواك في محبتي، وإيثار جنابي! فقم بين يديَّ، وسلني حتى أُعطيك مسألتك.

وما طلبتُكَ لتتلو القرآن، فتقف مع معانيه. فإن معانيك تفرقك عني. فآية تمشي بك في جنتي، وما أَعددت لأَوليائي فيها. فأَين أَنا، إذا كنت، أَنت، في جنتي مع «الحور المقصورات في الخيام، كأنهن الياقوت والمرجان»، «متكئاً على فرش بطائنها مِن استبرق، وجنى الجنتين دان»، «تسقى من رحيق مختوم، مزاجه تسنيم».

أَين أَنا، يا عبدي! إذا تلوت هذه الآية، وأَنت، بخاطرك وهمّك، في الجنة تارة، وفي جهنم تارة؟ ثم تتلو آية، فتمشي بك في «القارعة! وما أَدراك ما

القارعة؟ يوم يكون الناس فيه كالفراش المبثوث، وتكون الجبال كالعِهْن المنفوش»، يوم «تذهل كلّ مرضعة عمّا أرضعت، وتضع كل ذات حَمْلٍ حَمْلَها»، ﴿وترى الناس سُكَارى وما هم بسُكارَى﴾*.

*

تلاوة العارف المحقق

ما عرفني، ولا عرف مقدار قولي: «الليل لي!»، وما عرف لماذا نزلتُ إليك بالليل، إلا العارف المحقق.

فالذي ينبغي له هو أَن يُصْغِي إليَّ، ويُخْلِي سمعه لكلامي. حتى أكون، أنا، في تلك التلاوة، كما تلوتُ عليه وأَسمعتُه، أَكون، أنا، الذي أشرح له كلامي، وأُترجم له عن معناه. فتلك «مسامرتي» معه. فيأْخذ العلم مني: لا من فكره واعتباره.

فلا يبالي العارف، المحقِّق بذكر جنة، ولا نار، ولا حساب، ولا عرض، ولا دنيا، ولا آخرة! فإنه ما نظرها بعقله. ولا بحث عن الآية بفِكره.

(...) فإن طالبته بـ«المسامرة» في ذلك، فيجيبني بحضور ومشاهدة. يعرض عليَّ جميع ما كلَّمتُه به، وعلَّمْتُه إياه. فإن كان أَخَذَهُ على الاستيفاء، وإلاَّ فنجبر له ما نقصه من ذلك. فيكون لي، لا له، ولا لمخلوق.

فمثل هذا العبد هو لي. و«الليل» بيني وبينه. فإذا انصدع «الفجر»، استويت على «عرشي»: أُدبِّر الأَمر، أُفَصِّل الآيات. ويمشي عبدي إلى معاشه، وإلى محادثة إخوانه. وقد فتحتُ، بيني وبينه، «باباً» في خَلْقِي، ينظر إليَّ منه، وأَنظر إليه منه. والخلق لا يشعرون. فأُحدثه على ألسنتهم. وهم لا يعرفون. ويأْخذ مني «على بصيرة». وهم لا يعلمون. فيحسبون أنه يكلِّمهم: وما يكلِّم سواي. ويظنون أَنه يجيبهم: وما يجيب إلا إياي.

*

* سورة الحجّ، آية: 2.

طبقات أهل الليل مع الله

وإذ قد أَبنتُ لك عن «أَهل الليل»، كيف ينبغي أن يكونوا في «ليلهم»؟ فإن كنت منهم، فقد علَّمْتُك الأَدب الخاص بأهل الله، وكيف ينبغي لهم أَن يكونوا مع الله؟ واعلم أنه تختلف طبقاتهم في ذلك. فالزاهد، حالُهُ مع الله في ليله هو من مقام زهده. والمتوكل، حالُهُ مع الله هو من مقام توكّله. وكذلك صاحب كل مقام. ولكل مقامٍ لسانٌ، هو الترجمان الإلهي. فهم متباينون في المراتب، بحسب الأحوال والمقامات. وأَقطاب أَهل الليل هم أَصحاب المعاني المجردة عن الموادِّ المحسوسة والخيالية. فهم واقفون مع الحق بالحق على الحق، من غير حد ولا نهاية، ووجود ضدّ!

*

معارج «أهل الليل» ومعارفهم

ومن أَهل الليل مَنْ يكون صاحب عروج وارتقاء ودنوّ. فيتلقاه الحق في الطريق، وهو نازل إلى السماء الدنيا. فيتدلَّى إليه، فيضع كَنَفه عليه. وكل هِمَّة، مِن كل صاحب معراج، يتلقاها الحق في ذلك النزول حيث وجدها. فَمِنَ الهمم مَن يَلْقَاها الحق في السماء الدنيا. ومنها، مَنْ يلقاها في السماء الثانية، وفيما بينهما. وفي الثالثة، وفيما بينهما. وفي الرابعة، وفيما بينهما. وفي الخامسة، وفيما بينهما. وفي السادسة، وفيما بينهما. وفي السابعة، وفيما بينهما. وفي الكرسي، وفيما بينهما. وفي العرش، في أَول النزول، وفيما بينهما، وهو مستوى الرحمن. فيعطي الحق لتلك الهمَّة من المعاني والمعارف والأسرار، بحسب المنزل الذي لَقِيَتْهُ الهمَّةُ فيه. ثم تنزل معه إلى السماء الدنيا.

*

عقلاء المجانين من أهل الله

وهؤلاء هم الذين يسمون عقلاء المجانين. يريدون بذلك أن جنونهم ما كان سببه فساد مزاج عن أمر كوني، من غذاء أو جوع أو غير ذلك. وإنما كان عن تجلٍّ إلهي لقلوبهم، وفجْأةٍ من فجآت الحق فَجَأَتْهم، فذهبت بعقولهم، فعقولهم محبوسة عنده، منعمة بشهوده، عاكفة في حضرته، منزهة في جماله. فهم أصحاب عقول بلا عقول! وعُرفوا، في الظاهر، بالمجانين، أي المستورين عن تدبير عقولهم. فلهذا سموا عقلاء المجانين.

*

النبوّات كلها
علوم وهبية لا مكتسبة

فالنبوَّات، كلُّها، علوم وهبية، لأن النبوَّة ليست مكتسبة. فالشرائع، كلُّها، من علوم الوهب عند أَهل الإسلام، الذين هم أَهله. وأُريد بالاكتساب في العلوم هو ما يكون للعبد فيه تعمُّلٌ. كما أن الوهب ما ليس للعبد فيه تعمُّلٌ. وإنما قلنا هذا، من أَجل الاستعدادات التي جعلت العالِم يقبل هذا العلم الوهبي والكسبي. فإنه لابُدَّ من الاستعداد. فإن وجد بعض الاستعدادات مما يتعمَّلُ الإنسان في تحصيلها، كان العلم الحاصل عنها مكتسباً: كَمَنْ عَمِل بما عَلِمِ فأَورثه الله علم ما لم يكن يعلم.

*

اعلم أَن «البرزخ» عبارة عن أمر فاصل بين أَمرين، لا يكون متطرفاً أَبداً، كالخطِّ الفاصل بين الظل والشمس. ولمَّا كان البرزخ أَمراً فاصلاً بين معلوم وغير معلوم، وبين معدوم وموجود، وبين منفيّ ومثبت، وبين معقول وغير معقول، سُمِّيَ برزخاً اصطلاحاً. وهو معقول في نفسه. وليس ذاك إلاَّ الخيال. فإنك إذا أَدركته، وكنت عاقلاً، تعلم أَنك أَدركت شيئاً وجودياً، وقع

بصرك عليه؛ وتعلم قطعاً، بدليلٍ، أَنه ثَمَّ شيء رأْساً وأَصلاً. فما هو هذا الذي أَثبتَّ له شيئيةً وجودية، ونفيتها عنه، في حال إثباتك إيَّاها.

*

الخيال، كالبرزخ

فالخيال لا موجود ولا معدوم، ولا معلوم ولا مجهول، ولا منفي ولا مثبت. كما يدرك الإنسان صورته في المرآة: يعلم، قطعاً، أَنه أَدرك صورته بوجهٍ؛ ويعلم، قطعاً، أَنه ما أَدرك صورته بوجه. لِما يَرَى فيها من الدقة إذا كان جرْم المرآة صغيراً، ويعلم أن صورته أكبر من التي رأى بما لا يتقارب. وإذا كان جِرْم المرآة كبيراً، فيرى صورته في غاية الكبر، ويقطع أَن صورته أَصغر مما رأى. ولا يقدر أن ينكر أنه رأى صورته. ويعلم أَنه ليس في المرآة صورته؛ ولا هي بينه وبين المرآة؛ ولا هو انعكاس شعاع البصر إلى الصورة المرئية فيها من خارج، سواء أَكانت صورته أَو غيرها. إذ لو كان كذلك لأَدرك الصورة على قدرها، وما هي عليه. وفي رؤيتها في السيف، من الطول أَو العرض، يتبين لك ما ذكرنا. مع علمه أَنه رأَى صورته بلا شك. فليس بصادق ولا كاذب في قوله: «إنه رأَى صورته، وما رأَى صورته».

فما تلك الصورة المرئية؟ وأَين محلُّها؟ وما شأْنها؟ فهي منفية، ثابتةٌ، موجودةٌ، معدومة، معلومة، مجهولة.

*

البدْءُ افتتاح وجود الممكنات على التتالي والتتابع، لكون الذات الموجدة له اقتضت ذلك من غير تقييد بزمان، إذ الزمان من جملة الممكنات الجسمانية.

*

أكملَ الإنسان شرائط الإيمان وأَحكمها، حصل من الحق تجلٍّ لقلب هذا المؤمن الذي هو بهذه الصفة؛ يسمَّى ذلك التجلِّي ذوقاً هو بَدْءُ جَعْلِ

السكينة في قلبه؛ لتكون تلك السكينة له باباً أو سلَّماً إلى حصول أَمر مُغَيَّب يقع له الإيمان به.

*

الفطرة هي النور الذي تُشَقُّ به ظلمة الممكنات، ويقع به الفصل بين الصور.

*

الحديث، المحادثة، الخطاب، المناجاة، المسامرة

فأَكمل المحدَّثين من فهم عن الله ما حدَّثه. وهم أَهل السماع المطلق من الحق، فإن أجابوه به فهو حديث، وإِن أَجابوه بهم فهي محادثة، وإِن سمعوا حديثه به فليس بحديث في حقهم وإِنما هو خطاب أو كلام.

وأهل الحقائق يمنعون المحادثة ولا يمنعون المناجاة، فإنَّ الحقَّ لا يَحْدُث عنده شيء. فهو، سبحانه، يُحَدِّث من شاء من عباده ولا يُحَدِّثُه منهم أحد، لكن يناجونه ويسامرونه، كالمتهجدين هم أَهل المسامرة. فالعالَم خزائن المحدَّثين من الأَولياء إذا سمعوا بهم. فالمحدِّثون أَنزل الدرجات في مقامات الأولياء، وهم عند العامة في الرتب العُلْيا لأَنَّ علومهم ليست عن ذوق وإِنَّما هي علوم نقلٍ أو علوم فكر لا غَيْرُ.

*

حديث الله في الصوامت

فأَمَّا حديث الله في الصوامت، فهو عند العامَّة من علماء الرسوم حديثُ حالٍ، حتَّى أَنَّه لو نطق لنطق بما فَهِمَهُ هذا الفهمُ منه. قال القوم في مثل هذا: «قَالَتِ الأَرْضُ لِلْوَتِدِ لِمَ تَشُقُّنِي؟» قال الوَتِدُ لها: «سَلِي مَنْ يَدُقُّنِي!» فهذا عندهم حديثُ حالٍ.

وأَمَّا عند أَهل الكشف: فيسمعون نطق كلِّ شيءٍ من جماد ونبات وحيوان، بِسَمْعِهِ المقيَّدِ بأُذُنه في عالَم الحِسِّ لا في الخيال، كما يُسْمَعُ نُطْقُ المتكلِّم من الناس والصوتُ من أَصحاب الأَصوات.

فما عندنا في الوجود صامتٌ أَصلاً بل الكلُّ ناطق بالثناء على الله. كما أَنَّه ليس عندنا في الوجود ناطقٌ أصلاً من حيث عينه، بل كلُّ عَيْنٍ سوى الله صامتةٌ لا نطق لها. إلّا أَنَّها لمَّا كانت مظاهر كان النطق للظاهر. قالت الجلود: «أنطقنا الله الذي أَنطق كلَّ شيء» فالكلام في المظاهر هو الأَصل،

والصمت فيها عَرَضٌ يَعْرِض في حقِّ المحجوب؛ والصمت في الأعيان هو الأَصل، والكلام المسموع منها عَرَضٌ يَعْرِض في حق المحجوب.

فلأَصحاب الحرف والصوت عُذْرٌ عند هؤلاء؛ ولمنكري الصوت والحرف عذر، أيضاً، عندهم.

*

لكل اسم إلهي نسبة كلام

فاعْلَمْ أَنَّ وصفه، تعالى، بأنَّه «سميع» هو عينه، لا أَمرٌ زائد، واعْلَمْ أَنَّ تحقيق هذا أَنَّه لكل اسم إلهي نسبة كلام؛ والإنسان محلٌّ لاختلاف الأَحوال عليه عقلاً وحِسّاً؛ وذلك أَنَّ الألوهية تعطي ذلك لذاتها، فإِنَّها بالنسبة إلى العالَم بهذه الصفة. فكلُّ حالٍ في الكون فهو عينُ شأنٍ إلهي. وقد تقرَّر في العلم الإلهي أَنَّه، تعالى، لا يتجلَّى في صورة واحدة لشخصين، ولا في صورة واحدة لشخص مرتين. وكلُّ تجلٍّ له كلام. فذلك الكلام لهذا الحال، من هذا التجلِّي، هو المعبَّر عنه بالحديث. فالحديث لا يزال أبداً. غير أَنَّه مِن الناس مَن يفهم أَنَّه حديث؛ ومِن الناس مَن لا يعرف ذلك. بل يقول:

«ظهر لي كذا وكذا» ولا يعرف أنَّ ذلك من حديث الحق معه في نفسه، لأنَّه حُرِمَ عَيْنُ الفهم عن الله في ما يحسب أنَّه خاطر.

*

الخواطر كلها من الحديث الإلهي

والذين قَسَموا الخواطر إلى أربعة، فذلك التقسيم لا يقع في «الحديث»: فإنَّ «الحديث» حديث في كل قسم. وإنَّما الأقسام وقعت في الذوات التي فُهِم منها ما أُرِيدَ بالحديث. فيقال: «خاطر شيطاني» وهو حديث ربَّاني وقول إلهي، لمَّا أَراده الحق قال له: «كُنْ!» فتلقَّاه الاسمُ البعيدُ؛ كما يتلقَّاه من الحديث الإلهي في الخاطر المَلَكي الاسمُ القريبُ؛ كما يتلقَّاه من الحديث الإلهي في الخاطر النفسي الاسمُ المريدُ؛ كما يتلقَّاه من الحديث الإلهي في الخاطر الرباني الاسمُ الحفيظُ. فهذه الخواطر كلُّها من الحديث الإلهي الذي لا يشعر به إلاَّ رجالُ الله.

*

الكلام كله حادث قديم

فالعالَم كلُّه على طبقاته لا يزالون في الحديث. فمن رُزِق الفهم عنه، تعالى، وعَرَفهُ فذلك المُحَدَّث، وهو من أَهل الحديث؛ وعلم أَنَّ كلَّ ما سمعه حديث بلا شك وإِن اختلفت أَلقابه: كالسَّمَر، والمناجاة، والمناغاة، والإشارات. فالكلام كلُّه حادثٌ قديم: حادثٌ في السمع، قديم في المُسْمِعِ.

*

ما الوحي؟

ما تقع به الإشارة القائمةُ مَقامَ العبارة من غير عبارة؛ فإنَّ العبارة تجوز منها إلى المعنى المقصود بها، ولهذا سُمِّيت عبارة؛ بخلاف الإشارة، التي

هي الوحي، فإنَّها ذات المشار إليه. والوحي هو المفهوم الأَول والإفهامُ الأول؛ ولا أَعجل من أَن يكون عينُ الفهم عينَ الإفهام، عينَ المفهوم منه؛ فإن لم تحصل لك هذه النكتة فلست بصاحب وحي. أَلا ترى أَن الوحي هو السرعة، ولا سرعة أَسرع مِمَّا ذكرناه.

*

فالوحي ما يسرع أثره من كلام الحقِّ تعالى في نفس السامع؛ ولا يعرف هذا إلاَّ العارفون بالشؤون الإلهية فإنَّها عين الوحي الإلهي في العالَم ﴿وهم لا يشعرون﴾*. وقد يكون الوحي إسراعَ الروح الإلهي الأَمري بالإيمان بما يقع به الإخبارُ. والمفطورُ عليه (هو) كلُّ شيء مِمَّا لا كسب له فيه؛ (وهو) من الوحي أيضاً: كالمولود يَتَلَقَّى ثدي أُمِّه، ذلك من أثر الوحي الإلهي إليه.

*

ولهذا لا تَتَصَوَّر معه المخالفةُ إذا كان الكلام وحياً، فإنَّ سلطانه أَقوى من أَن يُقَاوَم. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوْسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾** وكذا فَعَلَتْ ولم تخالف! مع أَنَّ الحالة تؤذن أَنَّها أَلْقَتْهُ في الهلاك؛ ولم تُخالِف، ولا تَرَدَّدتْ، ولا حَكَمَتْ عليها البشرية بأَنَّ إلقاءه في اليمِّ، في تابوتٍ، من أَخطر الأَشياء. فَدَلَّ على أَنَّ الوحي أَقوى سلطاناً في نفس الموحى إليه من طبعه الذي هو عين نفسه. فيا أَيُّها الوليُّ! إذا زعمت أَنَّ الله أَوحى إليك فانظر في نفسك في التردد والمخالفة: فإن وجدت لذلك أَثراً بتدبيرٍ، أو تفصيل، أَو تفكّر فلست صاحب وحي؛ فإن حكم عليك،

---

* سورة يوسف، آية:15.

** سورة القصص، آية:7.

وأَعماك، وأَصمَّك، وحال بين فكرك وتدبُّرك، وأَمضى حكمه فيك فذلك هو الوحي، وأَنت عند ذلك صاحب وحي، وَعَلِمْتَ، عند ذلك، أَنَّ رفعتك وعلوَّ منصبك أَن تلحق بمن تقول إِنَّه دونك: من حيوان، ونبات، وجماد.

*

معرفة الإنسان بنفسه ومرتبته لا تُعْلَم إلاَّ من «الصورة».

*

فما حدَدْنَاك إلاَّ بحدِّك: فأَنت حدَدْتَ نفسك بنا وحدَدْتنا بك؛ وإِلاَّ فمن أَين لنا أَن نَحِدَّ ذواتنا فكيف أَن نحِدَّكَ؟

*

ونحن لا جُرْأَة لنا على أَن نقول ما قلته عن نفسك.

*

التجلِّي يتنوَّع عليهم في المشهد الواحد.

*

فالنبوَّة سارية إلى يوم القيامة في الخلق، وإن كان التشريع قد انقطع، فالتشريع جزء من أَجزاء النبوَّة. فإنَّه يستحيل أَن ينقطع خَبَرُ الله وإِخباره من العالَم، إذ لو انقطع لم يبق للعالَم غذاء يتغذَّى به في بقاء وجوده.

*

وأَمَّا النبوَّة العامَّة فأجزاؤها لا تتحصر ولا يَضْبِطُها عدد، فإِنَّها غير مؤقَّتة؛ لها الاستمرار دائماً دنيا وآخرةً. وهذه مسألة أَغفلها أهل طريقنا؛ فلا أدري عن قصدٍ منهم كان ذلك، أَو لم يوفقهم الله عليها، أو ذكروها وما وصل ذلك الذكر إلينا؟ والله أَعلم بما هو الأمر عليه.

*

(...) وذلك أَنَّ الله لمَّا تسمَّى بالظاهر والباطن نفى المزاحمة. إذ الظاهر لا يزاحم الباطن والباطن لا يزاحم الظاهر؛ وإنما المزاحمة أَن يكون ظاهران أَو باطنان. فهو «الظاهر» من حيث المظاهر وهو «الباطن» من حيث الهوية. فالمظاهر متعددة من حيث أَعيانُها، لا من حيث الظاهرُ فيها؛ فالأَحدية من ظهورها، والعدد من أعيانها.

*

الإنسان مخلوق على الصورة

وذلك أن الله تعالى قال للإنسان: ﴿أَوَ لا يَذْكُرُ الإنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾* أَي قدَّرناه. خاطب الإنسان وحده لأَنَّه المعتبر الذي وجد العالَم من أَجله. وإلاَّ فكل ممكن هو بهذه المنزلة. هذا هو الذي تعطيه نشأَته، لكونه مخلوقاً على الصورة الإلهية، وأَنه مجموع حقائق العالَم. فإذا خاطبه الحقُّ فقد خاطب العالَم كلَّه، وخاطب أَسماءه كلَّها. وأَمَّا الوجه الآخر الذي ينبغي أيضاً أَن يقال، وهو دون هذا في كونه مقصوداً بالخطاب. وذلك أَنَّه ما ادَّعى أَحد الألوهية سواه من جميع المخلوقات. وأَعصى الخلائق هو إبليس؛ وغاية جهله أَنَّه رأَى نفسه خَيراً من آدم لكونه من نار، لاعتقاده أَنَّه أَفضل العناصر؛ وغاية معصيته أَنَّه أُمِر بالسجود لآدم، فتكبّر في نفسه عن السجود لآدم وأبى. فعصى الله في أَمره فسمَّاه الله كافراً، فإنَّه جمع بين المعصية والجهل. ـ والإنسان ادَّعَى أَنه «الرب الأعلى» فلهذا خُصَّ بالخطاب في قوله (تعالى): ﴿أَوَ لا يَذْكُرُ الإنْسَانُ﴾.

*

* سورة مريم، آية:66.

ما صفات «ملك الضياء»؟

قال تعالى في القرآن: ﴿إنه ضياء وذكر للمتقين﴾* فكلُّ ما أضاء بالقرآن فهو «مُلك الضياء». وكذلك ﴿جعل الشمس ضياء﴾** فكلُّ ما أَضاء بالشمس في الدنيا ويُوجَد به عينه فهو من «مُلْك الضياء» وكلُّ نور أَعطى ضياءً فهو من «ملك الضياء» مِمَّا لا يقابله معطي الضياء بنفسه، أيَّ نوعٍ كان من الأنوار. فضياؤه هو الضوء الذي لا يكون معه الحجاب عمَّا يكشفه. والنور حجاب. قال رسول الله، صلى الله عليه وسلَّم، في حق الحق تعالى: «حِجَابُهُ النُّورُ» وقال: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ». والضياء ليس بحجاب. فالضياء أَثر النور، وهو الظل. فإنَّ النور صَيَّرَهُ الحجابُ ضياء. فهو بالنسبة إلى الحجاب ظلٌّ، وبالنسبة إلى النور ضياءٌ. فله الكشف من كونه ضياءً، وله الراحة من كونه ظلاًّ. فَمُلْكُ الضياء مُلْكُ الكشف، فهو مُلْك العِلْم ومُلْك الراحة، فهو ملك الرحمة. فجمع الضياء بين الرحمةِ والعلم.

*

الضياء روح النور

وإنما قلنا: «النور حجاب» لقوله عليه السلام والصلاة: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ» أَي النورُ لا يَتَمَكَّنُ أَن تدركه الأبصار لأنَّها تضعف عنه. فهو حجاب على نفسه بنفسه. والضياء ليس كذلك. فالضياء روح النور؛ والضياء للنور ذاتيٌّ. فَمُلْكُ الضياء مُلْكٌ ذاتيٌّ. وضوءُ «الذات» الأَسماءُ الإلهية فَمُلْكُ الضياء هو مُلْك الأسماء.

*

---

* سورة الأنبياء، آية:48.

** سورة يونس، آية: 5.

ثم ﴿جعل الله الشمس ضياءً﴾* لوجود روح الحياة في العالَم كلِّه. وبالحياة رُحِم العالَمُ. فالحياة فلك الرحمة التي وسعت كل شيء. وكذلك نسبة الحياة إلى الذات الإلهية هي شرط في صحة كل نسبة نُسِبت إلى الله: من علمٍ، وإرادة، وقدرة، وكلام، وسمع، وبصر، وإدراك. فلو رَفَعْتَ نسبة الحياة إليه، ارتفعت هذه النِسَب كلُّها. فهي أي الحياة الرحمة الذاتية التي وسعت جميع الأَسماء. فهي ضياء النور الذاتي وظل الحجاب النسبيِّ. لأَنه لا يعقل الإله إلاَّ بهذه النِسَب؛ وتُعْقَل «الذاتُ» نوراً لا من حيث هذه النِسَب. فكونه، تعالى، إلهاً بهذه النِسَب حجابٌ على «الذات». فكانت الأُلوهيَّة عين الضياء، فهي عين الكشف والعِلْم؛ وكانت عين الظلال النسبيَّة، فكانت عين الرحمة. فجمعت الأُلوهيَّة بين العلم والرحمة في حقّ الكون، وهو المألوه، في حقِّ الأَسماء الإلهيَّة.

*

حجب «الذات» ووجود أعيان الممكنات

فإنَّه، تعالى، لو رفع الأسماء الإلهية ارتفعت هذه الحُجُبُ. ولو ارتفعت الحُجُبُ، التي هي هذه الأسماء، ظهرت «أحدية الذات»؛ ولا يقف لأحديتها عين تتصف بالوجود، فكانت تُذْهِب وجودَ أَعيان الممكنات فلا توصف بالوجود، لأنها لا تقبل الاتصاف بالوجود إلاَّ بهذه الأسماء، ولا تقبل الاتصاف بالأحكام كلِّها، عقلاً وشرعاً، إلا بهذه الأسماء. فالممكنات من خلف هذه الحُجُب، مِمَّا يلي حضرة الإمكان. فهو تجلٍّ ذاتيّ أَورثها الاتصاف بالوجود من خلف حجاب الأسماء الإلهية. فلم يتعلَّق لأعيان الممكنات علمٌ بالله إلاَّ من حيث هذه الأَسماءُ، عقلاً وكشفاً.

*

* سورة يونس، آية:5.

شراب الحب

تجلّ متوسِّطٌ بين تجلِّيين ذلكم هو شراب الحب! وهو التجلِّي الدائم الذي لا ينقطع وهو أَعلى مقام يتجلَّى الحق فيه لعباده العارفين. وأَوَّله تجلِّي الذوق. وأَمَّا التجلِّي الذي يقع به الرِيُّ فهو لأصحاب الضيق؛ فغاية شربهم رِيٌّ. وأَمَّا أهل السَّعَةِ فلا رِيَّ لشربهم، كأبي يزيد وأَمثاله. فأوَّل ما أَقدِّم في هذا السؤال، معرفة الحب؛ وحينئذ يعرف شرابه الذي أضيف إليه، ويعرف كأسه.

*

مراتب الحب

فاعلم أَن الحب على ثلاث مراتب.

حب طبيعيٌّ وهو حب العوامِّ. وغايته الاتحاد في الروح الحيواني: فيكون روح كل واحد منهما روحاً لصاحبه بطريق الالتذاذ وإثارة الشهوة. ونهايته من الفعل النكاح، فإن شهوة الحب تسري في جميع المزاج سريانَ الماء في الصوفة، بل سريان اللون في المتلوِّن.

وحبٌّ روحانيٌّ نفسيٌّ، وغايته التشبه بالمحبوب مع القيام بحق المحبوب ومعرفة قدره.

وحبٌّ إلهيٌّ وهو حب الله للعبد وحبُّ العبد لله. ونهايته من الطرفَيْن: أَن يُشَاهِد العبدُ كونه مَظْهَراً للحقِّ، وهو لذلك الحق الظاهر كالروح للجسم الذي هو باطنُهُ وغيبٌ فيه لا يُدْرَكُ أبداً؛ ولا يَشْهَدُهُ إلاَّ مُحِبٌّ. وأَن يكون الحقُّ مَظْهَراً للعبد: فَيَتَّصِفُ بما يتَّصِفُ به العبد من الحدود والمقادير والأعراض ويشاهد هذا العبدُ! وحينئذ، وحينئذ فقط، يكون محبوباً للحقِّ. وإذا كان الأمر كما قلناه، فلا حدَّ للحبِّ يُعَرَّفُ به ذاتيٌّ. ولكن يُحَدُّ الحبُّ بالحدود الرسمية واللفظية لا غير. فمن حَدَّ الحبَّ ما عرَفَهُ! ومَن لم يذقه شُرْباً ما عرفه! ومن قال: «رويتُ منه» ما عرَفَهُ! فالحب شُربٌ بلا رِيٍّ!

قال بعض المحجوبين: «شربت شَرْبَةً فلم أَظمأْ بعدها أبداً». فقال أبو يزيد: «الرجل من تَحَسَّى البحارَ ولسانُه خارجٌ على صدره من العطش!» وهذا هو الذي أشرنا إليه.

*

الحب الطبيعي

واعلم أنه قد يكون الحبُّ طبيعياً والمحبوب ليس من عالم الطبيعة؛ ولا يكون الحب طبيعياً إلا إذا كان المُحِب من عالم الطبيعة، لابُدَّ من ذلك. وذلك أن الحب الطبيعي سببه نظرة أو سماع فيُحْدِثُ في خيال الناظر مما رآه إن كان المحبوب مِمَّنْ يدرك بالبصر، وفي خيال السامع مِمَّا سمع؛ فَحَمَلَهُ على نشأته فصوَّره في خياله بالقوَّة المصوِّرة.

وقد يكون المحبوب ذا صورة طبيعية مطابقةٍ لما تَصوَّر في الخيال، أو دون ذلك، أو فوق ذلك.

وقد لا تكون للمحبوب صورة، ولا يجوز أن يقبل الصُوَر؛ فصوَّرَ هذا المحبُّ من السماع ما لا يمكن أن يتصوَّر. ولم يكن مقصود الطبيعة في تصوير ما لا يقبل الصورة إلا اجتماعها على أمر محصور ينضبط لها، مخافة التبديد والتعلُّق بما ليس في اليد منه شيء.

فهذا هو الداعي لما ذكرناه من تصوير من ليس بصورة، أو مِن تصوير مَن لم تُشْهَد له صورة وإن كان ذا صورة. وفعلُ الحبّ في هذه الصورة أن يُعَظِّم شخصها حتى يضيق مجالُ الخيال عنها فيما يُخيَّل إليه؛ فتثمر تلك العظمةُ والكِبَرُ، التي في تلك الصورة تحولاً في بدن المُحِبِّ، فلهذا تنحُلُ أجساد المحبين؛ فإنَّ موادّ الغذاء تنصرف إليها (= إلى صورة المحبوب) فتعْظُم، وتَقِلُّ عن البدن فيَنْحُلُ؛ فإن حرقة الشوق تُحْرِقه فلا يبقى للبدن ما يتغذى به: وفي ذلك الاحتراق نُمُوُّ صورة المحبوب في الخيال، فإنَّ ذلك

أكْلُهَا. ثم إنَّ القوَّة المصوِّرة تكسو تلك الصورة في الخيال حسناً فائقاً وجمالاً رائقاً تتغيَّرُ لذلك الحسن صورةُ المحب الظاهرةُ، فيصفرُّ لونه وتذبل شفته وتغور عينه. ثم إنَّ تلك القوة تكسو تلك الصورة قوة عظيمة تأخذها من قوة بدن المحب، فيصبح المحب ضعيف القوى، تُرْعَدُ فرائصه.

ثم إن قوة الحبِّ في المحب تجعله يحبُّ لقاء محبوبه ويجبن عن لقائه، لأنَّه لا يرى في نفسه قوّة للقائه؛ ولهذا يُغْشَى على المحبِّ إذا لقي المحبوب ويَصْعَقُ. ومَنْ فيه فَضْلَةٌ، وحُبُّهُ ناقصٌ، يعتريه عند لقاء محبوبه ارتعادٌ وخَبَلانٌ، كما قال بعضهم.

ثم إنَّ قوَّة الحب الطبيعي تُشَجِّع المُحِبَّ بين يَدَيْ محبوبه: له، لا عليه! فالمحب جبانٌ، شجاعٌ، مقدامٌ. فلا يزال هذا حاله ما دامت تلك الصورة موجودة في خياله إلى أن يموت وينحلَّ نظامُهُ، أو تزول تلك الصورة عن خياله فَيَسْلُو.

ومن الحبِّ الطبيعيِّ أن تلتبس تلك الصورة في خياله فتلصق بصورة نفسه المتخيِّلَة له؛ وإذا تقاربت الصورتان في خياله تقارباً مُفْرِطاً، وتلتصق صورة المحبوب به لصوق الهواء بالناظر. فعندئذ يطلبه المحبُّ في خياله فلا يتصوَّره، ويضيع ولا ينضبط له للقرب المفرط. فيأخذه لذلك خيال وحيرة، مثل ما يأخذ مَن فقد محبوبه. وهذا هو الاشتياق. والشوق من البعد والاشتياق من القرب المفرط.

(...) فإذا تقوَّت تلك الصورة في خيال المحب، أَثَّرت في المحبوب تأثير الخيال في الحِسِّ. مثل الذي يتوهَّم السقوط فيسقط، أو يتوهَّم أمراً ما مفزعاً فيتغيَّر له المزاج، فتتغيَّر صورة حسِّه. كذلك هذه الصورة إذا تقوَّت أَثَّرت في المحبوب، فقيَّدته وصيَّرته أشدَّ طلباً لها منها له. فإن النفوس قد جُبِلت على حب الرياسة؛ والمحب عبد مملوك بحبه لهذا المحبوب. فالمحبوب لا

يكون لـه رياسـة إلا بوجـود هـذا المحـب، فيعشـقه علـى قـدر عشـقه رياسـته؛ وإنَّما يتيه عليه للطمأنينة الحاصلة في نفس المحبوب بأنَّ المحب لا يصبر عنه وهو طالب إياه؛ فتأخذه العزة ظاهراً، وهو الطالب لـه باطنـاً؛ ولا يرى في الوجود أحداً مثله لكونه مُلْكَهُ.

فالمحب لا يعلِّل فعل المحبوب لأن التعليل من صفات العقل، ولا عقل للمحب.

والمحبوب يعلِّل أفعال المُحب بأحسن التعليل لأنـه مُلْكه، فيريد أن يظهر شرفه وعُلُوَّه حتى يعلو المحبوب إذ هو المالك، وهو يحب الثناء على نفسه. وهذا كلُّه فِعْلُ الحب: فَعَل فـي المحبوب ما ذكرنـاه، وفَعَل فـي المحب ما ذكرنـاه. وهـذا مـن أعجـب الأشـياء أن المعنـى أوجـب حكمـه لِمَن لـم يقم بـه وهو المحبوب، فإنَّه أثّر فيه حبّ المحب كما أثّر في المحب. (...) وكذلك الحب لا يجتمـع مـع العقـل فـي محـل واحـد، فـلا بـد أن يكـون حكـم الحـب يناقض حكم العقل.

فالعَقْلُ لِلنُّطْقِ والتَّهْيَامُ لِلْخَرَسِ!

ثم إنَّه من شأن الحب الطبيعي أن تكون الصـورة التـي حصـلت فـي خيال المحب على مقدار المحل الحاصلة فيه؛ بحيث لا يفضل عنها منه ما يقبل بـه شيئاً أصـلاً؛ وإن لـم يكـن كـذلك فمـا هـي صـورة الحـب. وبهـذا تخـالف صـورة الحـب سـائر الصـور، كمـا كانـت صـورة العـالم علـى قـدر الحضـرة الإلهية الأسمائية. فما في الحضرة الإلهية اسم إلهيّ إلا وهو علـى قدر أثره فـي نشـء العالَم، مـن غيـر زيـادة ولا نقصـان. ولهـذا كـان إيجـاد العالَم عن حب.

*

الحب الروحاني

وأمَّا الحبُّ الروحاني فخارج عن هذا الحدّ، وبعيد عن المقدار والشكل. وذلك أن القوى الروحانية لها التفاتٌ نسبيٌّ، فمتى عمَّت النِسَب في الالتفاتات بين المحبّ والمحبوب، عن نظر أو سماع أو علم، كان ذلك الحبَّ؛ فإن نقص ولم تستوف النِسَب لم يكن حبّاً. ومعنى النِسَب أنّ الأرواح، التي من شأنها أن تهب وتعطي، متوجهةٌ على الأرواح التي من شأنها أن تأخذ وتمسك. وتلك تتألَّم بعدم القبول؛ وهذه تتألَّم بعدم الفيض. وإن كان الفيض لا ينعدم، إلا أنّ كونه لم يكمل شروط الاستعداد والزمان سَمَّى ذلك الروح القابل عدم فيض؛ وليس هذا بصحيح. فكلٌّ واحد من الروحين الواهب والقابل مستفرغُ الطاقة في حب الآخر. فمثلُ هذا الحب إذا تمكن من الحبيبين، لم يَشْكُ المحبّ فرقة محبوبه لأنّه ليس من عالم الأجسام ولا الأجساد، فتقع المفارقة بين الشخصين، أو يؤثّر فيه القربُ المفرط. كما فعل في الحب الطبيعي. فالمعاني لا تتقيَّد ولا تتحيَّز، ولا يتخيَّلها إلا ناقصُ الفطرة فإنَّه يصوِّر ما ليس بصورة. وهذا هو حبُّ العارفين الذين يمتازون به عن العوامِّ أصحابِ الاتحاد. فهذا محبٌّ أشبه محبوبه في الافتقار. لا في الحال والمقدار. ولهذا يعرف المحب قدر المحبوب، من حيث ما هو محبوب.

*

الحب الإلهي

وأمَّا الحب الإلهي فمن اسمه تعالى «الجميل» و«النور». فيتقدَّم «النور» إلى أعيان الممكنات فينفِّر عنها ظلمة نظرها إلى نفسها وإمكانها، فيحدث لها بصراً هو بصره، إذ لا يُرَى إلا به. فيتجلَّى الحق تعالى لتلك العين

بالاسم «الجميل» فتتعشق به؛ فتصير عين ذلك الممكن مظهراً له. فتبطن العينُ من الممكن فيه تعالى، وتفنى عن نفسها فلا تعرف أنها محبَّة له ـ سبحانه ـ؛ أو تفنى عنه بنفسها، مع كونها في الواقع على هذه الحالة، فلا تعرف أنها مظهر له سبحانه.

وتجد من نفسها أنها تحب نفسها. فإن كل شيء مجبول على حب نفسه؛ وما ثَمَّ ظاهر إلا «هُو» في عين الممكن. فما أَحبَّ الله إلا الله!

والعبد لا يتصف بالحب إذ لا حكم له فيه، فإنَّه ما أَحبَّه منه سواه ـ تعالى ـ الظاهرُ فيه: وهو سبحانه، «الظاهر». فلا تعرف عين الممكن أيضاً أنها محبة له. فتطلبه وتحب أن تحبه، من حيث إنها ناظرة إلى نفسها بعينه؛ فنفس حبها أن تحبه، هو بعينه حُبّها له. ولهذا يوصف هذا «النور» بأنه له أشعّة، أي أنه «شعشعاني» لامتداده من الحق إلى عين الممكن ليكون مَظْهراً له. فإذا جمع من هذه صفته بين المتضادّات في وصفه، فذلك هو صاحب الحب الإلهي، فإنه يؤدي هذا الحبُّ إلى إلحاقه بالعدم عند نفسه، كما هو في نفس الأمر.

فعلامة الحب الإلهي حبُّ جميع الكائنات، في كل حضرة معنوية أو حسية أو خيالية أو متخيَّلة. ولكل حضرةٍ من هذه الحضرات عينٌ من اسمه، تعالى، «النور» تنظر بها إلى اسمه «الجميل»؛ فيكسوها ذلك النورُ حُلَّةَ وجودٍ. فكل محب ما أَحبَّ سوى نفسه. ولهذا وصف الحق نفسه بأنه يحب المظاهر. والمظاهر عَدَمٌ في عينٍ. وتعلُّقُ المحبةِ إنَّما يتحقق بما ظهر، وهو تعالى الظاهر فيها. فتلك النسبة بين الظاهر والمظاهر هي الحب. ومتعلّق الحب إنما هو العدم؛ فمتعلّقُها هنا الدوام والدوام ما وقع فإنه لا نهاية له، وما لا نهاية له لا يتصف بالوقوع.

ولمَّا كان الحب من صفات الحق حيث قال: «يحبهم»، ومن صفات الخلق حيث قال: «ويحبونه»، اتصف الحب بالعزة لنسبته إلى الحق

ووَصْفِ الحق به. وسرى الحب في الخلق بتلك النسبة العِزِّيَّةِ، فأورثت هذه النسبة في المحل ذِلَّة من الطرفين. فلهذا ترى المحب يَذِلُّ تحت عزِّ الحُب، لا عزِّ المحبوب. فإنَّ المحبوب قد يكون مملوكاً للمحب، مقهوراً تحت سلطانه، ومع هذا نجده يَذِلُّ له المحبُّ. فعَلِمْنا أنَّ تلك العِزَّة هي عِزَّةُ الحب، لا عزَّة المحبوب!

*

(...) فالمحبُّ في حكم الحبِّ، لا في حكم المحبوب! ومَن هي صفته عينه، فعينه تحكم عليه لا أمرٌ زائد، فلا نقصٌ. غير أَنَّ أمره في المخلوقين التلاشي عند استحكامه، لأنه يقبل التلاشي. فلهذا يتنوَّع العالَمُ في الصور، فيكون في صورة فإذا أفرط فيها الحبُّ من حيث لا يَعْلَمُ، وحصل التجلِّي من حيث لا يَظْهَرُ، تلاشت الصورة وظهرت في العين صورة أخرى، وهي أيضاً مثل الأولى في الحكم راجعةٌ إليه. ولا يزال الأمر كذلك دائماً لا ينقطع. ومن هنا غلط من يقول: إن العالَم لابُدَّ له من التلاشي، ومن نهاية علم الله في العالَم حيث وصف نفسه بالإحاطة في علمه بهم.

ثم إنَّه من كرمه سبحانه، أن جعل هذه الحقيقة، الحب، ساريةً في كلِّ عينٍ ممكنٍ متصفٍ بالوجود، وقرن معها اللذة التي لا لذة فوقها فأحبَّ العالَمُ بَعْضُهُ بعضاً.

*

كأس الحب هو القلب من المحبِّ، لا عقله ولا حِسُّه. فإنَّ القلب يتقلَّب من حال إلى حال، كما أنَّ الله الذي هو المحبوب: «كلَّ يوم هو في شأن». فيتنوَّع المحبُّ في تعلُّق حبه بتنوُّع المحبوب في أفعاله، كالكأس الزجاجيِّ الأبيض الصافي يتنوَّع بحسب تنوُّع المائع الحالِّ فيه. فلون المحب لون محبوبه، وليس هذا إلاَّ للقلب. فإن العقل من عالَم التقييد، ولهذا سُمِّي عقلاً من العِقال؛ والحِسُّ فمعلوم بالضرورة أَنَّه من عالَم التقييد. بخلاف القلب.

*

(...) وذلك أن الحب لـه أحكامٌ كثيرةٌ، مختلفةٌ، متضـادَّةٌ؛ فـلا يقبلـها إلاَّ مَن في قوته الانقلابُ معه فيها: وذلك لا يكون إلاَّ للقلب.

(...) وشرابه أي الحب عين الحاصل في الكأس. وقد بيَّنا أن «الكأس» هو عين المَظْهَرِ؛ فالشرابُ عينُ الظاهر فيه؛ والشُرْبُ ما يحصل من المتجلِّي للمتجلَّى له.

*

دُعيت فلم أجب، فسكرت.

*

الوجود في الآن.

*

من كنته فإنه يكونُك.

*

العرش ظل الله، والإنسان العرش.

*

من لا سفر له، لا زاد له.

*

عجبتُ لمن عرف الله كيف أطاعه.

*

رجال الله كالسراب.

*

من لم تكن له جهة، كان وجهاً كُليّاً.

*

من هربَ من الخلق إلى الله، ما عرف الله.

*

لا يكون ربّاً حقيقةً، من لم يكن عبداً.

*

الحريّة عبوديّة كاملة.

*

من ارتحل، لم ينتقل.

*

التلذذ بالكلام حجاب.

*

الإنسان ساعته، وساعته نفسه.

*

غرائب الأمر عند الغرباء.

*

الرجل من جعل نفسه سفينة نوح.

*

الرجل من كانت له رِجْلان ولم يَسْع بهما.

*

الرجل من لا ينتظر.

*

من استعمل طبعه وصل إلى الله مستريحاً.

*

المظلوم حيٌّ قيّوم.

*

الإنسان هو المقصود من الوجود.

*

لا تدرك الأبصار الهواء لكونها سابحة فيه. فمن كان في قبضة شيء فإنه لا يدرك ذلك الشيء.

*

انسَ ما علمتَ وامحُ ما كتبتَ وازهدْ في ما جمعتَ.

*

الحق بحرٌ قعره الأزل وساحله الأبد، فاركب سفينة ذاتك ولا ترفع شراعاً، فإن الغرض طلب الساحل ولا ساحل، فاترك الموج يسيرك فإني أخاف عليك من الشراع.

... ليس العجب من هذا البحر، وإنما العجب من الريح التي تموجه، ألا وإنّ الريح أنفاسك، فكل سفينة لا يكون ريحها منها فهي فقيرة، فعليك بوحي الماء.

*

ليس الناطق من كلّمك بصوته وحرفه وإنما الناطق من كان في قوّته أن يوصل إليك ما عنده من المعاني.

*

الاختراع حصول المخترَع في النفس أولاً، ثم بالفعل.

*

.. حبيبي كم أناديك فلا تسمع. كم أتراءى لك فلا تبصر. كم أندرج لك في الروائح فلا تشمّ، وفي الطعوم فلا تطعم لي ذوقاً. مالك لا تلمسني في الملموسات؟ مالك لا تدركني في المشمومات؟ مالك لا تبصرني؟ مالك لا تسمعني؟ مالك مالك مالك؟ أنا ألذ لك من كل ملذوذ. وأنا أشهى لك من كل مشتهى. أنا أحسن لك من كل حسن. اعشقني، هِمْ فيَّ لا تهمْ في سواي. ضمّني، قبّلني. كلٌّ يريدك له، وأنا أريدك لك. أنا أقرب إليك من

نفسك. حبيبي، أغار عليك منك. لا أحبّ أن أراك عند الغير ولا عندك، كن عندي بي.

*

حبيبي، انظر إلى حظك منك، فأنت عين الدنيا والآخرة. فإن رأيتك ثمّ، فاعلم أنك مطرود وخلف الباب طريح حظك يدركك، فلا تَسْعَ له حبيبي. لا تغب عنه فيفوتك. غب به عنك.

*

الأسفار ثلاثة: سفر من عنده، وسفر إليه، وسفر فيه. وهذا السّفر فيه هو سفر التيه والحيرة. وسفر التيه لا غاية له.

*

حضرة الخيال هي الحضرة الجامعة الشاملة.

*

العمل يطلب المكان، والعلم يطلب المكانة.

*

الخيال هو أول مبادئ الوحي الإلهي.

*

كان النبي إذا أوحي إليه، أُخذ عن المحسوسات المعتادة . فسجّي وغاب عن الحاضرين عنده: فإذا سُرّي عنه رُدّ. فما أدركه هو في حضرة الخيال. إلا أنه لا يسمّى نائماً.

الهدى هو أن يهتدي الإنسان إلى الحيرة، فيعلم أن الأمر حيرة، والحيرة قلق وحركة، والحركة حياة. فلا سكون، فلا موت؛ ووجود فلا عدم.

*

ثم اشتق له منه شخصاً على صورته سماه امرأة، فظهرت بصورته، فحنّ إليها حنين الشيء إلى نفسه، وحنّت إليه حنين الشيء إلى وطنه.

والصورة أعظم مناسبة وأجلّها وأكملها: فإنها زوج، أي شفعت بوجودها الرجل فصيرته زوجاً. فظهرت الثلاثة: حق، ورجل، وامرأة. فحن الرجل إلى ربّه الذي هو أصله حنين المرأة إليه. فحبّب إليه ربّه النساء كما أحب الله من هو على صورته.

... ولما أحب الرجل المرأة طلب الوصلة، أي غاية الوصلة التي تكون في المحبة، فلم يكن في صورة النشأة العنصرية أعظم وصلة من النكاح. ولهذا تعم الشهوة أجزاءه كلها. ولذلك أُمر بالاغتسال منه، فعمّت الطهارة كما عمّ الفناء فيها عند حصول الشهوة. فإن الحق غيور على عبده أن يعتقد أنه يلتذّ بغيره، فطهّره بالغسل ليرجع بالنظر إليه في من فني فيه، إذ لا يكون ذلك. فإذا شاهد الرجل الحق في المرأة كان شهوداً في منفعل، وإذا شاهده في نفسه، من حيث ظهور المرأة عنه، شاهده في فاعل، وإذا شاهده في نفسه من غير استحضار صورة ما تكون عنه كان شهوده في منفعل عن الحق بلا واسطة. فشهوده للحق في المرأة أتمّ وأكمل، لأنه يشاهد الحق من حيث هو فاعل منفعل، ومن نفسه حيث هو منفعل خاصة. فلهذا أحب، (ص)، النساء لكمال شهود الحق فيهن، إذ لا يشاهد الحق مجرداً عن المواد أبداً، فإن الله، بالذات، غنيّ عن العالمين. وإذا كان الأمر من هذا الوجه ممتنعاً، ولم تكن الشهادة إلا في مادة، فشهود الحق في النساء أعظم الشهود وأكمله. وأعظم الوصلة النكاح، وهو نظير التوجّه الإلهي على من خلقه على صورته ليخلفه، فيرى فيه نفسه، فسوّاه وعدله ونفخ فيه من روحه الذي هو نفسه، فظاهره خلق وباطنه حق.

*

الإنسان قديمٌ مُحْدَثٌ موجودٌ معدومٌ .

*

العلم عبارة عن حقيقةٍ تتعلَّقُ بالمعدوم والموجود على حقيقته التي هو عليها.

*

العدمُ المحضُ لا يُتَصوَّرُ تعلُّقُ العلم به لأنَّه ليس على صورة ولا مقيّد بصفة ولا له حقيقة تتضبط إلا النفي المحض والنفي المحض لا يحصل منه في النفس شيء إذ لو حصل لكان وجوداً والعدم من جميع الجهات لا يكون وجوداً أبداً.

*

مَنْ وُجِدَ على صورة شيء فذلك الشيء أيضاً على صورته. فبنفس ما يرى صورته رأى مَن هو على صورته وبنفس ما يَعْلَمُ نفسه عَلِمَ مَنْ هو على صورته.

*

(...) الإنسان نسختان نسخة ظاهرة ونسخة باطنة. فالنسخة الظاهرة مضاهية للعالم بأسره، والنسخة الباطنة مضاهية للحضرة الإلهية. فالإنسان هو الكُلّيُّ على الإطلاق والحقيقة إذ هو القَابِلُ لجميع الموجودات قديمها وحديثها وما سواه من الموجودات لا تقبلُ ذلك.

(...) فصارَ الإنسانُ جامعاً لله الحمد على ذلك فما أشرفها من حقيقة وما أطهره من موجود وما أخسها وما أدنسها في الوجود إذ كان منها محمّد وأبو جهل وفرعون.

*

لا يجوز أن يُقال فيه سبحانه ما هو إذ لا ماهيَّة له ولا كيف هو إذ لا كيفيّة له.

*

(...) فأوَّلُ تكوين في الأرض المعادن ثمّ النبات ثم الحيوان ثم الإنسان، وجعل آخر كُلِّ صِنْف من هذه المكوَّنات أولاً للذي يليها. فكان آخر المعادن وأول النبات الكمأة وآخِر النبات أول الحيوان النَّحلة وآخر الحيوان وأوَّل الإنسان القرد.

*

نقطة الدائرة أصل في وجود المحيط.

*

الوَجْدُ الحاصلُ عن التَّواجُدِ لا يُعوَّلُ عَلَيه.
والوجودُ الذي يكونُ عن مثلِ هذا الوَجْدِ لا يُعَوَّلُ عليه.

*

الواردُ المنتظرُ لا يُعَوَّلُ عليه.

*

الإطِّلاعُ على مَسَاوي العالمِ لا يُعَوَّلُ علَيه.

*

نَظَرُ الخَلْقِ بعينِ الحقِّ معَ التسليمِ لا يُعَوَّلُ عليه.

*

الحرَكَةُ عندَ سَماع الألحانِ المسْتَعْذَبةِ وعَدَمُها عندَ عدمِ هذا السَّماعِ لا يُعَوَّلُ عليها.

*

الإقامةُ على حالٍ واحد نَفَسيْن فَصاعِداً لا يُعوِّلُ عليه أَكابِرُ الرجال.

*

كلُّ فَنٍّ لا يُفيدُ علماً لا يُعَوَّلُ عليه.

*

الأُنسُ باللهِ في الخلوةِ والاستيحاشُ في الجَلْوَةِ لا يُعَوَّلُ عليه.

*

تعظيمُ الحقِّ في بعضِ الأشياء لا يُعَوَّلُ عليه.

*

المظهرُ الإلهيُّ إذا تَقَيَّد في نفسِهِ لا يُعَوَّلُ عليه، فإن المظهرَ الإلهيَّ لا يتقيد إلاّ في نَظَرِ الناظِرِ لا في نفسهِ وإدراكُ الفرقِ بينهما عَسِرٌ جداً.

*

اتخاذُ الحقِّ دليلاً على وجودِ الخَلْقِ لا يَصِحُّ فَلا يُعَوَّلُ عليه، لأن الخَلْقَ لا يكونُ غايةً فليسَ وراءَ اللهِ مَرْمَى.

*

وجودُ الحقِّ في القلبِ لا يُعَوَّلُ عليه.

*

الجوعُ لا يُعَوَّلُ عليه.

*

ما أَنْتَجَهُ الفكرُ من مَعْرِفَةِ اللهِ لا يُعَوَّلُ عليه.

*

القناعةُ في العلمِ الإلهي لا يُعَوَّلُ عليها.

*

جميعُ ما يرِدُ عليك وأَنتَ تجهل أصلَه لا تُعوِّلْ عليه.

*

الظنُّ لا يُعَوَّلُ عليه.

*

كل محبَّةٍ لا يُؤثِرُ صاحبها إرادةً محبوبِهِ على إرادته فلا يُعَوَّلُ عليها.

*

كلُّ حبٍّ لا ينتجهُ إحسانُ المحبوبِ في قلبِ المحبّ لا يُعَوَّلُ عليه.

*

كلُّ حبٍّ يُعْرف سبَبُه فيكون من الأسبابِ التي تنقطع لا يُعَوَّلُ عليه.

*

كلُّ حبٍّ لا يتعلَّق بنفسِه وهوَ المسمَّى حبَّ الحبِّ لا يُعَوَّلُ عليه.

*

كلُّ حبٍّ لا يُفنيكَ عنكَ ولا يتغيّرُ بِتَغَيُّرِ التجلِّي لا يُعَوَّلُ عليه.

*

كلُّ حال يدومُ زَمانيْن لا يُعَوَّلُ عليه.

*

كلُّ تمكينٍ لا يكونُ في تلوينٍ لا يُعَوَّلُ عليه.

*

كلُّ تَلوينٍ لا يُعطي صاحبَه زيادةَ علمٍ باللهِ فلا يُعَوَّلُ عليه.

*

كلُّ حضورٍ لا يتعينُ لكَ في كل شيء لا يُعَوَّلُ عليه.

*

كلُّ غيبةٍ لا يَرْجعُ صاحبُها بِفائدةِ علمٍ إلهيّ لا يُعَوَّلُ عليها.

*

كلّ سُكرٍ لا يكونُ عنْ شُرْبٍ لا يُعَوَّلُ عليه.

*

كلّ ذوقٍ لا يكونُ عن تَجَلٍّ لا يُعَوَّلُ عليه.

*

كل بقاء يكون بعده فناء لا يُعَوَّلُ عليه.

*

كلُّ فَناءٍ لا يعطي بقاءً لا يُعَوَّلُ عليه.

*

كلّ جمعٍ لا يُعْقَل معه فَرْقٌ في حالِ وجودِه لا يُعَوَّلُ عليه، وهو جَهْل.

*

كلّ فَرْقٍ لا يُميِّزكَ عنهُ ولا يُميِّزه عَنكَ بِما لا تَعلم بلْ تَجِدُ التمييزَ ولا تدري بماذَا لا يُعَوَّلُ عليه.

*

كلّ صَحْوٍ يكون عن سُكْر لا يُعَوَّلُ عليه، فإنّ سكران الحقّ لا يصحو.

*

كلّ نَفَسٍ لا تنشأ منه صورةٌ تشاهدُها لا يُعَوَّلُ عليه.

*

كلّ يقينٍ يكون معهُ حركةٌ لا يُعَوَّلُ عليه.

*

كلّ تفكُّرٍ لا يُعَوَّلُ عليه.

*

كلُّ تجريدٍ لا يُعَوَّلُ عليه.

*

السّفَر إذا لمْ يكن معه ظَفَرٌ لا يُعَوَّلُ عليه.

*

الحريةُ إذا لم تُعْطِ الكرَمَ لا يُعَوَّلُ عليها.

*

الحزنُ إذا لم يصحَبِ الإنسانَ دائماً لا يُعَوَّلُ عليه.

*

النصيحةُ في المَلأ فَضِيحةٌ فَلا لا يُعَوَّلُ عليها.

*

أَحدِيَّةُ حَمْدِ الواحدِ في وَحْدانيَّتِهِ،
وَحْدَانِيّة حَمْدِ الأحدِ في أَحدِيَّتهِ،
فَرْدِيَّة حَمْدِ الوِتْرِ في وِتْرِيَّتِهِ،
وِتْرِيَّةُ حَمْدِ الفَرْدِ في فَرْدِيتَّهِ،

الله أكبرُ استدرَك الناظرُ النظرَ، وقف الخاطرُ بِهذَا حينَ خَطَرَ، لاحَ بالتضمين لا بالتصريحِ وجودُ البَشَرِ،

وَحْدَانيّة حَمْدِ الواحِد في إثْنينيته،
فَرْدِيّة حَمْدِ الفَرْدِ في زَوْجِيَّتِه،
وِتْرِيَّة حَمْدِ الوِتْرِ في شَفْعِيّته،

وبقي حَمْد الأحدِ أحداً في أحدَيَّتِهِ صلّى الواحدُ سُبْحانَه بتسبيحِهِ على الإنسان الواحِد محمدٍ الخارجِ بعدَ الضربِ الموقوفِ على صناعَةِ العدَدِ وهكذا الفرْدُ والوِتْرُ ما عدا الأحدَ فَإذاً عادتِ الصلاةُ عليهِ لَمَّا لم يَجِدْ مَن يستندُ إليه وسلَّمَ من هذا المَقامِ تَسْلِيماً.

*

الأحدِيَّة مَوْطِنُ الأحد عَلَيْها حجابُ العزَّةِ لا يُرْفَعُ أبداً فَلا يراهُ في الأحدية سِواهُ لأنَّ الحقائقَ تأبَى ذلك.

وَاعْلَمُوا أنَّ الإنسانَ الذي هوَ أكْملُ النَسخِ وأتمُّ النَّشْآتِ له مخلوقٌ على الوَحِدانيَّةِ لا عَلَى الأحدِيَّةِ لأنّ الأَحدِيَّةَ لها الغِنَى على الإطلاقِ

فالواحدُ لاَ يَقْوَى وَلاَ يَصِحُّ هذا المعْنَى عَلَى الإنسانِ وهو واحدٌ،

فالوَحْدَانِيَّة لا تَقْوَى قُوَّةَ الأحدِيَّة فكذلك الواحدُ لا يُنَاهضُ الأحدِيَّةَ لأن الأَحدِيَّةَ ذاتِيَّةٌ للذاتِ الهويِّةِ والوَحْدانِيَّةُ اسمٌ لَهَا سَمَّتْها به التَّثْنِيَةُ

ولهذا جاء الأحدُ في نَسَبِ الرَّبِّ ولم يَجِئِ الواحِدُ وجاءتْ معهُ أَوصافُ التنزيهِ فقال اليَهودُ لمحمدٍ عليه السلامُ: انْسُبْ لَنا رَبَّكَ. فأَنْزَلَ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾* فجاء بِالنَّسَبِ ولم يقولوا صِفْ وَلا انْعَتْ.

ثمَّ إنَّ الأحديَّة قَدْ أُطْلقتْ عَلَى كلِّ مَوْجودٍ مِنَ إنسانٍ وغيرِهِ لِئَلّا يَطْمَعَ فيها الإنسانُ فقالَ تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾**.

وقد أشْرَكَ المُشْرِكُونَ مَعَهُ الملائكةَ والنجومَ والأناسِيّ والشياطينَ والحيواناتِ والشجرَ والجماداتِ فصارتْ الأحدِيَّةُ ساريَةً في كل موجودٍ فَزَالَ طَمَعُ الإنسانِ من الاختصاصِ وإِنَّما عمتْ جميعَ المخلوقاتِ الأحدِيَّةُ للسَّرَيانِ الإلهيِّ الذي لا يَشْعُر بِهِ خَلْقٌ إلا مَنْ شاءَ الله.

وقضاؤهُ لاَ سَبيلَ أن يكونَ في وُسْعِ مخلوقٍ أن يَرُدَّهُ فهو ماضٍ نافذٌ

فَمَا عَبَدَ عابِدٌ غيرَهُ سبحانَه، فإذاً الشَّرِيكُ هُوَ الأحدُ وليسَ المعبودُ هو الشخْصُ المنصوبُ وإِنَّما هُوَ السرُّ المطلوبُ وهو سِرُّ الأحدِيَّةِ وهو مطلوبٌ لاَ يُلْحَقُ وإِنَّما يَعْبُدُ الربَّ والله تعالَى الجامعُ.

فأمَّا حَوَّاءُ عليهَا الصلاةُ والسلامُ فَمِنَ الوَحْدَانِيَّةِ لأنَّ الفَرْدَ لَم يعلَمْ حتى استيقَظَ،

وخُلِقَتْ كاملةً على صُورَتِهَا مِنْ حَيٍّ نائمٍ كما خلق آدمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ على صُورتِهِ من غَيْرِ مَزيد تَعَقلِ نَفْسه فِيها.

---

* سورة الإخلاص، آية 1.

** سورة الكهف، آية: 110.

وكانت الشهوةُ النِّكاحيَّةُ في الموْضِع الذي عَمَرَتْهُ حواءُ حينَ خَرَجَتْ، فإنه ليسَ في الوجودِ خَلاءٌ، فأَثْبَتَ الشهوة الموْضِعَ لنزولِ حَوَّاءَ فيهِ،

ونزلتْ بالمَوْضِعِ الذي خرجَتْ منه حواءُ مِن آدمَ فَعَمَرَ الموضعَ وخَرَجَتِ الشهوةُ فيه أقْوَى مِمَّا جَرَتْ في حَوَّاءَ،

فإنَّ حواءَ عليها موْضِعُ الشهوةِ، فالنساءُ أَغلبُ علَى شَهَوَاتِهِنَّ من الرِّجالِ، فإنَّ الشهوَةَ في الرجل بِذاتِها وفي المرأَةِ بِمَا بَقِيَ من آثارِ رحْمَتِها في موطِنِهَا الذي عَمَرَتْه

وكانتِ الشهوةُ كالثوْبِ عَلَى حوّاءَ من أَجْلِ صورةِ الموضعِ وانْفَشت الشهوةُ في آدمَ فَعَمَّتْهُ جميعاً،

ولهذا تَعُمُّ شهوةُ الجماعِ عندَ الإنزالِ جميعَ البدَنِ،

ولهذَا أمرَ بتَطْهِيرِ جميعِ البَدَنِ فإنَه فَنِيَ بكُلِّيَّتِهِ في تلكَ اللحظةِ فأَمَرَ بِتَطْهِيرِ كُلِّيَّتِهِ من ذلكَ لأجْل مُنَاجاةِ الحَقِّ تعالَى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾* فآدمُ فَرْدٌ وحواءُ واحدٌ وواحدٌ في الفَرْدِ ولهذَا تكونُ المرأَةُ أقْوَى في سَتْرِ المَحَبَّةِ منَ الرَّجُلِ، ولهذَا هيَ أَقْرَبُ إلى الإجَابةِ وأصْفى محلاً، كلّ ذلكَ منْ أَجْلِ الوَحْدَانِيَّة.

ولَمَّا كانَ الفردُ لاَ يكونُ إلاَّ بعْدَ ثُبوتِ الإثْنينِ ضَعُفَ عن عزَّةِ الوحدانيةِ فقال: ﴿لا تَذَرْنِي فَرْداً﴾** فلا تَقل إنه طَلَبَ الرجوعَ إلى الوَحْدانيةِ فإن ذلكَ لا يَصِحُّ لأمْرَيْنِ: الأمْرُ الواحِدُ أَنهُ فَرْدٌ لاَ وَاحِدٌ والثاني أنْ الله استجابَ دُعاءَهُ فقال: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾***. ولَمَّا وَهَبَ لَه زَوْجَه فَظَهَرَ

---

* سورة الطارق، الآية 7.

** سورة الأنبياء، الآية 89.

*** سورة الأنبياء، الآية 90.

فردٌ آخرُ وهُو يَحْيى، ثُمَّ أشارَ الحقُّ بوَحْدانيَّةِ المرْأةِ وفَرْدَانِيَّةِ الرجلِ وَقُوةِ المرأَةِ وضَعْفِ الرَّجُلِ بصورةِ الميراثِ

فأعْطَى الأكْثَرَ لِلأَضْعَفِ كَيْ يَقْوى مِنْ جِهَةِ الضّعْفِ ومِنْ جِهَةِ النَّشْءِ فإنَّ الوَحْدَانِيّ لا يَقْبَلُ إلاَّ مِثْلَهُ فأُعْطِيَ قِسْماً واحداً، والفردُ هُوَ عَيْنُ اثْنَينِ فهوَ ناظرٌ لِمَا هو عنه فَأَخذَ قِسْمَينِ،

فمنَ الوَجْهَيْنِ مَعاً للمَرْأَةِ الثُلُث وللرَّجُلِ الثُّلُثَيْنِ إذَا لمْ يكُن سِوَاهُما.

فإنَّ الحكمَ ينتقلُ بانتقالِ الزائدِ والناقصِ ويَصيرُ على صُورَةِ وضْعِ المَسْألةِ فإنَّ الحكمَ أبداً إنما هو للمَوْطِنِ.

*

فنقولُ: للحروفِ ثلاثُ مراتِبَ من وجهٍ ما، وهي الحروفُ الفكريّة، والحروف اللفظيةُ، والحروف الرقميَّةُ.

والحروفُ الرقميةُ في الوضْعِ على رُتْبَتَين وضْعِ المفردِ وهيَ حروفُ أ ب ت ث، والوضْعِ المزدوجِ وهيَ حروفُ «أبي جاد» فالوَضْعُ المفرَدُ منه الحرفُ المركَّبُ وهي لام ألف فبقيَ ثمانيةٌ وعشرونَ حرفاً على عَدَد المنازِلِ، وعندَنا الألفُ لَيْسَت من الحروفِ.

وعند جابرِ بنِ حَيَّانَ أنَّ الألِفَ نِصْفُ حرفٍ والهمزةَ النّصْفُ الآخَرُ فالألِفُ والهمزةُ حَرْف.

*

وهذهِ الحروفُ لهَا وجوهٌ كثيرةٌ تكادُ لا تُحْصَى ولكلِّ وجهٍ خصوصُ أمرٍ لا يكونُ إلاَّ لَهُ بما هُوَ ذَلك الوَجْه.

ثمَّ إنَّ الحروفَ وإنْ كانتْ مُفْرَدَةً في الخَطِّ بالإصطلاح العربي وبعْضِ ما وَقَفنَا عليهِ منَ الأَقْلامِ فهي مُرَكَّبةٌ بعضُها منْ بعضٍ كالْياءِ في بعض خاصِّيتها من كونِها يَاءَ خاصِّيةِ الذَّالِ ولذلكَ كانتْ بِنُقْطَتَينِ لكلّ نُقْطة،

وكذلكَ اللامُ مركَّبةٌ من أَلِفٍ ونونٍ. والنونُ مركبةٌ من زَايٍ وراءٍ. ففي اللامِ قوَّةُ الألِفِ والنون وزيادة عَلَى خاصِّيتهِ وفي النونِ قُوَّةُ الزايِ والراء كذلكَ.

وهكذا أيضاً في المخارجِ فإن الهواءَ انبعاثُه منَ الصدرِ إلى خارجِ الفَمِ فيتقطَّع في المخارجِ فَتَبْدو الحروفُ متميزة الذَّواتِ في حاسَّةِ السَّمْع. فالأولُ حرفُ الصَّدْرِ، والآخرُ حرفُ الشَّفةِ فَحَرْفُ الصَّدْرِ لاَ يُعْطِي سِوَى نفسِه خاصةً وهو أَصْلٌ وما عَدَاهُ إلى حرفِ الشَّفةِ الذي الواوُ آخرُها في مُقَابِله، فَفي الواوِ خواصُّ الحروفِ كلُّها وقُواها لأنه لا يظهرُ عنه عندَ انقطاعِ الهواءِ في مخرَجِه حتى يمشي ذلك الهواءُ على جميعِ المخارجِ كلِّها فحصَلَ فيهِ من قوَّةِ كلِّ حرفٍ، ثُمَّ تأخذُ ما سكتْنَا عنهُ منَ الحُروفِ على هَذا النَّحو.

وكلُّ حَرْفٍ من الحروفِ الرقْمِيَّةِ يَصِحُّ أن يكونَ أولاً وآخِراً ووَسَطاً وتتنوعُ خَوَاصُّه بتنوُّعِ هذه المَراتِب.

*

وكذلكَ أيضاً وإن كانتْ للحروفِ خَواصٌّ فبعضُها أكْثَرُ خاصِّيةً من بعضٍ، فليستْ تشْبِهُ الحروفَ الرقميَّةَ العربيةَ التي لَها الاتصالُ البعديّ، وليس لها الإتصالُ القَبْلِيُّ مِثْلُ الدَّالِ والذالِ والراءِ والزايِ والواوِ والألِفِ وغيرِها من الحروفِ مِمَّنْ لَها الاتصالاتُ، ولا يُشْبِهُ الحَرْفُ المُشَاكِلُ الفَلك كرأْسِ الميمِ والواوِ والحَرْفِ المشَبَّهِ لِمَا ظَهَرَ بِهِ من الفَلَكِ كالنونِ الخاصيّة. فلكلِّ صنفٍ من الحروفِ ومرتَبَةٍ فضائلُ وأُمورٌ تختصُّ بهَا، والحرفُ يُشْبهُ الحرفَ من وجوهٍ كثيرةٍ.

فتارةً يُشْبِهُه من جهَةِ الصورةِ كالياء والباء إذا عُرِّيَا عن دَلِيلِهما وهوَ النَّقْطُ، وتارةً يُشْبِهُهُ من جهةِ أعدادِ بسائِطِه كالعينِ والغينِ والسينِ والشينِ وكالألفِ والزايِ واللامِ وكالنونِ والصادِ والضادِ وما بَقِيَ من حروفٍ يُشْبهُ

بَعْضُها بعضاً في هذهِ الحقيقةِ مِثْل هؤلاء، فإذا أخذوا مِن هذهِ الحروفِ ينوبُ كلٌّ واحدٍ عنْ صَاحِبِه في العَمَلِ، فينوبُ السّينُ مَنَابَ الشينِ، والعينُ مَنَابَ الغَيْنِ، وكذلكَ كلٌّ واحدٍ منهم، وإنما نَبَّهْنا عليهِ لأنْ قد يكونُ الحرفُ يُعْطي في العمَلِ معنىً وتفسيراً فتَنْظُر إلى شَبِيهِهِ في البَسائِطِ ممَّنْ يُعْطِي ضدَّه فتجعلُه بدَلَه فينجَحُ العملُ كالهاءِ مثلاً والواوِ فإن بَسائِطَهُما واحدةٌ بالعدَدِ وأفْلاكهُما كذَلكَ، فيكُونُ في الشكْلِ حرفُ الواوِ وهو باردٌ والبَرْدُ يُعْطِي البُطْءَ في الأشياءِ، وأنتَ تُحبُّ السرعَةَ فِيها فَتَأَخذ الهاء بَدَلَه الذي هو حرْفٌ حارٌّ أو الطاءَ أوِ الميمَ أوِ الفاءَ أو الذَّالَ.

*

كَمَا يكونُ معَ الحركةِ البركةُ الكَوْنيةُ فكذلكَ معَ السكونِ البَرَكةُ الإلهيةُ. السكونُ ثُبوتٌ عندَ الحقِّ والحركةُ خروجٌ فَقُلْ لأصحابِ السّماع ارقُصوا واعْلَموا أنكم رَاقِصُونَ واعْلَموا أنكم معَ نفوسِكم باقون.

*

كل مَنْ تَحَرّك، وقال: أشْهَدني الحقُّ وشَاهَدْتُه فهُوَ كاذِب.

*

تَعَلّمْ الخصامَ فإنَّ الحقَّ سَيَجْعَلُك بينَ المشْتَرِكِين فَلا تَتَخَلَّصُ مِنْهُم إلاَّ بالحُجَّة.

*

أصْلُ كلِّ حجابٍ وجودُ اللَّذَّةِ فيه.

*

لاَ تَسْبقُكَ الإناثُ إلى الحقّ فَيَنَلْنَ ذُكُورِيَّتكَ وتَنَالُ أنوثتهُنَّ.

*

ارجعْ إلى عَدَمِكَ فإنه وَصْفُ قِدَمِكَ فإن اللهَ رَاضٍ عنكَ فِيه.

*

مَنْ أطاعَ الحقَّ وماتَ فإنه لم يَمُتْ.

*

قالَ الشاهد: مَنْ طَلَبَ العلمَ فهوَ جَاهِلٌ ومَنْ تَرَكَ العِلْمَ فَهوَ جَاهِل.

*

يَقول مَنْ لا عِلْمَ لَه: الرؤيةُ تَابعُ العِلْمِ وهُمَا لا يَجْتَمِعان.

*

مَعْلُوم العِلْمِ الوجودُ ومَرْئيُّ الرُّؤيةِ الذات.

*

مَنْ قال لَكَ تَعَلَّمْ فقدْ قَتَلَكَ بِسَيْفِ الأبد.

*

العلمُ يَغْمُرُ مِنكَ مَا طَلَبْتَ إن تُخْلِيه وتُفْرِغْهُ لاطِّلاعِ الحقِّ فَلا تَتَعَلّم.

*

إذا عَمِلْتَ فَمُتَعَلّقُ عِلْمِكَ الحق أَو غيره تَعَلقُه بالحقّ مُحَالٌ وتَعَلُّقُه بالغَيْرِ حِجَاب، فأَنتَ بَعِيدٌ على كلّ حالٍ فَمَا لَكَ والعِلْم.

*

العلمُ ظُلْمَةٌ لا ظُلْمَ فِيها وليلٌ لاَ صُبْحَ لَه ومَنْ جابَ المَفَاوِزَ في الظَّلْماءِ زَادَ تِيهاً على تِيهٍ.

*

مَنْ أحبَّ شيئاً غَارَ عليه ومَنْ غَارَ فهُو معَ الحبِّ ولا مَعَ المحْبوب.

*

مَنْ أحبَّ الحقَّ وغارَ علَيه فما أحبَّه إلا في حضرة الخيالِ والحقُّ سبحانه لا يَدْخُل تَحْتَ سُلطانِ الوَهْم والخيالِ. نَعَمْ له في كلِّ حضرةٍ تَجَلٍّ فأَحِبَّه في تَجَلِّي هذهِ الحضْرَة.

*

من غَارَ على الحقِّ من نفسِه كالشّبليّ فَمَا عرفَ نفسَه.

*

مَنْ غارَ على الحقِّ لم يذكرْه وَمَنْ لَمْ يَذْكُرِ الحَقَّ لَمْ يَذكُرْهُ الحقُّ ومَنْ لم يذكُرْهُ فَهو مَبْعود.

*

أنتَ تحجبُك مُشاهدةُ المذكورِ عنِ الذكرِ والحقّ يَشْهَدُكَ ويَذْكُرُك.

*

غَرْ لِلحَقِّ وَلا تَغَرْ عَلَيه.

*

لا تكون الغَيْرَة حجاباً إلاَّ للعارِفِ وأمَّا لغيرِ العارِفِ فإنها له عينُ القُرْبِ ودَليلْه زَوالُ الغَيْرة عنه عندَ المعْرِفة.

*

عينُ قَلْبِكَ في المِثالِ كعَيْنِ وَجْهِكَ فَلا يُرَى إلاَّ بَعْدَ نفُوذِه السَّبْع الطِّباقِ التي جُعِلَتْ جُنَّةً بينه وبينَ الآفاتِ،

فَمَشِيمِيَّتهُ طَبَقَةُ كَوْنه،

وصَلْبِيتُه طَبَقَةُ وَصْفِه،

وشَبَكِيَّتُه طَبَقَةُ تَعَلُّقِه،

وعَنْكَبُوتيّته طَبَقَةُ تَداخُلِ الخواطِرِ عليه،

وعَيْنِيّتُهُ طَبَقَةُ تَخليصه وفي قَرْنِيَّتِهِ طَبَقَةُ زمانه

ومُلْتَحِمَتُهُ طَبَقَةُ وصْلَتِهِ بِمَا يَعْرف،

فإذا نَفَذَ هذهِ الطِّباقَ وتصفَّحَ هذهِ الأوراقَ حينئذٍ ينفذ إلى أول مَنْزِلٍ من منازِلِ الغيبِ وهُوَ مَنْزِلُ نورِ الضياء والظّلالِ التي يَقَعُ بوجودِهما الإدْراكُ والنعيمُ.

*

عينُ قَلْبِكَ وإِن أُعْطِيَ العِلْم فلاَ يَزَال خَلْفَ الحجابِ حتى يؤيِّدَهُ البَصَر.

*

أعْلَى معارِفِكَ التي في عَيْنِ قَلْبِكَ هي التي فطَرَهَا الحقُّ عَلَيها أوْ ما أعطاهَا الحسُّ بارتِفَاعِ المَوانِع.

*

في الحسِّ سِرُّ الحق في الخَلْق وهُوَ مَطْلَعُ الصِّدِّيقين.

*

إنما بَطنَ الحقُّ لِمَنْ ظَهَرَ له لئلاَّ يَفْنَى فإِنه مَنْ ظَهَرَ للحقِّ بنفسِه يَفنَى.

*

إِنما يَظْهَرُ الحقُّ لِمَنْ ظَهَرَ بِه فإِنه لا يَقْوَى علَى ظُهُورِه غَيْرُه.

*

الأزَلُ ينعقد عليهِ الأبد بما هو عَليه والخاتمةُ عَيْنُ السابقةِ فَلاَ تَكْتَرِث.

*

وقال أَنتَ في دارِ المِزَاجِ لأنكَ في عالَمِ الأمْشاجِ فَتَدَاخَلَتِ الصورُ في الصوَرِ وغابتِ الأشكالُ في الأشكالِ.

*

لِلْحَقِّ قَبْضَةٌ يَحْكُمُ فيها الأبد وله قَبْضَة يَحْكُم في القَنْطَرَة، فَمَنْ عَرَفَ سابِقَتَه عَرَفَ حَالَه في حَشْرِه.

*

الوَحْيُ سارٍ في الخَلْقِ معَ كَوْنِهِ مُتَفَاضِلاً.

*

عَلَيْكَ بوَحي الماءِ في حَقِّ نَفْسِكَ

وبوَحْي الخَمْرِ في حَقّ صِحَّتك
وبِوَحْي العسلِ في حَقّ رُوحك
وبِوحُي اللَّبنِ في حَقّ مَنْ يَبْلُغُه كَلامُك ولا يَرَاك فإنه أنْحَى وأرْجَأ وأنْجَى.

*

يُرِيدُ البصرُ أنْ يُدرِكَ لَوْنَ الماءِ والشَّفافةَ الغَالِبة في الصفاءِ فَلا يُدْرِكُها فإنه لو أدْرَكَها لَقَيَّدَهَا،

وذلكَ لأنها أشْبَهَتْهُ في الصفاءِ، والإدْرَاكُ لاَ يُدْرِكُ نَفْسَهُ لأنه في نَفْسِه ويُدْرِكُهَا فَهو البصَرُ المُبْصِرُ المُبصَر.

*

إذا نظر البصرُ إلى الشيء الصقيلِ فيرَى فِيه الصورَ فإدراكه للصورِ لاَ لِلْجسم الصقيلِ

لأنه لَو جَهِدَ أن يُدْرِكَ ما يُقابلُ الصورةَ التي في الصقيلِ، من الصقيلِ لم يقدِرْ لأن الصقيلَ لاَ يتقيَّد،

فإذا سُئِلَ مَا رأَى فَلا يقْدِرُ أن يقُولَ رَأَيْتُ الصقيلَ لأنه لاَ يَتَقَيَّد ولا يُحْكَمُ عليه بشيء.

وإن قال ذلك فهو جاهلٌ لا مَعْرِفَةَ لَه بما شاهَدَه، ولكنْ يقولُ رأَيْتُ فَيُخْبرِ عنِ الصَورةِ أو الصورةِ التي رَآها وهُوَ الصِّدْق، فقد عَزَّتْ هذه الأشياءُ عن إدراكِ البَصَرِ لكونِها مَخلوقَةً. ولكنّه أدركَ هذه الأشياءَ بغيرِ تقْيِيدٍ، وقُبولُ هذه الأشياء إلى البَصَر ذاتيٌّ لا يَنْفَكُّ عن صورةٍ البَتَّةَ عندَ رُؤيةِ الرائي وهي رؤيتُك.

*

اعْلَمْ أن العالَمَ بمجموعِه حَدَقَةُ عَيْنِ اللهِ التي لا تنام، والعُلْوِيَّاتُ جَفنها الفَوْقَاني، والسُّفْليَّاتُ جَفْنُها التَّحْتاني،

والتفرقةُ الملكية في العُلْوِيَّاتِ أهدابُ الجَفْنِ الفَوْقاني،

والسفلياتُ جَفْنه التحتاني، والنفسُ الكُليّةُ سوادُها، والروحُ الكُلِّي بياضُها، واللهُ تعالى نورُ هذهِ العينِ وإنما قلنا إن العُلْويَّاتِ والسُفليّاتِ أجفانُ العَيْنِ لأنّها تحافظ علَى ظهورِ النور.

فَلَوْ قُطِعَ جَفْنُ عينِ الإنسانِ لَتَفَرَّقَ نورُ عينه وانتشر، بحيث لا يَرَى شيئاً أصلاً، وكذلكَ العُلْوِيَّات والسُّفْلِيَّاتُ لَو ارْتَفَعَتْ لانْبَسَطَ نورُ اللهِ سبحانه بحيثُ لا يُدْرِكُ منه شَيئ أصلاً، ونعني بعينِ الله تعالى ما يَتَعَيّن سبحانه وتعالى فِيه، وهُوَ العالَمُ بمجموعِهِ.

*

قال السالك: فنادَتْني تِلْكَ العَيْن، أَيُّها الفَتَى إلى أَيْن، قال: قلت إِلى الأَمِير.

قالت: عليكَ بخِدْمَةِ الكاتبِ والوزِير، هما يُدْخِلاَنِكَ على مُرَادِك، وتَرى حَقِيقَةَ اعتِقَادِك.

قلتُ لها: وأينَ مَحَلُّ الكاتبِ والوزير؟ قالت: عَيْنُ نُزولِكَ عن السرِير، وتَجْرِيدك عن الأينيَّة، ونَزْعُك رداءَ الأمنيَّة، وخلعُكَ الإِلِّيَّة، ووقوفُكَ في الفَرْقِ والبَيْنُونِيَّة، ودخولُكَ في الطينية، فإنَّكَ لاَ تَرَى الواحدَ إلا بالوَاحِد، وهناكَ يتَّحِدُ الغائبُ والشاهِد (...).

*

قال السالكُ: اتفقت أمور وأسرار، غطى عليها إقرار وإنكار، جَلَّتْ عن العِبَارة، ودَقَّتْ عنِ الإشَارة.

وغايةُ العبارةِ عنها أن يقالَ قلتُ وقال، وانَعَدَمَ المَقامُ والحَال، ولم يبقَ مَثَلٌ وَلا ضِدّ، وَلاَ مَطْلَعٌ وَلا حَدٌّ، وذَهَبَتِ الجنَّةُ والنار، وفَنِيَتِ الظُلَمُ والأنوار. واتّحَدَ السؤال والجواب، وزالَ المكتوبُ والكِتَاب.

وكـان المجيـبُ هـو المُجـاب، ومضـتِ البحـارة وأحجارُهـا، والحقـائقُ وأزهارُها، ومَارتِ السماءُ وطُمِسَتْ أنوارُها،

فلم أرْجعْ إلى البَقاءِ بالحقّ، بَعْدَ ذَهَابِ العَيْن والمحْق، حتى وجَدْتُ في غَيابَاتِ لُبَابِ سِرٍّ أسرارِ روحِ مَعْنَى قلبِ النَّفس، ما كنتُ آملُهُ بالأمْس.

ثم تَوَّجني بتاجِ البَهَاء، وإكْلِيلِ السَّناءِ، وأفْرَغَ علَيَّ حُلَّةَ الكِبْرياء، وأذِنَ لي أن آذَنَ عَلَى سَواء، وذلك على الشرط الذي قد اشترطه في مناجاة حَضْرةِ الرّياح، والعقدِ الذي رَبَطْتُه بحضرةِ الجرسِ والجَناح،

فأَنا اليومَ أُنادِي وأُنادَى، وأُهادِي وأُهادَى، وأُسرِي ويُسْرَى إِليَّ، وأتوَكَّلُ ويُتوَكَّلُ عَلَيّ، ووهبَ لي كُلَّ حضرةٍ تحتَ عِلْمِي، يخترقُها السالكونَ إلى اسمِي، ولا يُدْرِكونَ مِني غيرَ مَا أَدْرَكْتُه، ولا يَمْلِكُ أَحدٌ منهم مِنْ وُجودِي سِوَى مَا مَلَكْتُه.

*

قال السالك: ثم قال لي ما تقول مَنْ هُوَ أنا في أنا.

قلت: وجُودُ البُغْيَةِ والمُنَى، والخَيْبَةِ والعنَا.

*

قال: فما تقول في هُوَ وذلك.

قلت: كِلاهما صِفَتَا المالِكِ غَيْبة وحضور، وظلامٌ ونُور، ومُخدرَاتٌ وخُدُور.

*

قال: فما تقولُ في التحامِ الأجسام.

قلت: نَتِيجةُ التحامِ الروحانيّة.

قال: فما تقولُ في التَّوَالُدِ والتناسل.

قلت: نتيجةُ التَّوَاصُلِ والتفاصُل.

*

قال: فما تقول في النشأةِ البَرْزَخِيَّة.

قلت: تلكَ الإلهيّة،

قال: فهل الإعادة أشرفُ منها.

قلت: لا يصحّ الإعادة فيها، ولا يُتَحَدَّثُ بذلك عنها، إنما ذلك في بَرزخِ الحافِرَة، المنصوب بين الدنيا والآخِرَة.

*

قال: فهل تصحّ العودِيةُ على البِداية؟

قلتُ: لا يكونُ ذلك في الحكمَة العدائيَّة.

قال: هل تعقل علَى أوانِ إخراجِ الذَّرِّ من الظَّهْر.

قلت له: كيفَ لاَ أعقلُ وأَنا أولُ الشهودِ في المَهْر.

*

قال: فهل تعرفُ قبلَ ذلك الميثاق الثاني؟

قلت: له في أولِ وجود التَّداني.

قال: فأَرَى ميثاقَين.

قلت: لاَ يكونُ غَيْر هَذَيْن.

*

ولَمَّا كانَ الإنسانُ نُسْخَةً جامِعَةً للموجوداتِ كانَ فيهِ من كلِّ موجودٍ حقيقةٌ، فتلكَ الحقيقةُ تنظُرُ إلى ذلكَ الموجودِ وبِها تقعُ الْمُنَاسَبَةُ وهيِ التي تَنزِلُ عليهِ. فمتَى ما أَوْقَفَكَ الحقُّ مع عالَمٍ مِنَ العَوالِمِ وموجودٍ مِنَ الموجوداتِ، فَقُلْ لذلكَ الموجودِ بِلِسانِ تلكَ الحقيقَةِ: أَنا مَعَكَ بِكُلِّيَّتي ليسَ عندِي غيركَ وأَنْتَ صادقٌ أَنا مَعَكَ بالذاتِ ومعَ غَيْرِكَ بالعَرَضِ. فإنه

يصْطَفِيكَ ويُعْطِيكَ جَمِيعَ ما في قوَّتِهِ من الخواصّ والأَسرارِ. هكذا مَعَ كلِّ موجودٍ، ولا يقدِرُ على هذا الفعلِ إلاَّ حَيّ يحصلُ في هذا التجلِّي التي هيَ مَعِيَّةُ الحَقّ تعالَى معَ عِبادِهِ. فإِذَا تَجَلَّى في هذِهِ المَعِيَّةِ عَرَفْتَ كيفَ يتصرف في ما ذَكَرْتُه لَكَ.

*

تَنَوَّعتِ الصورُ الحسيَّةُ، فتنوعتِ اللطَائِفُ، فتنوعَتِ المآخِذُ، فتنوَّعتِ المعارِفُ، فَتَنوَّعتِ التَجَلِّياتُ، فوقعَ التحوّلُ والتبدّلُ في الصُوَرِ في عيونِ البَشَر،

ولا تَعَايُنَ إلاَّ مِنْ حَيْثُ المعْلَم والْمُعْتَقَد، واللهُ أجلُّ وأَعزُّ مِنْ أنْ يُشْهَد.

*

جلَّ جنابُ الحقِّ العزيزِ عَنْ أن تُدْرِكَه الأبصارُ فكيفَ البَصَائرُ فأقامَهم في الْحَيْرَةَ

فَقَالُوا زِدْنَا فِيكَ تَحَيُّراً إذ لا تحيرهم إلاّ بِمَا يَتَجَلَّى لهم فيطمعُونَ في ضَبْطِ مَا لا يَنْضَبِطُ فيحارون، فَسُؤالهم في زيادَةِ التحيُّرِ سؤالُهم في إِدَامَةِ التَّجلِّي.

*

دارُ المِزاح يُشْبِهُ نُطْفَة الأمْشاج، فما أردأ ما يكونُ بينهما النّتاج،

لكنَّ الحقَّ جعل للشقيّ دلالةً وللسعيد دلالة وَجَعَلَ للوصولِ إليهما عَيْناً مخصوصَة في أشخاصٍ مَخْصوصِين ونُوراً مَخصوصاً مِنْ حضرَةٍ مخصوصَةٍ إلهيَّةٍ

فإِذَا كُشِفَ غِطاءُ الأوهامِ عنْ هذهِ العينِ وطَرَدَ ذلكَ النورُ المخصوصُ ظلامَ الأجسامِ عن هذا الكونِ

أدركَتِ الأبصارُ بتلكَ الأنوارِ علاماتِ الأشقياءِ والأبرار، واستعجلت قيامتهم لما تخلصوا وأخلصُوا.

*

لـلأَرْوَاحِ الإنسـانيَّة إِذا صَـفَتْ وَزَكَـتْ معـارجُ فـي العـالَمِ العُلْـوِيّ المُفَـارِقِ وغيْرِ الْمُفَارِقِ

فتنظرُ مناظِرَ الروحانياتِ المفارقة فتَرى مواقعَ نَظَرِهِم في أَرْوَاحِ الأفلاكِ ودَوَرَانِها بِها

فينـزِل مـعَ حُكْمِ الأدوارِ وتُرسلُ طَرْفَها فـي رَقَائِقِ التنزلاتِ حَتَّى مَسـاقِطِ نجومِها في قلوبِ العِبادِ

فتَعْرِف ما تحويـهِ صـدورُهم وما تَنْطَـوِي عليـهِ ضـمائِرُهم ومـا تـدُلُّ عليـهِ حَرَكاتُهم، فَطُرُقُ عِلْمِ الغَيْبِ كَثِيرَة.

*

إِذَا توجَّهتِ الأسرارُ نحوَ قارئِها بِفَنَاءٍ وَبَقَاءٍ وجَمْعٍ وفَرْقٍ، سَقَطَتْ علَيْها أنوارُ الحَضْرَةِ الإلهيَّةِ مِنْ حَيثُها لا مِنْ حيثُ الذاتُ فأشرقَتْ أَرْضُ النفوسِ بين يَدَيْهِ فالتفتَ فعلِمَ ما أدْركَه بصرُه وأخْبَرَ بالغُيوبِ وبالسِّرائِرِ وبِمَا تكنُّه الضَّمائرُ ومَا يَجْرِي في الليلِ والنَّهار.

*

إِذَا اسْتَوَتْ بِنْيَةُ الجَسَدِ على أَحْسَنِ ترتيبٍ وأَلْطَفِ مِزاجِ ولم تكنْ فِيها تلكَ الظُّلْمَةُ التي تَعْمِي البَصائرَ

ثُمَّ توجَّهَ عليهِ النفخُ الإلهيُّ من الروحِ القُدُسِيِّ مقارِناً لِطالِعٍ يقتضـي العلمَ والصدقَ في الأشياءِ

فهذَا تطهيرٌ علَى صاحِبه مَجْبولٌ علَى الإصَابةِ في كلامِهِ في الغالِبِ بل إِذَا تكلَّمَ على ما يَجِدُه من نصَيبِه مِنْ صِغَرِهِ لا يُخْطِئُ، وإِذَا أَخْطَأَ فإِنَّه يُخْطِئُ بالعرَض.

وذلكَ أنه يتركُ ما يَجِدُ من نفسِهِ ويأخذُ مَا اكتَسَبَه من خَارِجٍ، فقدْ يكونُ ما رآه أَوْ سَمِعَه باطِلاً، وقدِ ارْتَسَمَ مِنْهُ في النفْسِ صورةٌ فَيَجِدُها فينطقُ بِهَا فذلكَ خطوة لا غير.

فإذَا انْضَافَ إلَى هذِهِ الجِبِلَّةِ الفَاضِلَةِ استعمالُ الرّياضاتِ والمجاهَدَاتِ والتشوّفِ إلى المحلِّ الأَشْرَفِ والمقامِ الأقْدَسِ، ارتَفَعَ الروحُ الجُزَيْءُ إلى كلّهِ الكُلّيّ فَاستَشْرَفَ على الغيوبِ مِنْ هُنَاكَ وراءَ صُوَرِ العالَمِ كلّهِ في قوَّةِ النفسِ الكُلّيةِ ومراتِبه فِيها وما حظّ كلّ شيءٍ من العالَمِ ومكانِهِ وزَمَانِهِ،

كلُّ ذلكَ بعلمٍ واحدٍ وفِطْرَةٍ واحِدَةٍ فينزِل إلى مَحَلِّ تفصيلِ الكَوْنِ فيعرِفه بالعَلاَماتِ. وهؤلاء الأفرادُ خَلَقُهُم اللهُ علَى هذَا النعْتِ عنايةً أزَليّةً سَبَقَتْ لهم، وبِهذا النَّوْع وُجِدَتِ الكَهَنَةُ. غير أنَّهم لم ينضف إلى هذِهِ النَّشْأَةِ المبارَكَةِ استعمالُ رياضةٍ وَلا تَشَوُّفٍ فَصَدَقَتْ خَواطِرُهم في الغالبِ وفي حُكْمِ النادِرِ يُخْطِئُون.

وللروحانياتِ لأصحابِ هذِهِ النشأة تَطَلُّعٌ كثيرٌ وتأَمُّلٌ لِتِلْكَ المناسَبَةِ وهيَ اللّطافَةُ الأصْلِيَّةُ فيمدّونهم بحسَبِ قُوَاهُم وإنما حُرِمُوا الجنابَ العزيزَ الإلهيَّ المخصوصَ بِهِ الأولِياءُ مِن عبادِ اللهِ تَعَالَى فَهَنِيئاً لَهُم.

*

للهِ عبيدٌ أحضَرَهُمُ الحقُّ تعالَى فيهِ ثُمَّ أَزَالَهُم بِمَا أَحْضَرَهُم، فَزالُوا لِلَّذِينَ أَحْضَرَهم فكانَ الحضورُ عَيْنَ الغَيْبَةِ والغيبَةُ عَيْنَ الْحُضُورِ، والبُعدُ عَيْنَ القُرْبِ والقربُ عَيْنَ البُعْدِ.

وهُوَ مَقامُ إيجادِ الأحْوَالِ، فاجْتَمَعْتُ بالجُنَيْدِ في هذَا المقامِ وقالَ لي: المعنَى واحدٌ، فقلتُ لَهُ: لا تُرْسِلْه بل مِنْ وجوهٍ فإنَ الإطْلاقَ فِي مَا لا يَصِحُّ الإطْلاقُ فِيه يُناقضُ الحقائِقَ، وقال غيبهُ شهودُه وشهودُه غَيْبُه.

فقلتُ لهُ: الشاهِدُ شاهِد بَدَا وغيبتهُ إضافَةٌ والغيبُ غَيْبٌ لا شهودَ فِيه لا تُدْرِكُه الأبْصارُ، فالغائِبُ المشهودُ مِنْ غَيْبَةِ إضافَةٍ.

فانصَرَفَ وهُوَ يقول: الغَيْبُ غَائِبٌ في الغَيْبِ.

*

رؤيا آمنة

كما رواها محيي الدين ابن عربي

قال ابن عبّاس:

كان من دلالات حمل رسول الله (ص) أَنّ كلّ دابّةٍ كانت لقريش، نطقت تلك الليلة. وقالت: حُمل رسول الله وربّ الكعبة. هو أمَانُ الدّنيا وسراج أَهْلها.

*

لم تبق كاهنةٌ مِن قريش، ولا من قبائل العرب، إلاّ حُجبت عن صاحبتها، وانْتُزِعَ علم الكهانة منها. ولم يبق سريرٌ لملكٍ من ملوك الدّنيا إلاّ أصبحَ منكوساً، والملك مُخرَّسٌ لا ينطِق يومه. ومَرّت وحش الشّرق إلى وحش الغرب بالبشارات. كذلك أهل البحار بَشّر بعضهم بعضاً. وكان في كل شَهْرٍ من شهوره، نداءٌ في الأرض ونداءٌ في السّماء أَنْ أَبْشِروا، فقد آنَ لأبي القاسم أن يخرج إلى الأرض ميموناً مُبارَكاً.

*

بَقي في بطن أمّه تسعةَ أشهرٍ كُملاً، لا تشكو وجعاً ولا ريحاً ولا مَغصاً، ولا ما يعرض للنّساء من ذوات الحَمْل. وهلَك أبوه عبد الله، وهو لا يزال في بطن أمّه، فقالت الملائكة:

–إلهنا وسيّدنا، يبقى نبيّك هذا يتيماً.

فقال الله للملائكة:

–أنا له وليٌّ وحافِظٌ ونصير.

*

فتَح الله لمولده أبوابَ السّماء، وفتَح جَنّاتِه.

كانت أمّه تحدّث نفسها وتقول:

أَتاني آتٍ حين مرَّ لي من حمله ستّةُ أشهر، فوكزَني برِجْلهِ في المنام، وقال لي:

– يا آمنة، إنّك حَملْتِ بخيرِ العالمين. سَمّيه محمّداً، واكتمي شأنكِ.

*

كانت تحدّث عن نفسها وتقول:

أخذني ما يأخذ النّساء، ولم يعلم بي أحدٌ من القوم، ذكراً ولا أنثى، وأنا وحيدةٌ في المنزل، وعبد المطّلب في طوافه يوم الاثنين. سمعتُ جلبةً شديدة وأمراً عظيماً فهالَني ذلك. رأيت كأنّ جناح طيْرٍ أبيض قد مَسحَ على فؤادي، فذهبَ عني كلّ رعب وكلّ وجع. ثمّ التفتّ، فإذا أنا بشرْبةٍ بيضاء ظننتُها لبَناً، وكنت عَطْشى، فتناولتُها وشربتها، فأضاءَ مِنّي نورٌ عال. ثم رأيت نسوةً كالنّخل الطّوال، كأنهنّ من بنات عَبْدِ مناف، يُحدِّقْنَ بي، بيْنَما أنا أعجبُ من ذلك، وأقول: وَاغَوْثاه، مِنْ أين عَلمنَ بي؟ واشتدّ بيَ الأمر، وأنا أسمع الوجبة في كلّ ساعةٍ أعظم وأهول. ثم رأيت ديباجاً أبيض يُمدّ بين السّماء والأرض، وسمعت قائلاً يقول: خذوهُ عن أعين النّاس.

*

وقلت:

رأيتُ رجالاً وقفوا في الهواء، بأيديهم أباريقُ فضّةٍ، وأنا أرشح عرقاً كالجُمان، أطيبَ ريحاً من المسك، وأقول: ليتَ عبد المطّلب يدخلُ عليّ، وهو بعيدٌ عنّي.

*

وقلت:

رأيتُ قطعةً من الطّير، أقبلت من حيث لا أشعر حتى غَطّت حجرتي. مناقيرُها من الزمرّد، وأجنحتها من الياقوت. وكشفَ الله عن بصري،

فأبصرْتُ مشارقَ الأرض ومغاربَها. رأيتُ ثلاثةَ أعلامٍ مضروبة: علماً في المشرق، وعَلماً في المغرب، وعلماً على ظهر الكعبة، فأخَذني المخاض واشتدّ بيَ الأمرُ جدّاً. كنت كأنّي أستند إلى أركان النّساء وأنا لا أرى معي في البيت أحداً . وولدتُ محمّداً.

*

قالت:

لمّا خرج مِن بطني، درتُ فنظرت إليه، فإذا هو ساجِدٌ قد رفع إصبعيْهِ كالمتضرّع المُبتهِل. ثم رأيتُ سحابةً بيضاء قد أقبلت من السّماء نزلت حتّى غشيته، فَغُيِّبَ عن وجهي، فسمعت منادياً ينادي، قائلاً:

–طوفوا بمحمّدٍ شرقَ الأرضِ وغربَها،
أَدْخِلوهُ البحارَ كلّها،
لكي يعرفوه باسمِهِ، ونَعْتهِ، وصورتهِ
ويَعْلموا أنّه يُسمّى فيها الماحي، لا يَبْقى
شيءٌ من الشِّرْك في زمنهِ إلاّ مُحِيَ به.
ثم ذهبت السّحابة،

فرأيته مُدرجاً في ثوب صوفٍ أبيض أشدّ بياضاً من اللّبن، وتحته حريرةٌ خضراء، وقد قبضَ على ثلاثة مفاتيح من اللّؤلؤ الرّطب الأبيض، وإذا قائِلٌ يقول: قبض محمد على مفاتيح النّصرة، ومفاتيح الرّيح، ومفاتيح النبوّة.

ثم أقبلت سحابةٌ أُخرى أعظم من الأولى، يُسمع فيها صهيل الخَيل، وخَفقانُ الأجنحة مِن كلّ مكانٍ. ويسمع فيها كلام الرّجال، وغشيتْهُ حتّى غُيّب عن عيني أكثرَ وأطولَ مِن المدّة الأولى، فسمعتُ منادياً ينادي:

–طوفوا بمحمّدٍ الشّرقَ والغربَ،
طوفوا به على مواليد النبيّين،

اعرضوهُ على كلّ روحانيٍّ من الجِنّ والإنس والطّير والسِّباع.

أَعطوه صفاءَ آدم، ورقّةَ نوح، وخلّةَ إبراهيم، ولسانَ إسماعيل، وصبرَ يعقوب، وجمال يوسف، وصوت داود، وصبرَ أيّوب، وزهدَ يَحيى، وكرمَ عيسى، واغمروه في أخلاق النبيّين.

ثم انجَلت عنه السّحابة في أسرعَ من طَرْفةِ عين،

فرأيتُه يقبض على حريرةٍ خضراءَ مطويّةٍ طيّاً شديداً، وينبع منها ماءٌ معين، وسمعتُ قائلاً يقول:

-بَخٍ بَخٍ، قبضَ محمّد على الدّنيا كلّها. لم يبق خلقٌ من أهلِها إلاّ دخَل في قبضتهِ، طائعاً.

وبينما أنا أتعجّب، رأيت ثلاثةَ نَفَرٍ ظننتُ أنّ الشّمسَ تطلعُ مِن خلالِ وجوههم.

في يد أحدهم إبريقٌ مِن فضّةٍ، فيه ريحُ المسْك.

وفي يد الثاني طستٌ مِن زمرّدٍ أخضر، بأربعة أطرافٍ على كلّ طرفٍ لؤلؤةٌ بيضاء. وإذا قائلٌ يقول:

- هذه الدّنيا، شرقها وغربُها، برُّها وبحرُها، فاقبض يا حبيبَ الله على أيّ ناحيةٍ شئت.

ونظرت أين قبضتُه من الطّسْت. فرأيتُها في وسطه، وسمعت قائلاً:

-قبضَ على الكعبة، وربّ الكعبة. لقد جعلَها الله مسكناً له، وقِبْلةً.

ورأيت في يد الثالث حريرةً بيضاءَ مطويّةً طيّاً شديداً. نشَرَها، أخرج منها خاتماً تحار أبصار النّاظرين دونه. ثم حملَ ابني، فناوله صاحب الطّسْت وأنا أنظر إليه، فغسله بذلك الإبريق سبعَ مرّات، ثم ختمَ بين كتفيه بالخاتَم ختماً واحداً، وَلَفّه بالحريرة، وأدارَ عليه خيطاً من المسك الأذْفَر، ثم حملَهُ فأدخله بين أجنحتهِ ساعةً،

(قال ابن عباس: كان ذلك رضوان، خازن الجنان)،

وقالت: قال في أذنه كلاماً كثيراً لم أفهمه، وقبّل ما بين عينيه، قائلاً:

-أَبْشِرْ يا محمد، لم يَبْقَ لنبيٍّ علمٌ إلاّ أُعْطيتَه، فأنت أكثرُهم علماً، وأشجعُهم قلباً. معكَ مفاتيح النّصرة، وقد أُلْبِسْتَ الخوفَ والرّعبَ، فلا يسمع أحدٌ بذكرك إلاّ وَجل فؤادُه، وخافَ قلبه، وإن لم يَرَك.

ثم رأيت رجلاً قد أقبل نحوه حتّى وضع فاه على فيه، فجعل يزقّه كما يزقّ الحمامُ فرخه، وكنت أنظر إلى ابني يشير بإصبعه قائلاً: زِدْني، زِدْني. فَزَقّه ساعةً، ثم قال:

-أَبْشِر، يا حبيبَ الله، فما بقيَ لنبيّ حِلْمٌ إلاّ أوتيتَه.

ثم احتملَه، فغيّبه عنّي، فجزع فؤادي وذُهِل قلبي، فقلت: وَيْحَ قريش، والويل لها، ماتت كلّها. أنا في ليلتي وفي ولادتي، أرَى ما أرى، ويُصنَع بولدي ما يُصنَع، ولا يقربُني أحدٌ مِن قومي. إن هذا لهو العجَبُ العُجاب.

وبَيْنا أنا كذلك، وإذا به يَرُدّه لي كالبدر، وريحهُ يسطع كالمِسْك، قائلاً:

-خذيه، فقد طافوا به الشرق والغرب، وطافوا به على مواليد النبيّين أجمعين. وكان، هذه الساعة، عند أبيه آدم، فضمّه إليه، وقبّل ما بين عينيه، قائلاً:

-أبْشِر حبيبي، فأنتَ سيّد الأوّلين والآخرين.

ثم قال:

-أبْشِر يا عزّ الدنيا، وشرفَ الآخرة، فقد استمسكتَ بالعروة الوُثقى. مَن قال بمقالتكَ، وشهد بِشهادتك، حُشِر غداً يوم القيامة تحت لوائكَ، وفي زمرتكَ.

ثم نَاولَنيه، ومَضى.

*

زاد العباس، في رواية ابن عباس، قال:

قلت: يا آمنة، ما الذي رأيت في ولادتكِ من علامة هذا الصّبي؟

قالت:

–رأيتُ علماً من سندسٍ على قضيبٍ من ياقوتٍ، ضُربَ بين السّماء والأرض،

ورأيتُ نوراً ساطعاً من رأسه بلغ السّماء،

ورأيت قصورَ الشّام كلّها تتلألأ ناراً،

ورأيت قُربي سِرْباً من القَطا سجدت له ونشرت أجنحتَها،

ورأيت شعيرة الأسديّة تقول: ما لقيَ الأصنام والكهّانَ مِن ولدكِ هذا؟ هلكت شعيرة، والويل للأصنام ثم الويل لها.

ورأيتُ شابّاً معه طَاسٌ من ذهب. ثم شقّ بطنه، وأخرج قلبه. ثم شقّ قلبه، فأخرج منه نكتةً سوداء رَمَى بها. ثم أخرج صُرّةً من حريرٍ أخضر، فتحها وإذا فيها شيءٌ كالدرّة البيضاء، حشاه به، ثم ردّه إلى مكانه، ثم مسحَ على بطنه، فاسْتيقظَ، فنطق، فلم أفهم ما قال. قال له:

–أنتَ في أمانِ الله، وحفظ الله، وكلامه. حشوتُكَ عِلْماً وحِلْماً ويقيناً، وإيماناً وعقلاً وشجاعةً. أنتَ خير البشر. طُوبَى لمن اتّبعكَ، وآمنَ بك، وعرفَك. الويل ثم الويل (قالها سبعَ مرّات) لمن تخلّف عنك، وخرج منها ولم يعرفك.

ثم تَفَلَ في فمه تَفْلةً أخرى شديدة،

ثم ضربَ الأرض ضَرْبةً، فإذا هو بماءٍ أشدّ بياضاً من اللبن. غمسه في ذلك الماء ثلاثَ غمسات، فما ظننت إلا أنّه قد غرق. وما مِن مرّة يخرجه، إلا رأيت ضوءَ وجهه كالشّمس الطّالعة. ورأيتُ بريقَ وجهه يقع على قصور الشّام كوقوع الشّمس.

ثم قال:
أمرني ربّي أن أنفخ فيكَ بروح القدسِ.
نفخَ فيه،
ألبسه قميصاً، وقال:
– هذا أمانُكَ من آفات الدّنيا.

*

الموحدُ من جميعِ الوجوهِ لا يَصِحُّ أنْ يكونَ خَلِيفَةً، فإنَّ الخَلِيفَة مأمونٌ بحَمْلِ أثقالِ المملكَةِ كلّها، والتوحيدُ يُفْرِدُه إليه ولا يتركُ فِيه مُتَّسعاً لغيرِهِ. قلتُ: للشّبليّ في هذا التَجَلّي يَا شِبْليّ التوحيدُ يَجْمَعُ والخلافَةُ تُفَرِّق. فالموحِّدُ لا يكونُ خليفَةً مع حضورِهِ في توحيدِه.

فقال لي: هُوَ المذهَبُ فأيُّ القائِمينَ أَتمُّ؟

قلتُ: الخليفةُ مفطر في الخِلاَفة والتوحِيدُ الأصل.

قال لي: وهلْ لِذلِكَ عَلاَمَةٌ؟

قلت: نعم، فقال لي: ومَا هِيَ؟ قلتُ له: قُلْ فقد قلتُ. فقال: أنْ لا يعلمَ شَيئاً ولا يُرِيد شيئاً ولا يقْدِر علَى شيءٍ حتىَّ لو سُئِلَ عن التفرِقَةِ بين يَدِه ورِجْله لم يدْرِ ولَوْ سُئِلَ عَن أَكْله وهُوَ يأكُلُ لَم يدْرِ أنه أَكَلَ وحتَّى لو أَرَادَ أَنْ يرفَعَ لُقْمَةً لُقْمَةً لم يستَطِعْ ذلكَ لِوَهَنِهِ وعدَمِ قدرَتِهِ. فقَبَّلْتُه وانْصَرَفْتُ.

*

رأَيْتُ الْحَلاّجَ في هَذَا التَجَلّي فقلتُ له: يَا حَلاَّجُ هَلْ تَصِحُّ عِنْدَكَ عِلَّتُه لَهُ؟ وأَشَرْتُ، فتبسَّمَ وقال لي: تريدُ قولَ القائِلِ يا عِلَّة العِلَل ويا قَدِيماً لم تَزَلْ، قلت له: نَعم.

قال لي: هذه قَوْلَةُ جَاهِل. اعْلَمْ أنَّ الله يخلُقُ العِلَلَ وليس بعِلَّة. كيفَ يَقْبَلُ العِلِّيَّةَ مَنْ كان ولا شيءَ، وأَوجَدَ لا مِنْ شَيءٍ، وهو الآنَ كَمَا كانَ وَلا شَيءَ. لَوْ كانَ عِلَّةً لارتَبَط. ولو ارْتَبَط لم يَصِحّ له الكمالُ.

قلتُ له: هكَذَا أعرِفُه، قال لي: هَكَذَا فينبغي أن يُعْرَفَ فَاثبتْ، قلت له: لِمَ تَرَكْتَ بَيْتَكَ يخربُ؟ فتبسَّمَ وقال: لَمَّا استطالَتْ عليهِ أيدِي الأكْوان حينَ أَخْلَيْتُه فأفْنَيْتُ، ثم أفنيت وخلَّفْتُ هارونَ في قَوْمِي فاستضْعفُوه لَغَيْبتِي، فأجْمَعوا على تَخرِيبِه فلمَّا هَدُّوا مِن قواعِدِه ما هَدُّوا رُدِدْتُ إليه بعدَ الفَناءِ فأشرفْتُ عَلَيه وقد خَلَتْ بِهِ المَثُلاَتُ فأَنِفَتْ نفسي أَنْ أُعمِّر بيتاً تحكَّمتْ فيهِ يد الأكوانِ. فقبضتُ قبضي عنه، فَقِيلَ ماتَ الْحَلاَّجُ، والحلاجُ مَا مَاتَ ولكنَّ البيتَ خربَ والسكن ارتَحَل.

فقلتُ له: عندِي ما تكونُ بِهِ مَدْحوضَ الْحُجَّةِ، فأطرَقَ وقال: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾*. لا تتعرض فالحق بيدِك وذلك غايةُ وسعي. فتركته وانصرفت.

*

التوحيدُ لجّةٌ وسَاحِلٌ فالساحلُ يَنْقَال واللجَّةُ لا تَنقالُ. والساحل يعلمُ واللجةُ تُذاقُ. وقفتُ على ساحِلِ هذِه اللجَّةِ ورميتُ ثَوْبِي وتَوَسَّطْتُها. فاختلفتُ علَى الأَمواجِ بالتقابلِ فَمَنَعَتْنِي من السباحَةِ فبقيتُ واقِفاً بها لا بِنَفْسي فرأَيْتُ الجُنَيْدَ فعانَقْتُه وقَبَّلْته فرحَّبَ بي وسَهَّلَ. فقلتُ له: مَتَى عَهْدُكَ بِكَ؟ فقال لي: مُذْ توسَّطْت هذه اللجَّة نسيتني فَنَسِيتُ الأمدَ. فَعانَقَني وعانَقْتُه وغَرِقْنَا فمُتْنا موْتَ الأبدِ فَلا نَرجو حياةً ولا نُشُوراً.

*

منهم من قال: ما رَأَيْتُ شيئاً إلاَّ رأَيْتُ الله عِنْدَهُ.
ومنهم من قال: ما رأَيْتُ شَيئاً إلاَّ رَأَيْتُ الله فيه.
ومنهم من قال: ما رأَيْتُ شَيئاً حِينَ رَأَيْتُ.
ومنهم من قال: ما رَأَيْتُ شيئاً.

---

* سورة يوسف، الآية 76.

ومنهم من قال: لا يُرَى إلاَّ في شَيء.

*

قال بعضُهم: مَنْ سَمِعَه سَمِعَ كلَّ شَيءٍ.

ومنهم من قال: لاَ يَسْمَعُ كَلامَهُ إلاّ مَنْ كانَ لَه سَمْعٌ بِلاَ آلةٍ.

ومنهم من قال: مَنْ سَمِعَه في شَيءٍ ولَمْ يَسْمَعْه في شيءٍ فما سمعه.

ومنهم من قال: منذ سَمِعْتُه لم أجْهل لغةً ولا اعْتاصَ عليّ مَعْنَى.

*

قال بعضهم: لا تسْمَعُه إلا منكَ.

ومنهم من قال: لاَ يُكَلمُكَ إلاَ مِنْكَ.

ومنهم من قال: مَنْ كَلَّمه فيهِ فَقَد كَلَّمه.

ومنهم من قال: لَوْ كَلَّمه منه مَا نَادَاه.

*

ومنهم من قال: التوحيدُ أنا والمُتكَلّمُ الحقُّ.

ومنهمِ مَنْ قالَ: التوحيدُ أن تغيبَ فيهِ أو يغيبَ فيكَ.

ومنهم من قال: المعرفةُ شَطْحٌ.

*

ومنهم من قال: الحبُّ نَعْتٌ لاَ صِفَةٌ.

ومنهم من قال: لا يَصحّ نكرانُ الحبِّ. فَبِالحبِّ حَرّكَ المُحَرِّك. وبالحبّ تَحَرَّكَ المُتَحَرّكُ وسكنَ الساكنُ. وبالحبِّ تكَلّم المتكلمُ وصَمَتَ الصامتُ.

وقال بعضهم: رِجَالُ الله كالسَّرَاب.

وقال بعضهم: إثباتُ العِلَلِ زَلَلٌ.

*

الأمامُ لا يلتفت

*

أنتَ غمامةٌ على شمسك.

*

رؤيا

رأيت صنماً عظيماً،

رجلاه في الأرض، ورأسه في السماء،

أعلاه من ذهب، وأوسطه من فضة، وأسفله نحاس، وساقاه من حديد، ورجلاه من فخار.

فبينا أنا أنظر إليه، قد أعجبني حسنه، وإحكام صنعته قذفه الله بحجر من السماء، فوقع على قمة رأسه، فدقه حتى طحنه.

فاختلط ذهبه وفضته ونحاسه وحديده وفخاره، حتى تخيل إليّ لو اجتمع جميع الإنس والجن على أن يميزوا بعضه من بعض، لما قدروا على ذلك، ولو هبت ريح لأذرته.

ونظرت إلى الحجر الذي قذف به، يربو، ويعظم، وينتشر حتى ملأ الأرض كلها، فصرت لا أرى إلا السماء والحجر.

*

أنت وهو

كلّ واحد

يراك من حيث هو، لا من حيث أنت،

ومن رآك من حيث هو،

فإنما رأى نفسه.

*

اعلمْ أن الله تعالى خلق بيتاً في جوف المؤمن يسمى قلباً. وبعث ريحاً من كرمه، فنظف ذلك البيت من الشرك والشك والنفاق والشقاق.

ثم وجه سحاباً من فضله، فأمطر ذلك البيت، وأنبت فيه ألواناً من النبات مثل اليقين والتوكل والإخلاص والخوف والرجاء والمحبة.

ثم وضع في صدر ذلك البيت سريراً من التوحيد، وبسط على السرير بساطاً من الرضاء،

ثم غرس شجرة المعرفة مقابل البيت، أصلها في قلب المؤمن وفرعها في السماء، تحت العرش. ووضع عن يمين السرير وعن شماله متكأ من شرائعه، وفتح فيه باباً من بستان رحمته، وزرع فيه من ألوان الرياحين، من تسبيح وتحميد وتمجيد وذكر.

ثم أجرى في نهر الفضل، ماء من بحر الهدى يسقي ذلك النبات.

ثم علق قنديلاً من قناديل فضله من بابه الأعلى، وأسرجه بدهن الزكاء، وأضاء نور سراجه بنور التقوى.

ثم أقفل بابه ليمنع الردى. ثم أمسك مفتاحه، ولم يوكل عليه أحداً من خلقه . لا جبريل، ولا ميكائيل، ولا إسرافيل ولا غيرهم.

ثم قال المولى جل جلاله: هذا خزانتي في أرضي، ومعدن نظري، ومسكن توحيدي، وأنا ساكن المأوى.

*

قلب العارف يرتع في ثلاث روضات: في روضة الجفاء، وفي روضة الآلاء، وفي روضة النعماء،

فإذا رتع في روضة الجفاء، ركبه الحياء.

وإذا رتع في روضة الآلاء، دخله الرجاء،

وإذا رتع في روضة النعماء، قام بالوفاء.

*

... ثم صعدنا بطريق الترقي من الكلمة إلى وادي الفقر.

ثم قمنا عنا.

ثم عن قمنا، قمنا.

ثم عن لا قمنا، ولا قمنا.

ثم استوى هذا مع لا هذا، ولا هذا مع لا لا هذا.

*

صدر الدين القونوي*

منازلة إلهية

سيرٌ وترقٍّ، ورؤيةٌ وتلقٍّ، وتقرّبٌ وتَحبّبٌ، وكشف تبديلٍ بتسوية وتعديلٍ، وإلقاءٌ سُبوحِيٌّ سابق على النفث الروحي والبارق اللوحي.

اعلمْ أنه قد كان سبق لي بعد معرفةٍ شاملةٍ وأذواقٍ كاملةٍ شهوديةٍ كليةٍ من مشرب الكمال بعد تعدي أحكام مرتبتَي الجلال والجمال، مشهدٌ شريفٌ إلهيٌّ عالي المنار شاسع المنزل والمزار؛ واسع الأرجاء والأقطار؛ متعالي الأحكام والآثار؛ متنزّهٌ عن حصر المقامات والأحوال والأسماء والصفات والمراتب والأطوار.

أطلعني الحق فيه على حقيقة العلم ومراتبه التفصيلية وآثاره وأحكامه الخفية والجلية واللدنية النسبية واللدنية العلية، وكشف لي عن درجات أربابه وأشرف منازل حملته وأصحابه وانحصار مراتبه الأصلية في الحضرات الخمس الإلهية الكلية؛ وهي:

«الغيب» المشتمل على الأسماء والصفات والأعيان الممكنة والمعاني المجردة والتجليات، وفي مقابلتها «حضرة الشهادة والحس والظهور والإعلان».

---

* محمد بن إسحاق صدر الدين أبو عبد الله القونوي، تزوّج محيي الدين بن عربي من أمه، وتكفّل برعايته منذ صغره.

وبينهما «حضرة الوسط»، الجامعة بين الطرفين، ويختص بالإنسان وبين الغيب؛ وهذا الوسط «حضرة الأرواح العُلى» والروح الأعظم وما سطره بالأمر العلي من كونه مسمّىً بالقلم الأعلى.

وبين الشهادة والوسط أيضاً: «مرتبة عالم المثال المقيد» ومستوى الصحف الإلهية والكتب المتفرعة عن الكتاب الربَّاني المختص بسماء الدنيا.

فلمَّا كان سحر الليلة التي صبيحتها يوم الثلاثاء سابع عشر شوال من سنة خمس وستين وستمائة وقعت منازلة رحيمية لا رحمانية وجذبة لطيفة ربَّانية؛ أقامني سبحانه فيها بين يديه وفرّغني دفعةً دون تدريج للإقبال بوجه القلب عليه.

وأطلعني على حضرة علمه الذاتي الكلي الذي منه انبسط كل علمٍ؛ وتعين بموجبه في جميع مراتب الوجود كل واصفٍ وحالٍ وحكمٍ.

وأراني سبب انضيافه ونسبته إليه سبحانه من حيث التخصص الوصفي والتقديس الشرفي؛ ونسبته إلى سواه وسبب تقييده وجزئيته وموجب انبساط حكمه عند آخرين وإحاطته وكليته.

وعرَّفني بسرٍّ استرساله على المعلومات بتجديد التعلُّقات الناشئة بينه وبين المعلومات؛ ونسبة كل ذلك من وجهٍ كليٍّ إلى بضع من يوصف بالعلم.

وسبب تجدده من الوجوه الجزئية عند آخرين بطريق الاستفادة السببية الزمانية والشرطية الذاتية والعرضية؛ وموجب كثرة الأسباب فيه وقلتها والوسائط.

وكذلك الشروط والروابط وكيفية ارتفاع المجموع في حق بعض الموصوفين به.

أعني بالعلم، وسبب الرفع ومقتضاه وصحة انضيافه إلى الحق من هذه الحيثيات كلها مع بقاء التنزيه الحقيقي بحاله. ومن أي وجه لا تصحُّ هذه الإضافة الشاملة إلى الحق ولا تصدق عليه وتصدق، وتصحُّ في حق الغير وتتحقق.

ورأيت في هذا المشهد الأتمّ سرَّ الحدوث والقدم الموصوف بهما الوجود والعلم جمعاً وفُرادى من حيث الفعل والانفعال إفادةً واستفادةً. ووجدت الاستقلال متعذر الحصول لشيءٍ ما في كل ما ذكرته الآن وغيره. ورأيت الموقت من ذلك وغير الموقت.

ثم أُريت كيفية تعين العلم في الناس بحسب تعينه في الحضرات الخمس المذكورة وبحسب حصصهم منها، وأراني سبحانه أيضاً صور الحضرات المذكورة في ذاتي.

ورأيت حصتي من علمه الذاتي بحصتي من الحقيقة التي ينسب إليها العلم دون اختلاف وتغيُّرٍ وتجزئةٍ وتبعيضٍ وفصلٍ وتباين، ورأيت مضاهاتي لحضرته تعالى شأنه من حيث الذات ومن حيث العلم، ومن حيث تعلق العلم بالمعلوم كان ما كان.

(...) ورأيت «المحال» عبارة عن تعذُّر تصور بعض المفروضات الذهنية؛ صورةً وجودية خارج ذهن الفارض المُتصوِّر.

ورأيت الحكم بالإمكان من لوازم الجهل بحقيقة الشيء المحكوم عليه بالإمكان،

ورأيت العلم والإمكان مما يتعذّر اجتماعهما إلا باعتبار علم العالم الحقيقي مضمونَ تصور الظان المحجوب عن معرفة حقيقة الشيء.

ورأيت ظنّي علماً، وعلمي وجوداً، ووجودي عدماً، وعدمي حاكماً على كل وجود، ومرتبتي حاكمةً على كل معدوم وموجود، ورأيت العلم رؤية

مجرّدةً، ووجدت الرؤية كيفية، ورأيت الكيفية هيئةً قاضيةً على المطلق بالتعين، ورأيت الهيئة نسبةً مؤثرةً ومنتجة أمثالها، ورأيت الوجود عارياً عن الأثر والحكم؛ إلا بشرط الاقتران مع النسب.

ورأيت العلم المطلق الكلي عين ذاتي؛ فليس أحدٌ يعلم شيئاً إلا بمقدار ما عنده مني، فتسري وحدتي المشتركة بين الأشياء فيها، والعلم وصفها الذاتي، فيُدرك بي كل مدرك ما يدركه ولا يعلم ما عند كل أحد مني ما يقتضي اتصاله واتحاده بي؛ اتِّصالاً لا يوجب حجبه عني، وعن الوجه الاعتدالي المعنوي، لكن يظهر في محله حكمٌ من أحكام سلطنة العلم الحقيقي الخصيص بي؛ وهو العلم الإلهي المستعلي على اللدني، بل وعلى العلم الوصفي الذاتي: فيصير بهذا الطريق ظنُّ الظَّان، وتصوره الذهني الخيالي علماً؛ بشرط الإذْن الإلهي أولاً، والتصرُّف من صاحب هذا العلم الحقيقي ثانياً، وإلا فلا.

(...) ومن غريب ما رأيت كوني رأيت ذاتي قابلة لأن تصير صفة جزئية لزيدٍ وعمرو؛ وحالاً عارضاً لآخر، وذاتاً لآخرين. ثم رأيت تخصيص الوجود في كل ما يوصف بالإمكان، تابعاً للعلم من وجه؛ وتخصيص العلم من وجه آخر تابعاً لتخصيص الوجود من وجهٍ،

ووجدت العلم من وجه ينتشئ من المعلوم في مراتب ظهوراته من الحضرات الخمس في ما تحتها من المراتب والدرجات؛ كتنوع تعلُّقه بكل معلوم بحسب أحوال المعلوم، كما مرَّ.

ورأيت درجاتٍ في الحس تنتهي إلى آخر علم الصور، وكذلك رأيت له درجات في عالم المثال المطلق والمقيَّد.

وكذلك رأيت له؛ أي للعلم: درجات في عالم الأرواح بحسب تفاوت مراتب الأرواح، وحقائقها، ومقامات مظاهرها.

ورأيت درجات العلم تقل عند الأرواح غير المقيدة بالمظاهر من كلِّ وجهٍ.

ورأيت ما يذوب في مشاهد بعض الذوات، ويضمحل حتى ينعدم عند البعض، وهو إذ ذاك عند الكاملين موجودٌ في حقِّ المعدوم عنده ولا يدري به،

ورأيت جميع العلوم الموصوفة بالتعلُّق بالأشياء؛ إنما هي علومٌ إلهيةٌ متعلَّقها الحق، وتختلف في الشرف والسعة والحيطة بحسب المراتب والمظاهر.

ورأيت أن العلم الإلهي لا يكون في أعلى مراتبه إلا علماً واحداً، وصاحبه هو الموصوف بالعلم الوسطي المنبَّه عليه من قبل.

ورأيت العلم يحجب قوماً عن نفسه ببعض أحكامه، ويكشف عن نفسه أيضاً لآخرين ببعض أحكامه، ووقتاً بحجب العالم الذي هو عينه أو صفته، ووقتاً أيضاً يكشفه بأحكامه، كما مرَّ، وحال المعلوم مع العلم كحالهِ مع العالم في الكشف وقتاً والحجاب آخر، مع أن المعلوم من وجه منبع علم العالم ومحتده،

ورأيت حكم علم الناس على الأشياء؛ بالنفي، والإثبات، والظهور، والبطون، والحقيقة، والمجاز، والحدوث، والقدم، والثبات، والتنوع وغير ذلك: حكماً نسبياً مجازيّاً من أكثر الوجوه.

ورأيت كل موجود ظاهر الصورة جزئية من صورة العلم الإلهي الكلي، ومعرباً عن حقيقته؛ أعني: حقيقة ذلك الموجود، وعن حقيقته من الحق، ورأيت تفاوت الصور العلمية بقدر تفاوُت الحصص الإلهية،

ورأيت أن الامتياز عن الأشياء في هذه المرتبة العلمية إنما هو باستيعابي جميع الحصص الظاهرة والباطنة من حيث ما يخُصُّ الحق، للأشياء بأجمعها،

ورأيت أن كمال الدلالة على الحق والتعريف له وكذلك الدلالة على العالم والتعريف له موقوفٌ على هذه الحيطة والاستيعاب المذكور.

ورأيت أن كل ما لم يظهر بالأشياء، فظهوره موقوفٌ عليَّ، أو هو من خصائص الاسم الباطن من حيث هو فيَّ.

ورأيت العلم الذي تحققت به لا يحكم على شيء إلا بذلك الشيء.

فله كما قلت: الكشف، والايضاح، والتقرير بالتبعية، والإفصاح،

ورأيته يتلاشى فيَّ أحياناً؛ بمعنى أنه يندرج بعض أحكامه في البعض، فإذا لم يبق إلا حكمٌ واحدٌ؛ تلاشى ذلك الحكم أيضاً، فصار ذاتاً؛ لا صفةً ولا حكماً،

ورأيتني منفرداً بهذا الشأن؛ أكمل تلاشيه فيَّ بالكلية فظهرت، وسكت فنطقت.

*

مناجاة ربانية

إلهي! قدَّستك حقائقي التفصيلية بألسنة أفعالها وصفاتها، وقدستك جملتي الكلية بتنوعها في ملابس حالاتها، وقدستك حقيقة جمعي القديم بلغاتِ إحاطاتها عن كلِّ تنزيهٍ وتقديسٍ نسبه إليك أهل التقييد مما يفهم أو يوهم إفراز شيء عنك، أو نفي أمر ووصف حال عن جنابك إلا ما ينفيه حيث ينفيه؛ وباللسان المقيَّد الذي به وَقَعَ النفي عند المنفي عنده، وبالنسبة لمن استرشدته.

بل أقول: أنت المنزَّهُ عن الانحصارِ في كل قيدٍ وإطلاقٍ، كما أنك المقصود بكل اجتماع وافتراق، وأنت المعبود بالاتفاق، لك الكمال المستوعب كل حالٍ، وحكمٍ، ووصفٍ؛

وأنت المعنى المحيط بكل كلمةٍ وحرفٍ، وأنت الأول يطلب بروزك من مكمن غيبك، وإطلاقك وأحدية جمعك، وإدماجك لتكميل مراتب الوجودِ والمعرفة وما يلازمهما من أسمائِك وصفاتِك، وكل ذلك وسائل محصول كمال الجلاء والاستجلاء اللذين هما عبارة عن ظهور ذاتك ورؤيتك إيَّاها في شأنٍ سبق في علمك الذاتيِّ ظهورك فيه متعيناً بحسبه؛ متنوعاً بموجب حكمه ومذهبه، وليظهر كلٌّ فردٍ من أفرادِ شؤون مجموع الأمر كله بصورة الجمعِ، ووصفهِ، وحكمِه بحيث يضاهي كلَّ شأنٍ من الشؤون؛ الشأن الكلي الذي اخترنا آنفاً أنه مفتاح مفاتيح الغيب،

وأنت الآمرُ بأنها حكم كل ظهور من ظهوراتك في مراتب مظهرياتك لتقيد كل تعين من تعيناتك، وبالنسبة لما حدّدتَه بقلمك الأعلى بحرف إلى قصورِ الشؤون، بحصرها، وقيودها، وتناهي قبولها، وعدم وفاء استعداداتها؛ لقبول ما لا يتناهى إلا بالتدريج، وعلى سبيل التعاقب؛ عينت نسبة الآخرية؛ فصارت وصفاً لكل جلوة، وتعين من تجلياتك باعتبار حصول القصور والمستور أيضاً من كل تنوعٍ وتعينٍ وظهورٍ.

اللهم أنْتَ الناطقُ رمزاً وتصريحاً بنفس ظهورك؛ كما أنت الصامت من وجهٍ ببطونك في أحدية جمعك؛ وأنت بكل شيء عليم، يعني: ذلك الشيء المعلوم من حيث تبعية علمك له؛ لتعلقه به بحسبه، ومن حيث ارتسام كل شيء في عرصة جنابك الذاتي أيضاً، فنفس علمك بنفسك هو نفس علمك بكل شيء؛ إذ لا خروجَ لشيءٍ عنك؛ لأنك المحيط ذاتاً وعلماً، والمتعين في كل ما يسمّى شيئاً وجوداً وحكماً.

إلهي! أنا الناطقُ الظاهرُ من حيث حبُّك لي، فإنه أنطقني، فلك الحمد والعتبى.

كما أن شهود إطلاقك، واستهلاك كثرتي في وحدتك الكبرى، وقيامك عني بعد التحقيق بالمعرفة والشهود بكل ما كان منسوباً إلي وظاهراً بي دوني؛ بسرِّ الحجابية العظمى أسكنتني؛ فأنا الباطن أبداً والظاهر أنت؛

وأنا الأول من حيث المطلوبية باعتبار تعلّق إرادتك بإيجادي حال كوني لم أكن شيئاً؛ فكيف مذكوراً؟

وأنا الآخر من حيث صورتي الجامعة المحيطة، ومن حيث إني العلة الغائيّة التي هي على التعيين مقصودة؛ بل أخبرتني يا رب غير مرة أنني الآخر، وأخبرتني بأن هذه بشرى لك؛ فأراني آخر عبيد الاختصاص، ولا أعبر عن آخرتي بأكثر من هذا؛ ولو قطع البلعوم، وأنت العليم، وقد أتم معنى حكم المضاهاة في معنى الآية.

فأقول: إني بكل شيء عليم؛ لأنك حقيقتي بمعرفتك وشهودك.

فمن عرفك هكذا؛ أعني: كما عرفتك، فقد عرف كل شيء لما تبيَّن أنه لا خروجَ لشيءٍ عنك، ولا تجزئة في العلم بك ولا تبعيض.

وسيما بالنسبة لمن فاز بالتجلِّي الذاتيِّ المحيط المطرد الحكم المتعلِّي عن كلِّ تجلٍّ تعين من مرتبة وصف ما أو اسم؛ فسِرُّ علمي بك وسيما من حيث الأمر الرافع للتعدد بيني وبينك يسري في كل معلوم ويصدق في حقي ما يصدق في حقك من الأوصاف.

إلهي! إليك اعتذار بلسان الأدب والتحقيق والرغبة بموجب أمرك لي في أن تعجل خلاصي؛ كما أمرتني حال التجلي الذاتي كفاحاً من كل حال هو قيد وحصر متعلق بكل حدٍّ وطور ومقام وحال وأمر،

وأن لا تبقيني معي، ولا تتركني رهن قيودي؛ بل أطلقني واستخلصْني بالكلية لك، وخُذني مني، وكُن لي عوضاً عن كل شيءٍ وعني.

وبَدِّدْ شملَ النارِ، وبدِّله بالنور النور النور حسبما تنبهي على التجلِّي والتحقق به؛ بل حسبما تعلمه في أعلى درجات علمكم وأتمِّها وأكملِها؛ إنك تعلم ولا أعلم، وتقدِّر ولا أقدر، وأنت العليم القدير.

*

اعلم أن المحبوب إنما أحب المحب لكونه سبباً لاستجلاء كماله فيه، ومحلاً لنفوذ سلطنة جماله وبسط أحكامه،

فالمحبوب مرآة المحب يستجلي فيها محاسنَ نفسه المستجنة في وحدته قبل تعين المجلى؛

لأن القُرب المفرط والتوحُّد كانا يحجبانه عن ذلك، فإذا استجلى نفسه في أمرٍ آخر بحصول ضرب من البُعد والامتياز قريبٍ من الاعتدال، ورأى محاسن نفسه في المجلى؛ أحبَّها حُبّاً لا يتأتَّى له ذلك بدون المجلى، والامتياز المشار إليهما لما ذكرنا من حجابيه القرب والوحدة.

وأيضاً؛ فنسخة الحقيقة الإنسانية تشتمل على ما تستحق أن يحب كل الحب؛ وعلى ما ليس كذلك؛

بل يقتضي النفرة بالنسبة لما يُضاده من الحقائق ويقابله، فإذا تعيَّن مجلى يتميّز به وفيه من الإنسان ما يستوجب المحبة صفةً كان أو فعلاً أو حالات أو أمراً مشتملاً على جميع ما ذكرت أو بعضه؛

وارتفع حجاب القرب المفرط وغيره من البيت؛ ظهر سلطان الحب طالباً رفعَ أحكام الكثرة والمغايرة بتغليب حكم ما به الاتحاد على حكم ما به الامتياز، فأحب نفسه في ما يغايره من وجهٍ وباعتبارٍ مقتضٍ للتمييز المذكور بالصفة الذاتية التي فيه الطالبة كمال الجلاء والاستجلاء، فإن هذه الصفة هي المستدعية إيجاد العالم.

والمقصود من الإيجاد ليس غير ما ذكرنا، وكل ما ذُكر في ذلك من موجبات الإيجاد فرعٌ وتبعٌ لكمال الجلاء والاستجلاء.

فحُكم هذه الصفة؛ أعني كمال الجلاء والاستجلاء مشتركٌ، وسار في كل محبٍّ؛

فيوجب له أن يحب ما ذكرنا، وإن اختلفت الوجُوهُ والاعتباراتُ، وكذلك حكم حجابية القرب المفرط، والإدماج الذي يتضمنه هو أمرٌ مشتركٌ بين المحب والمحبوب من كون كل واحدٍ منهما من وجهٍ محبّاً، ومحبوباً من آخر؛ كما ذكرنا غير أن بينهما فيما ذكرنا فروقاً متعددة، منها:

إن «المحبوب» مرآةُ ذات المحب من حيث ما يقتضي أن يحب؛ فهو يستجلي فيها نفسه، ويستجلي أيضاً بعض محاسنها بالتبعية.

و«المحب» مرآةُ كمالِ جمالِ المحبوب، ومحل نفوذ أحكام سلطنته.

وبهذا الحكم سار في كل محبٍّ ومحبوبٍ دون استثناء؛ وإن شاء الحق سبحانه مع خلقه بهذه المثابة، فنحن من حيث حقائقنا التي هي عبارة عن صور معلوميتنا الثابتة في علم الحق أزلاً، مراءٍ، لوجوده المطلق الذاتي، وحضرته مرآة لأحوالنا المتكثرة وتعداداتنا، فنحن لا ندرك إلا بعضنا بعضاً. لكن في الحق؛ فنحب منا به ما نستجليه فيه، وليس غير الصفات والأحوال؛ وهو يحب فينا نفسه من حيث إن رؤيته لنفسه في مرآة مغايرة له من وجهٍ مخالفٍ لرؤيته نفسه في نفسه لنفسه؛ بل لا رؤيةَ هناك ولا تعدُّد؛ لأن المرآة المغايرة من حيث إنها محل التجلّي المتقيّد بها تبدي فيما ينطبق فيها حكماً لم يكن متعيناً حال رؤية الشيء نفسه لنفسه.

وهذا سرّ، مَن اطّلع عليه عرف سر الذوات، والصفات والأحوال، والمرايا والمحال، وإن العالم بحقائقه وصوره مرآةٌ للحق من وجهٍ، والحقّ من وجهٍ آخرٍ مرآةٌ للعالم.

ثم اعلم أن أكثر الأولياء، وكثيراً من الكُمَّل أدركوا الوجه الواحد من الوجهين المذكورين، ورأوه الغاية، ووقفوا عنده ولم يتعدُّوه.

وطائفة منهم وقفوا عند الوجه الآخر؛ وكلا الأمرين أَبَديُّ الحكم واقع في كل زمانٍ دون توقيت ومناوبة.

*

وارد كلّي إلهي

للطبيعة الإطلاق، وللعقل التقييد،

فمن تحقَّق عقله في المراتب الإلهية بالإطلاق الطبيعي، وتقيَّد طبعه في المراتب العقلية بحسب تلك المراتب، فانطلق في قيدٍ وتقيُّدٍ في إطلاق كل ذلك دون كلفة، بل بالذات مع تقديس من حكم الأوهام، والعقائد، والخوف، والحياء، والعوائد؛ ووفَّى المراتب حقها بأن يصير مرآة لجميعها؛ يظهر فيها بأحكامها دون مزج اعتقادي، وتغيير بسوء القبول، ونقص الاستعداد،

وكان مع ذلك مشاهداً للأحدية الإلهية الذاتية الجامعة بين الوحدة والكثرة المعلومتين. الشاملة لكل شيء، وللمشاهد حاضراً معها بها على الدوام لا مع التفاصيل من حيث تعددها مقبل إليه الكل، وهو معرض عن الكل بالذات. بعين إقباله على أحكام الجملة بوجهٍ كليٍّ من حيث الجملة وبحسبها لا بحسبه؛

إذ لا حسب له بتقيد به منطلق أيضاً عن الإقبال، والإعراض، والإطلاق وغير ذلك من الصفات التقييدية، فهو الرجل الكامل.

*

أحضرني الحقُّ في مشهدٍ عظيمٍ من مشاهد عنايته بي في الليلة التي صبيحتها يوم الأربعاء ثالث جمادى الآخر من سنة سبعين وستمائة،

وتجلَّى لي تجلّياً ذاتيّاً اختصاصيّاً مع تجلّيه لي حالتئذ في مظهرٍ إنساني غير مكيَّف تماماً،

فكنت أشهد ذاته دون مظهرٍ، وأشهده أيضاً من حيثية المظهر، وأشهد التمييز بين التجلِّيين؛

فكنت أشهد ذاته غير متميزة ولا متكيفة، وأشهدها أيضاً في تلك الحالة من حيث المظهر متميزة غير متحيزة ومتكيفة غير متكيفة.

وأراني شيئاً من العنبر استصحبه معي وقال لي: هل تعرف هذا؟ فقلت: كأني أعرفه.

فقال: من عنايتي ولطفي بك تجلَّيْتُ لك في هذا العنبر؛ لأكون معك دائماً بمعية ذاتية اختصاصية غير المعية العامة الذاتية، فَدُهِشْتُ فرحاً وخرست.

فلما أُسدِل الحجاب؛ رأيت بعض معارفي والعنبر في يدي ناولنيه الحقُّ؛ وكنت أقول لهم: أوصيكم إذا أنا متُّ؛ فادفنوا معي هذا العنبر، فإن ربي قد تجلَّى لي فيه تجلِّي محبةٍ وعناية، فلا أريد مفارقته، فشكرت الله ورُدِدت من ذلك المشهد إلى عالم الخيال النوميِّ، ثم رددت إلى الحسِّ.

*

اعلم أن أبا الوقت هو الذي عرف حقيقة الزمان ومسمَّى الدهر،

وله وبفروضه وتقديره تميَّز الوقت الذي هو الآن من مثله، واتصلت أحكام الآنات؛

فظهر بها التفضيل والتفصيل لأجله؛ وعاين طي الزمان ونشره، وسرّه وجهره؛ حسّاً وخيالاً؛ روحاً ومثالاً؛ مقاماً وحالاً؛

حاضر البال في أدواره حين سيَّره في عوالمه وأكواره من غيب عينه إلى شهادة بينه؛

آتياً مجتمعاً، ورجعاً متحلّلاً متصدِّعاً، ثم عائداً بعد انتهاء سيره السلوكي ووصوله الحقيقي من غير مفارقة بالله؛ معتلياً على النُّظراء والأشباه؛ محتجباً بربه؛ مستهلكاً في حماه؛ مُعرضاً عما سواه لا يراد لعينه إلا هو.

*

عبد الحقّ ابن سبعين*

الفقر هو الصبر على المكروه، وشكر المنعم الحكيم، والفتوّة المحضة، ورفع الأذى كله، وفعل ما يجب كما يجب على ما يجب في الوقت الذي يجب.

وتتفق دعوته التي داخل الذهن مع التي خارج الذهن، ويطلع بالتركيب إلى بُدّه، ويهبط بالتحليل إليه، ويدور بجملته عليه، ويجعل الفقر الذي اتصف به نفسه وقصده ومقصوده دائرة وهمية، ويجمع الوجود المقيد كله في نقطتها والمطلق في محيطها وينظر إلى الخطوط الخارجة من النقطة المذكورة إلى المحيط المذكور في خلَده ويراها متساوية وينسبها. وينظر إليها ثانيةً من المحيط ويحذف الوسائط ويبصر الواسع في الضيق. وينظر الأشياء في نفسه ثم يقطع حبل النظر والمنظور فيه من حيث المجاز والشفْع، ويصل حبل النظر والمنظور فيه من حيث الحقيقة والوَترُ. ويصل مع ذلك النقطة المتقدمة بالمحيط ويجعلها جزء ماهيتها، ثم يحقق الأمر ثانية ويجعلها ماهية واحدة ويقول: «ليس إلا الأيْس فقط» و «هوهو».

ويتصفح قوله ويتأول ما يلزم عنه، ويقطع الإشارة كما قطع العبارة، ويسكن في شأنه ويهمل مُهْمله ومخصصه من كل الجهات ويقف في ثلاثة مواطن ويموت ويحيى في خمسة مواطن ويبعث من شأنه ويقذف في موضوع

* عبد الحق ابن سبعين (613 – 669 هـ)، يُقال عنه إنه مات منتحراً بفصد يديه وذلك في مكة.

سرّه المشهور بالبرهان أن آنية الله هي أول الآنيات وآخر الهُويات، وظاهر الكائنات وباطن الأبديات.

ويحدّث في نفسه بالإسلام فيخبر عنه على غير ما كان يخبر، ويحدث قبل ذلك ويشهد للشاهد والمشهود والشهادة بشهادة الإنصاف، ويعكس الضمير الأول على المخاطب الثاني، ويتوب من اللواحق ومن الحروف التي تجرُّ إلى الإضافة ويشعر بها ويقول: كل من في العالم بأسره لا يفعل شيئاً، والله هو الفاعل خاصة.

ثم يُمَحِّص مدلول كلامه ويخلِّص جميع ما ارتهن فيه وينطق بالحق ويحذف المجاز وجميعَ ما يجرُّ إليه ويلزم منه وعنه، ويقول: العالم ميت يجمع ما فيه من مُفارق للمادة وغير مفارق لها، فلا حيَّ على الحقيقة إلاّ الله. ثم يَتَفَقّهُ في الإطلاقات باقترانها مع المضافات وارتباط بعضها ببعض ويقول: ما خالف الوحدة المطلقة والوجود الواجب هو عدم من جهة ووجود من أخرى، فلا موجود على الإطلاق ولا واحد على الحقيقة إلا الله، إلا الحق، إلا الكل، إلا الهو هو، إلا المنسوب إليه، إلا الجامع، إلا الأيْس، إلاّ الأصل، إلا الواحد، إلا الأصح، أصح لأصح ص ح حم صَمَد حَقّ؛

لا نتهمه ولا نتوهمه. وكذلك يفعل في كل نسبة متجانسة ثم يعلل جميع ما أطلقه، ويثبت ما ثبت بالبرهان وينفي ما انتفى بالبرهان ويعلم كيف انصرام التوجه،

وإلى أين يصل المتوجه وبأي وجه يعدم، وينسب مهمل الشريعة إلى مخصص الحقيقة ومهمل الحقيقة إلى مخصص الشريعة، ويقول: من صحا وصحح أسراره محا الله إصراره.

ويقال الفقر هو الذي لا يظهر به على الفقير إلا لسان مخزون، وقلب محزون، وفعل موزون، وفكرة تجول فيما هو كائن ومكون.

*

ويقال الفقر هو الذي يسبح به في بحر الشرف،

وينسخ العادة بأحكام خرق العادة،

وينسخ مقام الوحشة بالوحدة، وينسخ مقام الوحدة بالحرية، وينسخ الحرية بالعبادة في حال الاتصال بالأدب المستولي،

وينسخ التوكل بالتسليم والتسليم بالتفويض ويترك معقوله في معقوله متخيراً،

وينسخ التفويض بالرضى، وينسخ الرضى بالتوحيد،

ويقوّي التوحيد بالمحبة ويحفظ المحبة بالمعرفة، ويخلّص المعرفة بالمشاهدة، والمشاهدة بالمقامات الفارطة كلها، والجميع بالتحقيق،

ويركبها ويسلسلها بالتوجه والبحث والإنابة والأَوْبة، ويصرفها بالكلام المقيد بالعبارة والإشارة وبالبعض ، ثم بالدقيقة وبالكل، ثم باللطيفة وبالمذكور ، ثم بالحقيقة وبالمذكور في المذكور.

وُيعَلّلها بالأحوال ويقيدها بالتصريف، ثم يجمع المتقدم والمتأخر في كَسْبه وفي كل شأنه، ويتصف بالجميع، ويخصها في محله ولا يهمله،

وينبت الناسخ والمنسوخ في ماهية شأنه كله، ثم يحذف مراتبها التي تعددت ويدير عليها دائِرة نتيجة شأنه الآخر بمحرك شأنه الأول، ويسكتها بظاهر كُنُهه، ويجمعها بباطن كونه، ويجعل على الكلّ وفي الكل ومن الكل الأول الآخر الظاهر الباطن،

وينظر إلى الأمر كلّه بعين التوحيد وكلمة السلب ويجدها قد اتحدت فيه وتوحدت مِنْ أجله فينسبها إليه ويديرها ثانية وثالثة ورابعة وخامسة وسادسة وسابعة عليه، ويعتبر جملة داخل الذهن كما اعتبرها خارج الذهن، وينسب بالاستعارة بعض الأشياء إلى بعض، ويجعل قلبَه التوبة وكبَده المجاهدة، ويَدَه الصبرَ، ورجْلَه الأدب، وعينه العلم، وسمعه الخلق، وشمَّه اللطايف،

ولسانه الأحوال، ولذته المعرفة والرضى والمحبة، وحياته الوَتْر، وموته الشفع، وبالعكس،

ونطقه الإسلام، وعقله الإيمان، وروحه الإحسان، ثم يسمّي الجميع فقراً وفقيراً وقيراً. و «قير» تأكيد للفقير كما تقدّم وبالعكس كما لزم، فافهمْ!

*

(...) ثم يعلم كيف يصرف هو الأشياء بوجه ما، ثم يعلم ما هي الأشياء في التحليل وما هي في التركيب، ثم يعلم ارتفاع الجميع، ثم يعلم ثبوت الجميع، ثم يعلم الله ولا شَيْءَ معه والأشياء الظاهرة للحس والعقل، أعني الأمور المعقولة والمدْرَكات المحسوسة ثابتة ولا هي على جهة الافتقار وبالطريق التي يدل عليها علماء الأوهام فإنهم يقولون: الأشياء بالنظر إليها لا شيء لها، وبالوجه الذي هي به ناظرة إلى ربها هي ثابتة، وكأنهم يقولون: الوجود العارض للماهية بنوع من القول آخر هو هو في المفهوم، وأعوذ بالله من الجميع. وعند العلم بهذه العلوم والعلم بهذه السيرة يفتح له باب التحقيق الشريف، متى سمع قط عن قريش الإخلاص قطع الطريق على دخيل الاضطرار، متى حصل أحد على كنز محجوب عن غيره في غاية الظهور والوضوح له مع كونه تحت مملكته هو ومادته الأولى، ومع هذا يمد الأنواع ولا تسع كميته الأشخاص، ويقوم بشخصه هو فيخاف الفقر ويحتاج إلى مصانعة وَسْواس الحاجة، وبعد هذا كله النبيه هو الذي لا يقنع من الله بجميع أفعاله، ولا يطلب منه إلا الذي يحمل منها إلى الذات ويعين اللذات الصادرة عنه. آه آه آه يا فاقد، بل يا حائد عن الفائد، لا يخدعك وَهْمُ عادة نفسك الآخذة عن نفوس الأغبياء الأشقياء، أو المقيمة معهم على ما هم بسبيله، أو المتشبهة بهم إذا فقدت الهممُ الشريفة الحق المطلوب، يقول لسان حالها: يا حُزناه بما حُزناه!

*

هيهات! النظر إلى الحق يصرف النظر عن الباطل.

عجبت لمن آمن بالله ثم يخدعه وهم الأفعال لكنه كل شيء بقضاءٍ وقدر. استقام القائل، وأقامه الله على الحق بقوله: «وعند الله تجتمع الخصوم»، وحسنت خطبة المخاطب نفسه: يا نفس اعلمي أن الإضراب عن غير الله ملاحظة بعين الله. لله من قال: «لا تخالط الأشرار فإنهم يمنُّون عليك». بالسلامة منهم عذرته ومن قال الله فقط غبطته، ليعلم أن القاتل لأرواح الفضلاء في عالم الطبيعة والسعداء فيما بعد الطبيعة لابد أن تقتله الطبيعة وتعذبه الشريعة.

*

استقام الموحد على صراط وحدته وتوحيده، لأن الوحدة المحضة لا يمكن فيها الحيرة فإنها لا تصح في أكثر من واحد. وهذا الصراط لا امتداد له، وهو أقرب إلى النقطة من الخط.

*

الله فقط! حفظكم الله! نَفْسُ الوليِّ مملوءةٌ بواحدها، وهو المستولي على جملتها فلذلك لا تسأل عن غيره، ولا تسأله شيئاً. ومجموعها ينحلُّ إليها في صفة وَهْم نفسها، ووجودُها يرجع إليه، فشرُّها من نفسها أي من ذاتياتها. وهي أوهامها وخيرها أي وجودها. وفضل الله فيها من الله. فمن قال أنا بالوهم ما أنا به هوية، وبالوجوه ما أنا به آنية. والوهم والهوية إذا تشخص فيه أي بالله قال: كان ذلك من عند الله.

*

فقل لا حاجة لي بالصورة، ولا منفعة في التوحيد، ولا خير عندي في الفيض، ولا سعادة في الحلول، ولا فائدة في الاتحاد، ولا شوق الى مقام، ولا غبطة باسم يغاير أو يتردد في أمره ولا يحتاج إلى خاصة ولا إلى الخواص الذين أحوالهم منحطة وأحكامهم واقفة. فإن الحق قبل ذلك كله، بعد ذلك كله، عند ذلك كله، عند آخر ذلك كله.

*

والجاهل الحكيم هو الذي يقول: الحياة شرط في العقل، والعقل شرط في العلم، والعلم شرط في العمل، والعمل شرط في الفضل، والفضل شرط في السعادة، والسعادة شرط في الخير، والخير شرط في الكمال، والكمال شرط في الوحدة، والوحدة هي شرط في المطلوب، والمطلوب هو الذي يقال بترادف مع الأشياء وبتواطؤ قَبْلها، وباشتراك بعدها، وبترجيح معها له، وباشتقاق فيها إليه وبارتحال عنها منه، وباستعارة فيها له.

والفاضل العليم يجعل الشرط في مكان المشروط، والخليفة الحكيم يجعل الشرط المشروط من غير تقدم ولا تأخير. والحكيم العليم لايجد ذلك لكونه ذلك.

*

(...) ومعنى تدور: تحيل الأشياء إليها، ومعنى تحيل الأشياء إليها لكي ينقطع الوهم، ومعنى ينقطع الوهم أن تكون هي عندك الأشياء بجملتها، ومعنى أن تكون عندك الأشياء بجملتها أن تكون هي أنت، ومعنى أن تكون هي أنت لا تكون أنت ولا هي.

وهذا يكون من حيث الفرض والعدد والوهم لا من حيث الوجود. فإن الواحد من كل الجهات لا يصح فيه إلا ما قلنا.

فنرجع ونمنع جميع ما يفرض فيها أو يهجس أو يعلم وما أشبه ذلك. لا يقال فيها لفظة لأنها غير منسوبة لشيء ولا موضوعة في شيء ولا يقال فيها كالجزء من الخط ولا تجعل في الوهم مفروضة ولا كالبذر للنبات ولا في سطح شيء ولا في وسط شيء ولا على شيء ولا من شيء، ولا تمثل بالجوهر الفرد، ولا فقدها قط الفرد، ولا تكون مكيالاً للتعدد ولا مفهوم الواحد الأول،

ولا هي حرة عن ذلك ولا كالدائرة فإنها لا تحيط بما يفرض عليها أو فيها لأن النقطة منها تشبه الخط والخط يشبه الدائرة، بل كل ذلك خط، وكل ذلك

نقطة، وكل ذلك دائرة، والأبعاد الثلاثة في الواحد منها كالواحد الثاني من كل واحد منها، فلا أبعاد فيها على كل حال من حيث المثال المتوجه ومن أثبتها فقد جاز الأبعاد،

وبالجملة لا تمتد ولا حركة فيها لأنها لا تبدأ من شيء ولا تمر على شيء ولا تتصل بشيء ولا تفتقر الى محرك ولا تكون محركة لأنها ذلك بكليته والشيء لا يتعدد في ماهيته من حيث الماهية المستقلة لا من حيث أجزاء الماهية، فإنها ماهية لا تفتقر الى حد ولا يصطادها الحاد بالحد. فعينها أينها وأينها كونها، وكونها كلها.

المقولات نقطة منها، والنقطة عندها كالخط والخط عندها كالدائرة فيها والدائرة فيها دائرة عليها لا وسط لها ولا قطب، ولا يفهم الحكيم والقطب؛ فهي بالله في الوهم وهي الله في الحقيقة.

*

السبب هو يوم الأحد، والموحِّد هو عين الأحد، ويوم الفرض هو يوم العرض، والذاهب من الزمان هو الحاضر، والأول في العيان هو الآخر، والباطن في الجَنان هو الظاهر، والمؤمن في الجِنان هو الكافر، والفقير هو الغني.

وهذه وحدات حكمية لا أحداث وهمية. والمؤمن الكافر هو الذي يقول: سبحان من جعل من كل فرد زوجين اثنين، وجعل من زوج فردين، وجعل من كل فرد زوجين اثنين، ولم يكن قط في الوجود ثاني اثنين، بل يقول: سبحان الفرد الزوج الحضيض الأوج. ثم تخرج عن هذا التوحيد المثالي، وتفر عن هذا التجريد الخيالي. وتتصرف إلى قانون العبودية المكتفية وتقول: الكامل الكافر بوجه ما يضر أنفسه بمضرتين، ويلدغ من جُحْر مرتين، لكونه يريد أن ينفعها بذلك منفعتين لأن الخائف من لدغة الوهم الأول في العالم الأول الذي

يحجب بالوعيد العبيد الأشقياء، ويضر بالوعد السعيد الصم الأتقياء؛ حرم نفسه الإعادة، ففاتته السعادة، وظلمته فتنة العادة بخرق العادة.

والسالم هو الذي يلدغ فيموت، ويعدم فيفوت، ويكون بعد ذلك حياً لا يموت. قِسْم الوهم أنفع للسالك، وحجره أجمع للمهالك، وكل ذلك أكمل للمالك؛ لأنه إذا قتل فقد، وإذا حقق فقد، وإذا أضرم أوقد، لم تكن النار أوقد.

*

إيه! ما تقول الإحاطة المستلزمة في شعر شاعر شعر بشعوره ولم يشعر بشاعره،

وشك في نائمه وساهره؛ وتحير في أمره، ووجد في ظفره ما لم يجد في خبره،

وتعلق بجائزة وطمع في خيره، ثم تشفع بشمائل تشبهه فاستوحش، فشفعه بالشفيع فتشوش، ثم عقله بالوتر فتأنس، ثم عكس وما انتكس،

وكشف المشعور به والشعور والشاعر وما تحسّس، ولا تجسّس، وتوحدت منه النفس والنفيس. قلت له الإحاطة المذكورة: وصلت فالزم، وَهِمْت فاعزم. قال لها: العزم في الواقع غير جائز ولا نافع، وقد كنت فكرت في عزيمتي، ولذلك ما أدبرت في هزيمتي. قالت له الإحاطة المستلزمة: جميع ما جاء بواعظة الفكر، وكل ما قيل صحبة القوافي والفِقَر متصرفٌ إليَّ محسوب عليَّ، والوهم عيَّنه ووقّته وأيّنه. قال لها: قد علمت ذلك في الشعور الأول وفرغت منه. قالت له: من فرغت منه كنت عنه. قال لها: فما المعمول إذاً؟ قالت له: قطع التوجه هو الوجه الذي به تراني، وذلك الوجه توجهه دار إليَّ. فما أفتح ضد هذه المقابلة! وما أملَحَ جَذْبَ الوهم بالمقابلة! (...) فانكشف له أن الوهم أوهم لواجده حتى لحقه الوهم في وحدته، وقسمها قسمين فصار القسم الواحد للآخر كالجاحد،

ثم زاد الأمر وانقسم ثم صار أكثر من واحد حتى احتاج إلى شاهد، فطلبه الشاهد من العلم فامتنع، ثم طلبه من العمل فارتفع، فانصرف إلى الشاهد وطلب منه الشاهد فوجد عنده الشهادة؛ ومات على هذه الشهادة فخضع له وطاب وانطبع، وحكم له الحق فجمع القسمين في واحد وقال له:

لم تكن قط أكثر من واحد. فعند ذلك قالت ماهيته لهويته: أنت أنا. فسمعتها الآنية فقالت لهما: أنتما أنا. فاستجابت لها الإحاطة وقالت: أنا آنية الآنيات، وهوية الهويات؛ وماهية الماهيات. وكل ذلك قل أو كثر معنى واحد، وذلك المعنى هو أنا، ومن قال معي أنا أوقعته في العنا، إلا إن قالها من حيثي ويصرف الشاهد والمشهود إلى جميع الأوهام ويدور بالسلب من أجلي. حينئذ يكون أنا قال لها: قد كان ذلك؛ قالت له: فأنت أنا، وأنا أنت؛ وأنت وأنا معناه أنا. وهذه كلمات نافعة إذا لم تنصرف إلى الافتقار، ولا تتطور في مرات الوهم والافتخار؛ وتتصرف باللهو واللعب وتكون مكانتها من الوهم والكذب، ولا خير في خطةٍ غالطةٍ ومكانةٍ باطلة.

*

ذكر آخر: بل بحر تجري سفينة تحت موجه، وجواهره فوق أوجه. إن كان الذكر يحمل إلى الله فقد كفر الذاكر بإجماع أهل الذكر الخاص،

وإن كان يحجبه عنه فالأمر أضرُّ، وإن كان لا يحمل ولا يمنع فهو الوهم الأول الذي لا يذكره العارف.

وإن كان هو الفكر، بمعنى أنه لا يذكر إلا من يعلمه ويطلق القول عليه كالقول على القوة الوهمية والخيالية والمفكرة والذاكرة وكيف يطلق جميعها بحسب المواضع وكونها واحدة بالموضوع وكثيرة بالانفعالات والتغييرات والاستعدادات، فالذاكر من الأشقياء.

وإن كان الذكر ذكر العابدين، فالذاكر من أعداء الله المحبين. وإن كان الذكر ذكر العلماء، فالذاكر من الغافلين.

وإن كان الذكر بالعرض المخلوق فالذاكر لم يتميز فَضْله من الحيوان غير الناطق.

وإن كان الذاكر بالجارحة، فالذاكر من عباد الله البُلْه، نَعَم! وقلبه يجد حلاوته.

وإن كان الذكر يُطْلَبُ به الثواب، فالذاكر من الأشقياء عند الصوفية. وإن كان الذكر لكي يحضر به الذاكر، فالذاكر محروم النصيب.

وإن كان الذكر لغائب فالذاكر من أرذل الكفار.

وإن كان الذكر يُصلح الوقت، فالذاكر ممقوت.

وإن كان الذكر يُهيج حلل الذاكر فالذاكر بريء عن الله. وإنما الذكر نُكْتَةٌ إن وجدت كانت وكان الكل، وإن استُدعيت لم تكن ولم يصح البعض.

ومن كان ذاكراً بالوجه الشرعي واستقام على ذلك ولا يطبقه على مقام يطلب به المرتبة المشار إليها مِن فضِّ الهوية ويتأدب مع الرجال في مواجيدهم، سَلِمَ حاله.

*

الذات عَرِيَّةٌ عن المادة، والعلم كالمشوب بها شيء لا كالمستند إلى شيء، ولا كالمرتكز فيه ولا كالمربوط عليه، ولا كالملتحم فيه ولا كالحالِّ فيه كحلول الماء في الإناء. ولكنه وجود يسيل ولا يقف، ويستمر ولا يختلف، ويشار إليه صحبة مجموعه الأول والآخر والظاهر والباطن.

فالذات مع العلم دائماً وهي الباطنة وهو الظاهر بخلافك أنت الظاهر، وعلمك باطن أبداً وما في الوجود سواه معك وسواك به،

فأنت معين صورة علمه وغير معين علمه، وهو علمك، وحكمه فيك بخلاف حكمك فيه، ترى وتبصر وتعلم وبك يُرى ويُبصَر ويُعلَم.

*

الله فقط! يا من التفت ويلتفت: لا تلتفت إلى جهة وهم هذيان بعض الصوفية، ولقولهم توحيد الذات وتوحيد الصفات وتوحيد الأفعال، فإنه بعيد في بعيد، وهم في وهم في وهم. غير أن ذلك الوهم وهم لا عاقبة محمودة له، وأوله فيه وآخره به، وظاهره عليه وباطنه إليه.

ولا تلتفت إلى قول بعض الفلاسفة في قولهم: «عالم العقل» و«عالم النفس» و«عالم الطبيعة» و«الأول» و«العلة» و«الواجب بذاته» وجميع ذلك من مفروضات الأوهام،

وذلك أنهم يظهر لهم من الحقيقة جملة مدركات وهمية بالمدرك العظيم الذي يظهر لهم، وهو أجلُّ من غيره.

وهو مع هذا لا يستطيع على وصفه تعظيمهم، هو عندهم العلة والسبب الأول وذلك المشار إليه بالجلالة المطلقة.

ولذلك يعتمدون على وصفه بالسلب وغير ذلك من المدركات الذي هو بضد ذلك، هو عندهم بحسب مرتبته في إدراكهم فافهمْ.

*

ولا تلتفت إلى الفقهاء، فإنهم لا مرتبة لهم يمكن بها الاعتراض عليهم، ولا هم من قبيل اعتراضه هو أعني المحقق. فاعلم ذلك. لأنهم زعموا أن الأعمال هي المرتبة الشريفة لا من حيث الخلاص النفساني وما بعد العمل وفائدة التجرد والتخلق وأسرارهما الباطنية، بل من حيث الحكاية وتلك الحكاية مكذوبة على المعلِّم أو محرَّفة أو منقولة على غير وجهها فافهم. ومع هذا هي

عندهم في الخبر لا في الأثر، وفي المدرسة لا في حقيقة المدرس، وفي الكتاب لا في الكاتب، وفي الكاغد لا في الضمير. ومع هذا هم بها يؤذون عالم التنبيه وأشخاص النباهة.

ولا تلتفت الى المتكلمين، فإن حاصل أمرهم أنهم يعتقدون في الله أنه خيال الإنسان، وذلك الخيال فرضه وهمهم قديماً والشريعة عندهم مفهومة لعقلهم المعقول.

*

الله فقط! الله هو الذي وَجبَ له الوجودُ والوجدانية والكمال، ووجوده ينبني على نفي التشبيه؛

والتشبيه ينبني على إثبات التمييز والتغيير والتأليف؛

والوحدانية تنبني على نفي الشريك، والشريك ينبني على الاتصال والانفصال والحلول الانتقال، والكمال ينبني على نفي النقائص؛

والنقائص منها ما يمنع الأفعال، ومنها ما يمنع الكمال، ومنها ما يمنع الإدراك.

*

يا هذا! متى صَحّ الغير حتى يُعوَّل عليه!

*

الحذَر الحذَر من مجالسة صاحب الوجهين، وممن يختلس إذا لم يفترس. وإياك ومحادثته وتنفيذ أوامر وسوسته.

*

لا تعاند القادر، ولا تتابع الغادر، ولا تصحب الوارد والصادر، واعمل عمل حازم يحذر ما يتوقع ويعلم في البدايات لواحق الغايات.

*

إذا أدركت ما أدركه الرجال لا تغفل عن تدبير غيرك، ثم احفظْ ما أنت عليه واطلب الزيادة: فالقناعة من الله عين الحرمان.

*

مَنْ طَلَب ظفر، ومن ظفر ربح، ومن ربح تأنس، ومن تأنس نشط، ومن نشط زاد طلبه، ومن زاد طلبه أخرج ما لم يقصده ولا يخطر له على قلب، وهو كماله الأخير.

ومن حصل له كماله الأخير كان من السُّعداء، ومن كان من السعداء اشتد طلبه، وزاد شوقه، وعاين الذوات المجردة، وكشف له عالم الأمر، وطالع النظام القديم.

ومن طالع النظام القديم وقف طلبُه من حيث عادته وصفاته، وتحرك من حيث خرق عادته وصفاته بجوهره.

*

نورك سابق لظلمتك، وتوحيدك مركوز في أصل فطرتك، مقيد أنت بتركيب صورتك، مطلق ببسط روحانيتك.

الجمال يحييك ويثبتك، والجلال يعفيّك ويمحقك.

إن رقيت إلى المعالي فهي لك وأنت لها وأجلت روحك الحضرة فهو محلها ومنزلها.

الأرواح إذا ألقيت في بحر النور وغمست، والتحقت بعالمها العلوي وتقدست، وأجابت داعي الحضرة وحضرت، وقام بها السر الإلهي فشهدت ما كانت به عنه حجبت، واتصلت بما عنه انفصلت، وعادت كما كانت وما برحت، وحصلت على ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وسرى سرُّ الحياة في العوالم. فالله سر فأنت به وروح بها حييت! هنالك الولاية لله الحق! انبسطت العوالم وانتشرت، وبرزت العلوم الإلهية للعالم واتسعت، وكشف للقلوب عن

الغيوب وظهرت، وأفيض عليها من نور الأرواح فاستنارت القلوب وأشرقت، وزال عنها كَدَرُ الأغيار وَصفَت، وانفصل عنها شَوبْها وتخلصت، وترك قيد شكل أشكالها وأطلقت، وألقت السمع وشهدت ما عنه أخبرت، وطلع منها فجر ليلها وتجلى للبصائر مشهودها فأبصرت، وأمدت البصائر الأبصار بنور شهودها فرأت الحق ظاهراً في كل مرئي رأت. فنيت الحوادث ومحقت، بقيت الباقيات والحقائق تحققت، والتحق الأزل بالأبد، المُلْك لله الواحد الأحد.

إلهي! هذا ذُلّي في الدنيا بشؤم معصيتي، وسَتْرك مسدول عليّ، فكيف به في الآخرة عند هَتْك الأستار؟ وهذا سرّي باد بسوء الحال عليّ، فكيف به عند كشف الأسرار!

وها باب التوبة مفتوح وأنت تنادي: هل من تائب وأنا مقيم باق مع الإصرار، معلول مكسور ما وجدت للعلة دواء ولا للكسر جباراً، ناكِس الرأس خجلان بين الصالحين والأخيار.

لا أذني تسمع، ولا عيني تَخشْعَ، ولا قلبي يحضر، ولا فكري يرقى، ولا عقلي يعقل ولا أفهم، ولا لي اعتبار.

فقد غلبتني ذنوبي، وفتحت وجهي عيوبي. ماشٍ في الظُّلَم وأهلُ النور يمشون في الأنوار. عاجز عن دفع ضر أو جلب نفع، منقاد لما شئت مني بسلاسل الأقدار. ما الحيلة في المقدور، وإذا نزل أصمَّ السَّمْعَ وَأذْهَبَ العقل، وأعمى الأبصار. ليعلم أن السعادة السابقة لا شيء يرفعها، والشقاوة اللاحقة لا شيء يدفعها، لأن الأمر نافِذٌ صائب، وعلى كلا الفريقين حاكم غالب.

لا تنازع الأقدار فتهلك، ولا تُلق نفسك في ضِيق هذا المسلك، فإنه لا منازعة لمن هو غالب قاهر، ولا مدافعة لمن هو قوي قادر. لم يبق إلاّ التسليمُ عند تحقيق الغلبة وظهور العجز حيث لم يبلغ الطالب مطلبه.

*

إلهي! لولا حُسْن ظني فيك لَقَطَعَت المعصيةُ رجائي منك، ولولا ثقتي بحسن كرمك لأخذ الشيطان زمامي عنك.

عفوك وسيع فلا تُعْلَم له نهاية، وعزّك منيع فلا يوقف له على غاية.

إن أخذت فأنت ذو عز وسلطان، وإن غفرت فأنت ذو كرم وإحسان.

ولقد غلّبْتَ جانب الرحمة فلم تقطع رجاءنا منك بما أخبرتنا به عنك، وفتحت لنا من كرمك باباً وسيطاً.

*

إلهي! إنا لا نريد المعصية وإن غلبت، ولا نرضى بها وإن وقعت، ونرضى بفضلك ولا نرجو سواك، وعزمنا لا نعصيك وأنت تعلم ذلك منا. فثبّتنا على ما عليه عَزمُنا، وامحُ عنا ما عنه عجزنا.

*

(...) لا تطلب مني مزيد بيان، لأن المجال ضيقٌ والتكلم بالألفاظ على أمر هو من الأمور التي ليست من جنس ما يُكتسب. وهو من الغرابة بحيث لا يفهمه إلا السّعداء الأخيار. والكلام بما ليس من شأنه أن يلفظ به خبر، وكأني بمن يقف عليه من الجهلة الخفافيش الذين تظلم الشمس والكواكب والأنوار الطبيعية في أعينهم، داخل الذهن وخارج الذهن يتحرك في ميدان سخفه، ويُظهر محاربة من يحيط ويقهره بالجملة، ويتحرّك في سلسلة جنونه.

*

إيه، بالله من أقدم: المجاز أم الحقيقة؟ وكلامنا من حيث أصولهما. فإن المجاز مع الحقيقة في مفهوم العَرض، غير أن الحقيقة ترجع إلى الحق، والحق يرجع إلى الله من حيث هو أهمّ ذات له. والمجاز ينصرف إلى أفعاله. وصفة ذاته قديمة، وصفة فعله حادثة، والأمر فيهما ظاهرٌ جداً.

يا هذا، تعلقك بالقديم وإن كان على وجهٍ ما بعيداً، وفيه معقول المثلية، هو الأكمل وهو الموصِّل، وهو هو.

سقطت مكالمة من كلم غير الله عند أهله. وإذا أردت البرهان على ذلك، خذ نفسك بإنكاره، فإن لم تستطع فاعلمْ أن الأمر صحيح. وجميع من قال: وجدت الاستغناء عن الله، أو رأيت في الوجود غير الله، قل له: هذا من جهة العادة فقط، أو من كونك لا تعلم إلا المحسوسات، أو من كونك توهَّمت أحوال المؤمن والكافر، وكونك تقول الضرورة لا يختلف فيها أحد. وأيّ منفعةٍ للعلم، إذا كان الله في غاية الوضوح؟

*

ابن الدبّاغ*

واعلمْ أن جوهر النفوس القدسية الإلهية كلّها واحد، وإنما أوْجبَ لها الكثرةَ اختلافُ استعداد القوة الحيوانيّة التي في الجسم وتتفاوت لتفاوت مزاج الجسم في الاعتدال، إذ يوجد مزاجٌ أتمّ اعتدالاً من آخر،

فأعطى الحق تعالى كل جسم نفساً تليق به باستعداده الذي خلقه فيه من الكمال والنقص والقوة والضعف.

كما أن جنس النور واحد ويختلف أثره في الأجسام المضوّأة به لاختلافها في نفسها. وإذ قلنا إن النور بالجملة واحدٌ فإنما يختلف بالشدّة والضعف. فنورُ الشمس أقوى من نور القمر ونور القمر أقوى من نور الكواكب. وكذلك المياه جنسها واحد وإنّما يتنوّع بأمورٍ عرضت لها زائدةٍ على جوهر الماء من الحرارة والبرودة والعذوبة والملوحة والغلظ والرقّة، فهذا هو سبب الخلاف العارض للنفوس في هذا العالم ولأجل هذا الاختلاف اختلفت العلوم والمعارف والإدراكات والأذواق ومنازل العارفين.

*

ومما يزيدك وضوحاً أنّا لو فرضنا شخصاً واحداً قد قابلت وجهه مرايا كثيرة مختلفة الأشكال بالصغر والكبر والصفاء والكُدْرَة وسائر الاختلافات فإنّا نَجِدُ كل مرآة منها تنطبع فيها صورة مخالفة للأخرى وذلك لاختلاف المرايا، لا لاختلاف صورة ذلك الشخص الواحد في نفسه. فلو فرضنا

---

* أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري القيرواني المعروف بابن الدبّاغ، توفيّ سنة 696 هـ.

مرآتين متساويتين في جميع الصفات الذاتية والعرضية حتى لا يوجد بينهما فرق لكانت الصورة الحاصلة فيهما من ذلك الشخص واحدة، وهذا الفرض باطل لعدم التساوي بالكلية.

لكن لما تقاربت المرايا في المناسبة تقاربت الصور في المماثلة.

فلو وُجد إنسانان متساويان في صورة الاستعداد الإنساني وخُلقت لهما على هذا التقدير نفس واحدة لكان معلومُ كل واحد منهما نفسَ معلوم الثاني وبطلت الإثنينية وحصل الاتحاد وهذا متعذّر.

وإنما يتقارب المناسب مقاربةً شديدةً وهذه المناسبة هي الموجبة للمحبّة.

*

ولما قلنا* إن النفس قبل كمالها لا تكتسب المعارف المكمّلة لذاتها إلا من الخارج بطريق الحواسّ، حتى أن مَن فقد الحواسّ فقد فقَد العلوم الضرورية، ولا تدرك النفس الجمال الجزئي إلا بحاسّة البصر. فإن البصر مهما أدرك الصورة الحسيّة عند المقابلة بما فيه من النور الباصر ونَقَلَها إلى الخيال تمثّلت فيه على ما كانت عليه في الخارج، ويكون انطباع الصورة في الخيال بقدر صفائه وسلامته من الآفات، فإن كان للنفس اعتناءٌ بهذه الصورة حفظتها الحافظةُ حتى تنقلها إليها وإلا امّحت وتلاشت، ولا تزال النفس تطّلع على خزانة الصور وتنظر لما يحصل فيها من الصور بواسطة الجزء الفكري. وإنما مثالهما في ذلك كمثل مرآة مقابلة لأخرى وفي الأولى منهما نفوس كثيرة وصور مختلفة فإن جميع ما في المرآة الأولى ينطبع في الثانية، وقد يغيبُ بعض تلك الصور لضعف القوة الحافظة فلا تزال النفس تطلبه بواسطة القوة المفكّرة حتى تستفيده من عالم الغيب الذي

* من كلام له في الطريق الموصلة للنفوس الزكية إلى المحبة الحقيقيّة.

تتلقّى منه النفوس معارفها، لأن النفوس بطول العناية بتلك الصورة تستعدّ لحصولها من عالم غيبها لا من خارجٍ. ثم كلما ناسبَتْ تلك الصورة التي في الخيال النفس تصرفت فيها القوة المفكّرة فجَرّدَتْ منها عوارض الجسم وأخذت منها المعنى الروحاني، وهو الجمال المجرّد عن علائق الجسم الذي هو مناسبٌ للنفس المجرّدة، فتنطبع هذه الصورة المجرّدة في النفس المدركة انطباعاً متمكناً من أجل المناسبة، فتحصل لها بها علاقة شديدة لشهودها لذاتِ الجمال المجرّد في ذاتها بذاتها دون احتياج إلى تجديد أمر من الخارج، وتعظم هذه العلاقة في النفس لابتهاجها بإدراك روح الجمال. ثم لا تزال هذه الصورة المنطبعة في النفس تزداد لطافةً وروحاً ومحلّها صفاءً وإشراقاً إلى أن تتّحد بها النفس اتحادا عقلياً بحيث تستغني عن العوارض الجسمية والصور الخارجة اكتفاءً بما حصل فيها ولعلمها أن صورة المحبوب الحقيقية إنما هي التي حصلت عندها وأنّ رسوم الجسم ليست هي تلك الصورة الجميلة وإن كانت الأجسام مظهراً لها. كما أن المرآة مظهرٌ للصورة المرئية بها وليست المرآة هي الصورة ولا الصورة فيها، وإنما استغنت النفس بهذه الصورة التي فيها لأنها فيها ألطف وأقرب مناسبةً وأشدّ روحانيةً مما هي في الخارج، فلهذا مازجتها النفس أشدّ ممازجة لتجرّدهما جميعاً من الموادّ والعلائق بخلاف ما هو في الخارج، ثم لما حصلت النفس مدركة للصور الروحانية بذاتها وغير مفتقرة إلى الحواسّ وعلمت أن الذي أدركت أثر من آثار العالم العلوي اشتاقت إليه بالكلية، وعنده استعدّت لتلقّي الجمال الكلّي من أفق العالم العلوي فيسنح لها الجمال الكلي من العوالم النورية وتلتذّ بذلك لذّة تحتقر معها لذة جمال الأجسام الإنسانية وإن كان كلّ ذي جمال محبوباً، جزئياً كان أو كُلّيّاً، لأنه أثرٌ من آثار العالم العلوي المعشوق، إلا أن الجمال المشرق على الهياكل الإنسانية يكون

بواسطة نفسه والمُشرق من العالم العلوي على النفس تدركه دون وساطة ولا تحديد، وجنسهما واحد وإنما الفرق بينهما تفاوتهما في القوّة والضعف الذي أوجبه اختلاف محَالّها كما أنّ عكس النور أفضل من عكس عكسه.

فالجمال الظاهر يفهم بواسطة الحواسّ والقوى البدنية، والجمال الباطن تفهمه النفس من ذاتها بذاتها لكن بإفادة العالم الأعلى.

*

قال الحسين بن منصور الحلّاج: المحبة قيامكَ مع محبوبك بخلع أوصافكَ لأن كلّية المحبّ تطابق كلّية المحبوب فغيبتُه غيبة محبوبه ووجوده وجوده.

وقيل: المحبة سرور القلب بمطالعة جمال المحبوب.

وقيل: المحبة محو المحبّ بصفاته وإثبات المحبوب بذاته.

وقيل: حقيقة المحبة أن تمحو من القلب ما سوى المحبوب.

وقيل: المحبة نار في القلب تُحرق ما سوى المحبوب.

وقيل: المحبة أن تهب كلّيتَك لمحبوبك فلا يبقى لك منك شيء.

وقيل: حقيقة المحبة ما لا يصلح إلا بالخروج عن رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب.

وقيل: المحبة معنى من المحبوب قاهرٌ للقلب تعجز العقول عن إدراكه وتمتنع الألسنة عن العبارة عنه.

وقيل: المحبة أغصانٌ تُغرَس في القلب فتُثمر على قدر العقول.

فهذه أقاويل مفترقة ترجع إلى معانٍ متقاربة كلها خارجة عن الحقيقة إذ هي إما ثمرة من ثمراتها أو لازم من لوازمها، وسبب من أسبابها، أو شرط فيها.

والحقيقة كما قلنا لا يمكن أن تؤخذ من الألفاظ، فإن الألفاظ المتعارفة لا يوجد فيها لفظ يوفي بحقيقة المقصود.

وأيضاً فالمحبة ألطف الأشياء فإذا كُسيتِ الألفاظَ والحروفَ، وهما من عالم الحس الكثيف، فقد كثُفت لذلك وخرجت عن موضعها من اللطافة الذاتية لها.

*

وأيضاً فإن المحبة لا يعبِّر عنها حقيقةً إلا من ذاقها،

ومن ذاقها استولى عليه من الذهول عما هو فيه أمرٌ لا يمكنه معه العبارة،

كمثل من هو طافح سُكراً إذا سُئل عن حقيقة السكر الذي هو فيه لم يمكنه العبارة في تلك الحال لاستيلائه على عقله.

والفرق بين السكرين أن سكر الخمر عرضيٌّ يمكن زواله ويُعبَّرُ عنه في حين الصحو،

وسكر المحبة ذاتيّ ملازم لا يمكن من وصل إليه أن يصحو عنه حتى يُخبر فيه عن الحقيقة.

*

وأيضاً: فإن الحد الحقيقي ما تركّب من جنس وفصل؛ والمحبة لا جنس لها ولا فصل.

وأما حدّها على ما تُعطيه العبارة اللفظية فهو ابتهاج يحصُل للنفس عن تصوّر حضرة ذاتٍ ما، فهذا من أجْوَد ما تُحَدّ به المحبة،

لأنّا قد نجد ظهور بعض الأمور الغريبة التي يُجريها الحق تعالى في العالم إنما يكون سببه شدة تصوّرات النفس، وكلما كان التصوّر شديداً كان ذلك أشدّ،

فيتعدّى بهذا التأثير أولاً إلى بدنها ثم إلى الخارج، فإن كانت النفس فاضلة كان ما يظهر عنها نورانياً فيه لذّةٌ وقهرٌ كالمحبة، وإن كانت شريرة

كان ذلك شراً وفساداً موجباً للألم والهلاك، كالأخذ بالعين إذ معناه أثرٌ يُحدثه الحق بواسطة نفس خبيثة بتصوّر هلاك شخصٍ يحصل عن ذلك التصوّر.

وكذلك النفس الحيوانية إذا تصوّرت صورة ملائمةً لطبعها يبعث ذلك التصوّر أعضاءَ بدنها على جلبه،

وإن كان غير ملائم دفعتها عنها بالقوة الغضبية،

وقد يحصل عن تصورات النفس الحيوانية أعراضٌ كثيرة على سطح بدنها مثل حُمرة الخجل وصُفرة الوجل واشتعال الحرارة عند الغضب بعد كمونها واستحالة الدم إلى المنيّ عند تصور لذة الوقاع إلى غير ذلك. وأما الوهم فربما صوّر في الخيال صُوَراً تُوفِّر في الأجسام فسادَ المزاج حتى يؤدّي ذلك إلى الموت.

فإذا كان يَظْهَرُ بتوسط قوى النفس الحيوانية هذا الأمرُ فما ظنّك بتصوّرات النفس الإلهية! فإنها إذا تصورت قرب الحق تعالى ولذة مشاهدته التي هي غاية كل كمال ونهاية كل جمال فلا تُقدَّر اللذة الواردة على العارف في تلك الحال ولا تحرّر العبارة عن شدة طربه الروحاني وابتهاجه القدسي،

ونحن نشاهد مَن تفكّر في عظَمة الحق تعالى وكبريائه وعزّ جلاله ترد عليه من أنواع الاضطراب والإغماء والخروج عن عالم الحسّ أمورٌ عظيمة،

وربما خرجَت روحه فَرَقاً وخوفاً من الله تعالى،

ومن تفكّر في بدائع جماله وكماله طارت نفسه محبّةً له وشوقاً إليه.

ولهذا قال بعض العارفين: «إنما لذّاتي بذاتي في ذاتي».

*

وأما مقام الهوى* فمعناه ميل القلب بالكلية إلى وِجهة المحبوب والإعراض عمّا سواه وتجريد القصد له في كل حين وصرف الهمة إليه، وفيه تستحكم المحبة وتشتدّ صورتها وينبسط سلطانها ويستولي لاعج الشوق.

ثم إن الهوى وإن كان وضعاً لازماً للمحبّ فهو يتجدّد بتجدّد النظرات إلى الصور الجميلة، والمحاسن الرائقة النبيلة، والشمائل اللطيفة المعاني، وفتور الألحاظ الذي يُلحق الطليق بالعاني،

فيجلبُ له الهوى من كل صَوْب، ويحدد له الأشواق من كل ناحية وأوب، فهو رهين غرام، وأسير سقام.

*

فأما مقام الشَغَف وهو الكَلَف والولوع بالمحبوب، وهو عند أهل اللسان العرفي بلوغ الحب إلى شغاف القلب أي أصله. وليس القلب في الحقيقة هذا الشكل الصنوبري الذي تحيط به الأضلاع، كما هو للبهيمة، ولكن القلب سرّ الإنسان ومحلّ اطّلاع الربّ الذي لا تحيط به الأجسام.

*

وأما مقام الوجد فمعناه وجود ذات المحبوب وسائر صفاته الحقيقية منطبعةً في ذات المحبِّ انطباعاً ثابتاً بحيث لا يمكن زواله، ولا يُتصوّر انفصاله،

وإذا بلغ المحبّ إلى هذا الحدّ فقد ذهب عنه الكسب والاختيار، واستوى في حقه الإعلان والإسرار، ودخل في أودية المحبة، وسكر من صفو مدامها سكراً دوامُه بدوامها إلى أن صار السكر يهيم به في كل واد، ويسلك به في الأغوار والأنجاد، لا يقرّ قراره، ولا يطمئنّ به دارُه.

*

---

* من كلام له في أقسام المحبة الجنسيّة والنفسيّة.

(...) أما الكمال فمعناه حضور جميع الصفات المحمودة للشيء وهو ينقسم إلى ظاهرٍ وباطن.

أما الظاهر فهو اجتماع محاسن صفات الأجسام اللائقة بها وهو يختلف باختلاف الذوات. فكمال كل شيء بحسب ما يليق به، فالذي يكمل به شيء غير الذي يكمل به شيء غيره.

فإن الصفات التي تُكمّل ذات الإنسان غير التي تُكمّل ذات الحيوان، والتي يكمل بها الحيوان غير التي يكمل بها النبات.

ولذلك الذي يُكمّل جنساً من الأجناس غيرُ الذي يُكمّل الجنس الآخر حتى أن الذي يُكمّل عضواً من أعضاء البدن غيرُ الذي يُكمّل العضو الآخر.

فكمال صورة الإنسان الظاهرة في تناسب أعضائها واعتدال مزاجها وامتزاج البياض والحمرة في لونها ورقّة بشَرتها وغير ذلك،

وكمال الفرس في قبوله لما يُراد منه من الكرّ والفرّ وحسن تأديبه لكي يتمّ المقصود منه،

وكمال النبات غضارته ونضارته وبدائع أزهاره واختلاف ألوان نُوّاره، وكمال الصوت في رخامته وعذوبته،

وكمالات الأجسام كثيرة. فهذا هو الكمال الظاهر والنفوس تتأثّر به لأنه مظهر الجمال المحبوب بالطبع الروحاني والنفساني، إذ الإنسان السليم من الآفات يحبّ الصورة الحسنة الخلق وينفر عن الصورة المشوّهة المنكوسة أو التي فيها نقصٌ أو شينٌ.

والحواسُّ التي هي رُسل النفس إلى الجمال المبدّد على صفحات الموجودات تستريح إلى رؤية الماء الصافي والأزهار المونقة والأرايح الطيّبة، والأصوات الرخمة والنغمات الموزونة حتى إنّ إدراك لذّة هذه

الأشياء تُذهب الحزن وتُفرّح القلب وتبسط الأمل وتُسلي الهموم للمناسبة التي بين النفس وبين الاعتدال والصفاء والنور ومضادّةِ طبعها للظلمة والكدرة.

فأما تأثير الألحان والأنغام الموزونة فيعظم وقوعه في النفوس حتى إنّه يتعدّى الى أرواح الحيوان غير الناطق، فإنّا نجد الجمل على غِلَظ طباعه يحمل الأثقال العظيمة فإذا سمع صوت الحُداة قطع المسافة الطويلة في الزمن القصير،

وكذلك الطيور تطرب لحسن النغم؛

والطفل الرضيع يسكن ضجَرُه عند التلحين ويهدأ كربه وينام.

ويكفي في ذلك ما يُحكى عن الآلة المسمّاة بالأرغن وتأثيرها في النفوس من الأخلاق المختلفة. فميل النفوس إلى هذه الأمور المناسبة لها أمرٌ طبيعيّ فيها لا يُنكَر ومحبتها لها إنما هي لذاتها لكونها مظهراً للجمال، فإن قارنتْ اللذة لذة أخرى مثل مقارنة لذة النظر إلى الصور الجميلة الآدمية شهوة النكاح، فإنما تلك الشهوة عن باعث آخر من الطبع الحيواني، إذ شهوة النكاح مغايرة للذة الإدراك النفساني، والباعثُ على هذه غير الباعث على تلك.

فإن النفوس لما كانت ثلاثة أجناس: نباتية وحيوانية وإنسانية، فلذة النباتية في المطعم والمشرب، ولذة الحيوانية في المنكح وفي موجبات الغضب من التشفّي والانتقام والرياسة، ولذة النفس الإلهية في تحصيل المعارف الربّانية والانتعاش بالعلوم الدينية والقرب من الحقّ تعالى ومحبته. فالإنسان على هذا يجانس النبات بالنفس النباتية والحيوان بالنفس الحيوانية والملائكة بالنفس الإلهية.

*

ولما كانت هذه القوى الثلاث في الإنسان متغايرة كانت لذاتها أيضاً متغايرة على ما قلناه.

ومما يدلّ على اختلاف البواعث على هذه اللذات أنّا نجد الحمار مثلاً إنما ينكح لدفع الفضلة المجتمعة فيه لا لأجل حسن صورة المنكوح عنده، فإن البهيمة لا تفرق في نكاحها بين الصورة الحسنة والقبيحة.

وكثير من الناس لا ينكح إلا لتحصيل الولد، وآخرون لمحض اللذّة لا غير، وهو الأكثر، والعارف ليتخذ هذه اللذة سُلّماً لفهم اللذات الأخروية للمناسبة الروحانية التي بينهما حتى يفهم تلك اللذة من ذاته. وبهذا القصد تخرج هذه اللذة عن صورتها الظاهرة وتصير من الكمالات، وقد يوجد في الناس من يفقد شهوة الجماع البتة ولا يفقد شهوة النظر إلى الصورة الجميلة وبالضدّ كالبهائم. فدَلَّ على تغاير الشهوتين. وأيضاً فإن الذي يلتذّ بالنظر إلى الأزهار الأنيقة والرياض الأريضة والمياه الصافية والنقوش المزخرفة لا يحبّ نفسها ولا يحبّها إلاّ لمجرّد لذة النفس بالنظر إليها لا غير، فإن كون هذه الأشياء على غاية اعتدال صورتها الظاهرة كمالٌ لها، والكمال محبوب بالجبلّة لا يُنكَر ذلك ولا يُدفَع.

*

وهو ينقسم* على قسمين مطلق ومقيَّد.

أما المطلق فهو الذي يستحقّه الحقّ تعالى وينفرد به دون خلقه فلا يشاركه فيه مخلوق، وهذا هو الجمال الإلهي جلّ عن تمثيلٍ وتكييفٍ وتشبيه أو وصف حقيقةٍ، عجز الأوّلون والآخرون عن إدراك كنه ذاته، فلا يدركه غيره ولا يعلمه سواه،

---

*في الجمال وحقيقته.

وإنما حظُّ الخلائق منه عجزُهم عنه.

*

وأما الجمال المقيّد فإنّه ينقسم إلى كليّ وجزئيّ. أما الكلي فهو نورٌ قدسيّ فائض من جمال الحضرة الإلهية سَرى في سائر الموجودات علواً وسفلاً وباطناً وظاهراً.

فأول إشراقه على عالم الملكوت، ثم على عالم الجبروت وهو عالم النفوس الإنسانية، ثم على القوى الحيوانية ثم النباتية، ثم على سائر أجسام العالم السفلي على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها،

فما من ذرة من العالم إلا وقد أشرق عليها من هذا النور الإلهي والجمال القدسي بقدر احتمالها؛

لكن قبول الأشياء له بقدر العناية الأزلية، ولولا ذلك لم يكن للأشياء ظهور.

فإنّ هذا هو سرّ الوجود وبه ظهر، ولو فُرِض عدَمُه لم يكن موجوداً في العالم، وهو أظهر الأشياء فلا أظهر منه، ولا يُدرَك إلا بنور العقل.

وكما أن نور الشمس به ظهرت الألوان والأشكال والصور ولولاه لم تَظهر للحسّ فهو شيء زائد عليها.

فالقاصر النظر إذا شاهد صورة الأشياء يعتقد أنّ ليس معها شيء زائد عليها ويُنكر هذا النور الذي به ظهرت حتى أدركها الحسّ.

فإذا ذهب ذلك النور وعدمت صورة الأشياء من البصر حينئذ يتفطّن أن النور كان سبب ظهورها وإنما خفي لشدة ظهوره.

فكذلك الجمال الكلي لم يخلُ عنه موجود، لكن لا يدركه على الحقيقة إلا من كانت ذاته كلية، كما أن من كانت ذاته جزئية لا يدرك إلا الجمال الجزئي.

والكليّ الذات هو الذي تُناسب ذاته جميع الذوات فيكون كلَّها وتكون كلَّه؛

وذلك أن العارف لما ناسب الأشياء كلها بما له معها من الاشتراك في النور الإلهي الذي لم يخل عنه موجود لم ير ذاته شيئاً غير ذلك النور، وكذلك سائر الأشياء لا يراها شيئاً إلا ذلك أو لا يرى لها من ذاتها سوى العدم المحض،

وإنما الوجود لها من ذلك النور ويراه مع هذا شيئاً واحداً فيعلم يقيناً أنّه هو ذلك النور الواحد الذي غمر سائر الأشياء فكان كلَّها وكانت كلَّه.

ثم أنه يفنى عن الكلّ برؤية موجد الكلّ، ولا يصح هذا إلا لمن كان الحق تعالى سَمْعَه وبصره إذ لا يشهد الكلَّ إلا الكلُّ.

*

وأما الجمال الجزئي فهو نورٌ علويّ يسنح للنفس الإنسانية عند إدراك الصورة الجميلة الحاصلة في لوح الخيال المنتقش بقلم الحس البصري تتهيّج به فتستعدّ بذلك الابتهاج لقبول إشراق نور آخر أشدَّ روحانيةً منه من عالم الأنوار المقدّسة، إذ النور يستدعي النور فينجذب إليه للمناسبة بينهما. فذلك الابتهاج هو المعبَّر عنه بالمحبّة التي تُفضي بالنفس إلى العشق. وإلا فليس في قوى الأجسام ما يؤثّر في النفس الإنسانية ذلك التأثيرَ، إذ لا يفعل الكثيف في اللطيف.

*

وهذا الجمال من حيث الجملة ينقسم إلى ظاهر وباطن. فالظاهر منه ما يتعلق بالأجسام فلا يُدرَك إلا معها.

والباطن ما لا علاقة له معها، وهو الجمال العقلي المجرد. والجمال الظاهر وإن كان له تعلّقُ بظاهر الجسم فهو منزّهٌ عن الحلول فيه، وإنما معناه تجلّي نفسٍ إنسانية وإشراقُها على بدنها بأنوار الجمال،

ولا يُدرَك مجرّداً بالحواسّ وإنما يُدرَك بنور العقل لدقّة معناه ولطافته، فإن العقل نور والجمال نور، فلا يُدرَك النور إلّا بالنور.

والحواسُّ إنما هي قُوَى النفس الحيوانية وهي جسمانية فلا تُدرِك شيئاً إلا مع أشكال الجسم وأوضاعه، وعلى تلك الهيئة يُنقَش المرئيّ في لوح الخيال، فصحّ أن الذي يدركه البصر مظهر الجمال لا ذاته.

لكنّ البصر إذا ودّى ما أدركه إلى الخيال أدركتِ النفسُ معه روح الجمال مجرّداً عن علائقه وأوضاعه ونقلته إليها،

فذلك هو الجمال المجرّد الزائد على الجسمية، وهو الذي يسبي العقولَ وتتفتّق به الأرواح،

لكنه لا يُدرَك إلا مع صورة الجسم التي هي في غاية الكمال. فإن وُجد فيها هذا الكمال وُجد الجمال معه، وإن عُدم عُدم. فالكمال مظهر له ومستدعٍ لوجوده. ولذلك كانت النفس تحبّ الكمال، لأن الجمال لا يوجد إلا مقارناً له، كما أن وجود الصورة يكون مقارناً لصفاء المرآة.

*

وأما الجمال الباطن فهو ما تفيده الأنوار القدسية الإلهية إذا أشرقت على العقول الزكية من الاتصاف بأنواع العلوم الدينية وأسرار المعارف الربّانية المؤدّية إلى المحبة الحقيقية وسائرِ الكمالات والفضائل.

ولا يُدرِكُ هذا الجمال إلا العقولُ التي هي في غاية الصفاء المستنيرة من أنوار الله التي تكون سبباً لحصول محبّة الحق تعالى بجملة القلب. فإذا تجلّى هذا الجمال القدسيّ من الأفق الأعلى على القلب المطهَّر عن نجاسة الطبع وشاهدته النفوس في ذاتها ابتهجت به ابتهاجاً شديداً، وحصل لها بتلك المشاهدة لذّةٌ لا تُقاس بها لذّات الحواسّ،

فإن لذّات الحواسّ إنما كمالها بحسب كمال الحاسّة التي بها أُدركت، وكمال الحواسّ بحسب صفاء مادّتها من الروح الحيواني الذي هو قوة الجسم.

وكما لا نسبة بين قوى الجسم ونور العقل فكذلك لا نسبة بين لذّات الحواسّ ولذّات العقل،

فإن الحواسّ إنما تُدرك بإشراق نور النفس الحيواني عليها، والنفس الحيوانية إنما تُدرِك بإشراق نور النفس الإنسانية، والإنسانية بإشراق نور العقل عليها،

(...) وكما أن لذة المُلك والاستيلاء على الأقاليم وقهر الأعداء ونصر الأولياء عند من توفّرت دواعي نفسه النزوعية أعظمُ من لذة المطعم والمشرب والمنكح لأنّه يترك هذه لها،

فكذلك لذة الجمال العقلي عند من توفّر حظّه من كمال العقل أعظمُ من سائر لذّات الحسّ وسائر لذّات القوى الحيوانية،

بل العقل إذا كمل لا يستحسن لذّات الأجسام المظلمة ولا يركن إليها لخسّتها عنده وعدم بقائها بل يتأذّى بها لكونها حجاباً له عن رؤية الحقائق الإلهية، والنفوس الفاضلة بطبعها أمْيَلُ إلى قبول الصور الروحانية من الصور الجسمانية ما دامت على اعتدالها ولم تتسلط عليها الأوهام،

فإنّ غلبة الوهم تحيل النفس عن اعتدالها حتى تستحسن لذة الأجسام وتركن إليها وتعمى عن رؤية الحقائق، مثل المريض إذا فسد مزاجه فإنّه لا يستلذّ باللذيذ ولا ينفر طبعه عن البشيع لمرض حسّه. ومن أنكر اللذات العقلية فقد عدم البصيرة الباطنة كما أنّ من أنكر جمال الصور الجسمية فقد عدم البصر، وهو كالعنّين إذا أنكر لذة الوقاع.

*

ومعناها* وجود صفةٍ خاصّية في المحبوب تطابق مثلها من المحبّ تحمله على المحبة.

وهذه المحبة دقّ فهمها عن العقل البشري كما دق معنى التعاشق الذي بين حجر المغناطيس والحديد.

أما وجودها فالدليل عليه أنّا كثيراً ما نجد شخصين بينهما محبة مفرطة من غير أن نعقل لتلك المحبة سبباً ظاهراً فإن الأسباب التي توجب المحبة معلومة وكلها ترجع إما إلى وجود إحسان من المحبوب إلى المحب وإما لكمال المحبوب في ذاته باتصافه بالجمال الظاهر أو الباطن من أجل شغف النفس بحبّ من اتّصف بهذه الصفات التي هي أسباب المحبة.

وأما هذه المحبة فليس لها سبب من هذه فلها إذاً أسبابٌ دقّ فهمهما عن العقول، وهي خواصّ في النفوس لا يصل إليها فكرٌ وإن دقّ.

ويزعم أهل التنجيم أن سبب ذلك مناسبةٌ توجد بين الكواكب وتشكُّل الفلك بشكل مخصوص عند مولّدي الشخصين المتحابّين يوجب ذلك بينهما تعاشقاً جسمياً.

بسطوا ذلك في كتبهم، وهذه منهم دعاوى لا برهان عليها.

وفهمُ حقائق هذه المناسبة الروحانية متعذّر جداً، والذي يثبُتُ أن هذه المحبة لا يُتوصّل إليها بسبب، ولا توجد عن طلب، وإنما هي تعارفٌ جعله الله تعالى بين القلوب لا يعلمه سواه.

*

وإلى هذه، الإشارة بقوله عليه السلام: «الأرواح أجناد مجنَّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»، ويعني بقوله أجناد مجنّدة أي أنواعاً وأشكالاً، وأراد بالتعارف المناسبة.

فما تناسب من النوع الواحد تآلف وما لا يتّفق في النوع تنافر.

* من كلام له في المحبة المعنوية.

لأنّه لا مناسبة إذا اختلفت الأنواع فلا تآلُف. ولهذا نجد كل نوع من الحيوان يحنّ إلى نوعه كما نجد كل صنفٍ من الناس يحنّ إلى صنفه. فمن الناس مَيْلُ العالم إلى العالم والجاهل إلى الجاهل والملك إلى الملك والسوقة إلى السوقة والتاجر إلى التاجر والفلاّح إلى الفلاّح والصانع إلى من يشاركه في صناعته تلك. حتى إن الصبيّ يحن إلى الصبيّ والشيخ إلى الشيخ. وكذا في الحيوان غير الناطق مثل الحمام إلى الحمام والغراب إلى الغراب والوحشيّ إلى الوحشيّ والأنسيّ إلى الأنسيّ. وقد تتّفق مناسبةٌ هي أبعد من هذه في أمور عرضية مثل ما يألف الغريب الغريب والمريض المريض والحزين الحزين والمحبّ المحبّ.

*

اعلم* أن السالكين لمقامات المحبة ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

الأول قومٌ وصلوا إليها من طريق الحسّ والخيال ولم يجاوزوهما،

الثاني قوم وصلوا إليها من طريق الحسّ والعقل جميعاً،

الثالث قوم وصلوا إليها من طريق العقل خاصّة متجاوزين لما قبله.

أما القسم الأول فموضوع محبتهم عالم الأجسام وحسن صورها وبديع أشكالها لا غير. ولا تجاوز محبتّهم عالم الخيال الباطن، فهؤلاء مفتونون بتناسب الهيئات وجمال رونق المرئيات، وبدائع غرائب صنعة المخلوقات. وفي هذه المحبة يُستعمل كثير من رسوم المحبين من العوامّ مثل القرب والبعد الحسّيَّين. وكذلك الوصل والفصل والغيبة والحضور والحجاب والتجلي والفراق واللقاء وسائر أعراض الجسوم.

---

* من كلام له في أقسام المحبيّن في السالكين.

إذ لا يعقل أربابها إلا عوارضَ الجسم دون المعاني التي هي أرواح الأجسام.

فلذلك نجد أرباب هذه المحبة قد أفنَوا أعمارهم في ندب الربوع الدارسة والبكاء على الأطلال الطامسة والحنين إلى عَرَصات الديار، والتلهّف على الكثبان والأحجار، شوقاً إلى ربّات الحجال، ووَجْداً على ذات الخال والخلخال.

فقلوبهم بنار الوجْد على المَغاني محترقة، ودموعهم إثر الظاعنين مستبقة. يتزايد وجدهم عند رؤية الهوادج تحملها الجِمال، ويتجدّد غرامهم لمعاينة الآثار بين أحجارٍ ورمال.

كل هذا من غلبة الوهم والخيال. فإن الوهم يخيّل لهم أن عَين الجمال المطلوب هو حسن الهيئة الحالّة في الأجسام وليس وراء ذلك شيء، فاستحوذ هذا الوهم عليهم حتى عشقوها، وأتلفوا نفائس نفوسهم فيها، فأعماهم عشقُهم لها عمّا وراءها من الجمال الحقيقي المتجلي عليها الذي هو رسول عالم القدس إلى النفوس الزكية، فقد طلبوا الأشياء من غير محلها.

وفي هذه المحبّة يقع كثير من التخليطات والشُبهات لما يقارنها في بعض الأحوال.

وعند العوامّ من مطاوعة المنازع البهيميّة، وارتكاب المناهي الشرعية، وهي تزيد باللقاء وتنقص بالجفاء، وما أسرع زوالها عند الموت وأقلَّ غناءَها في الآخرة!

وأحوال هذا الصنف من عشّاق مجرد الجسم معلومة ولا حاجة بنا إلى الإطناب في وصف أحوالهم.

*

وأما القسم الثاني من أقسام المحبّين وهم الذين وصلوا إلى المحبة من طريق الحسّ ثم بعد ذلك بلغوا إلى إدراك العقل ولم يقفوا مع عالم الخيال بل جاوزوه، وهم الأكثر من خواصّ السالكين،

فمحبوبُ هذا الصنف الجمال المعلّق بمحلّه. ثم بعد الإمعان في المعرفة يجرّدونه عن محلّه،

وذلك أن البصر إذا ودّى الصورة الحسّية إلى الخيال على ما هي عليه من العلائق الجسمية يجرّدها الفكر عن العوارض الغريبة وينقل أرواحَ معانيها إلى النفس فتلتذّ بها إذ ذاك.

ولكن لا تكتفي بما حصل فيها من هذه الصورة الروحانية بل تطلب كمال المعنى الذي أدركته من محبوبها من الخارج بطريق البصر.

ولا ينقطع هذا الطلب عنها ما لم يحصل لها الاتحاد بالصورة.

وهذه المحبة وَسَطٌ بين الطرفين، فهي شريفة من حيث حصول حقائقها في النفس والتذاذ النفس بها لذّةٌ هي أعظم من لذّة قوى البدن.

وكثيراً ما تُفضي إلى ذوق الصنف الثالث، وهي أيضاً ناقصةٌ من حيث أنها متعلقة بشخص معيَّن مقصورةٌ عليه تزيد لذّتها بحضوره وتنقص بغيبته، والنفس غير متكيّفة بما حصل فيها من المعنى المُدرَك.

ولهذه المحبة شروط وعلامات: فمن علاماتها إيثار المحبوب على ما سواه، فإنّه لو علم أن في العالم من هو أكمل من محبوبه صفة أو أتمّ محاسنَ لَصَرَف عنان محبتّه إليه. ويلزم عنها أيضاً فراغ القلب مما سوى المحبوب وبذلُ النفس في جانب محبته، فلا يبقى فيه للغير شيء ولا لنفسه أيضاً، بل يكون إقباله عليه بالكلية، وهذا هو حال الجمع والحضور.

ثم يستوي عنده العزّ والذلّ، والمنع والعطاء، وسائر الأفعال التي يراها غيره متضادّة فيراها هو حسنة كلها بل يراها واحدةً لصدورها عن محبوبٍ واحد.

وأما كيفيّة الترقي عن هذه المحبّة إلى ما هو أعلى منها لمن أمدّه الله بتوفيقه وذلك بأن يعلم بأنّ صورة المحبوب الحقيقية إنما هي الصورة التي حصلت عنده منه،

فإن رسوم الجسم أمورٌ عارضة عرضت لتلك الصورة وأنها لو فارقتها الصورة لما كانت شيئاً.

فإذا تصوّر هذا تعلّق بالمعنى الذي استغنى به عن الأمور العرضية إلى أن تنطبع هذه الصورة المجرّدة في نفسه وتمتزج بها امتزاجا عشقياً، فتَلطُفُ النفس بذلك وتستنير فتقبل الأنوار العلوية، وتبصر الصور الروحانية في ذاتها، ولا تزال تتعلّق بالأشرف فالأشرف حتى تبلغ إلى ما قُدّر لها من ذلك.

*

وأَما القسم الثالث من أقسام المحبين وهم الذين لاحظوا الجمال القدسي المتجلي لنفوسهم من العالم النوراني فقبلته نفوسهم لمناسبتها إيّاه فانطبعت فيها صورته انطباعَ صورة الشمس في مرآة نورية

ثم تكيّفت النفس بذلك النور وتجوهرت به فأبصرت ذاتها النورية وما بها من آثار العالم النوراني فأحبّتها من جهةِ أنها هي ذلك النور القدسي.

وهذه المحبة هي النهاية وما قبلها من مقامات المحبة مُرادة لها وموصلة إليها، فإنها إذا قُصد بها الحق صفةُ المقرَّبين، ومقام عباد الله المخلصين، وهي مطلوب الرجال ذوي العرفان التامّ والكمال، والمشرب الصفو الزلال، عزّ جانبها عن أن يدّعيها أهل البطالة، أو يتعاطى الخوض فيها أرباب الجهالة، ولا وصول إليها إلا بغاية الرياضة القلبية المقرونة بالإعانة الإلهية، فإذا هي حصلت لا يُخشَى زوالها ولا يُخاف انتقالها، لأنها منزَّهة عن الأعراض.

*

ومعناه* حركة النفس إلى تتميم ابتهاجها بتصوّر حضرة محبوبها، وهو من لوازم المحبة، إذ النفس تشتاق أبداً لمن تحبّ. وأما كيفية وجوده فاعلم أن ما لا يُدرَك حقيقةً بوجه لا يُشتاق إليه،

وما أُدرك من جميع جهاته لا يُتصوّر أيضاً الشوق إليه، لأنّه حاصل بالكليّة والحاصل لا يُطلَب.

وإنما يكون الشوق لمن عُلم من طرف وجُهل من طرف آخر، فإن المُحبّ تُحَرّكه لذّةُ ما أدرك لطلب ما لم يدرك.

ومثال ذلك أن من أدرك بعض صفات محبوبه وعلم يقيناً أن له صفات غيرها هي أكمل من التي أدرك وأن لذّة إدراكها أتمّ من لذّة إدراك ما حصل عنده،

فإن شوقه يحرّكه إلى طلب ما فاته ليلتذّ بذلك، وتحصيل اللذّة مطلوب وهي تابعة للإدراك.

فهذا الشوق لا يسكن ولا في الدار الآخرة، إذ كمال المحبوب لا ينتهي إلى حَدّ؛ فالشوق إلى تحصيل هذا الكمال لا ينقطع أبداً.

أو يكون معنى الشوق أنّ من أدرك صفات محبوبه إدراكاً غير كامل فإنّه يشتاق إلى تكميل ذلك الإدراك.

ومثاله أنّ من عاين محبوبه في غيم رقيق على هيئةٍ ما. ثم علم أن ذلك الغيم هو المانع عن كمال الإدراك وأنّه ينقشع فهو يشتاق إلى كمال الرؤية عند زوال المانع، وزيادة شوقه بقدر تطلُّعه إلى زيادة الوضوح والكشف في المشاهدة.

واعلمْ أن المحبّ ما لم يصل إلى مقام الاتحاد لا تنقطع الحجب التي بينه وبين محبوبه، فإنها كثيرة لكنّ بعضها ألطف وأشدّ نورانيّة من بعض،

---

* يعني الشّوق.

وكلما كُشف له منها حجاب تاقت النفس إلى كشف ما بعده حتى تزول جميعها عند الاتحاد، إذ هي عائقة عن حقيقة المشاهدة.

وآخرها حجاباً رؤية المحب ذاته في مشاهدة محبوبه، إذ ملاحظته لها حجابٌ وشوبٌ في المشاهدة،

فإذا ارتفع ذلك بالفناء عنها وعن فنائه عنها شاهد المحبوب على ما هو عليه، وإن لم يفنَ هذا الفناءَ فلا يشاهد محبوبه إلا بقدر ما يليق بإدراكه، لا بقدر كمال المحبوب في نفسه.

إذ لا يدرك كمال المحبوب سواه، فما دام ثَمَّ السِّوى لم يصل إلى حقيقة الكمال في المشاهدة.

وإذا كانت هذه المشاهدة على كمالها فليس في الوجود ألذّ منها ولا أعظم ولا أجلّ، وقلّ ما تسلم من الشوائب في هذه الدار، فإذا حصل هذا النوع من المشاهدة سكن زاعج الشوق المُقلق الذي هو محل الألم وبقيت حالةٌ تُسمّى حالة الاشتياق، وهي صفة لازمة للمحبة ضمن ذاتها، وهي لذّةٌ محضة لا ألم فيها بخلاف الشوق، إذ هو يحرّك النفس تحريكاً عنيفاً حتى تصل إلى تلك الحال الكاملة ولا تقنع بشيء دونها، وهي المشاهدة الحقيقية.

*

ومعناه* سرور القلب بشهود جمال الحبيب، من غير استشعار رقيب، بل مع الغفلة عن الماضي والمستقبل. وهذه الحال توجب انتعاش المحب وفرحه بطيب عيشه وصفاء وقته، فإنّه بما فيه من البهجة والطرب الروحاني يُخيّل له أن جميع الكائنات تشاركه في صفاء وقته وطيب حاله.

---

* يتحدث عن الأنس.

فهو يشاهد حالته تلك في تفتّح كِمام النُوّار، وتبلّج ثغور الأزهار، وتوريد خدود النعمان، وانعطاف قدود البان، ولطافة مرّ النسيم، وطلاقة مرأى الوجه الوسيم.

واعلمْ أن هذه الحال قلّ ما يسلم فيها صاحبها من عوارض الدعوى والإدلال، فيُخافُ عليه السقوط من مقامه الذي هو فيه لغيرة المحبوب على إظهار أسرار المحبة، ولا تُقال للمدلّ في ذلك عثرةٌ وإنما يُعذَر السكران لا صاحب الدعوى.

إذ الأصل أن إفشاء سرّ الله تعالى كفرٌ فأما المؤيَّد بالتوفيق الإلهي فإنّه كلما نزلَ هذا المقام تأكّد لزومه للأدب ولم يفارقه التعظيم، ومن لم يحفظ شروط هذا المقام كان على خطر، وكما قال بعضهم: بلغْنا في هذا الأمر إلى ما هو أحدّ من السيف إن مِلْنَا هكذا ففي النار.

وقد يوجد في خواصّ أهل الاصطفاء مَن لا يضرّه شيء من هذه الأمور التي يُظهرها سكر الأحوال،

فإن الحقّ تعالى حفظ عليهم أحوالهم كما أخلصهم من جميع الشوايب، فهم سُكارى بحبّه على الدوام يتيهون في روضات الجمال، وتتجلّى لهم محاسن عرائس الوجود من وراء ستور ربّات الحجال.

تُشرق الآفاق بأنوارهم ويتجمّل الوقت بآثارهم، وتتأرّج بنسيم عرفانهم الأكوان، ويتحلَّى بهم جيد الزمان.

يهيمون بحبّه في كل الجهات، ويتملّقون إليه في الخلوات، فربّما أنشد منبسطهم على بساط الإدلال، عند معاينة ذات الجمال، وارتفاع حجب الضلال.

وهذه الحالة ربّما غلبت على بعض المحبّين حتى تُخرجه إلى الإفراط في الإدلال، فتصدر منه أحوال وأقوال يظنّ الجاهلون أنها كفرٌ أو زيغ،

فليس كذلك بل يجد فيها من ذاقها من الزيادة في صفاء وقته أمراً لا يلتفت معه إلى أقاويل المنكرين. وتُسمّى تلك الأقوال بلسان أربابها شطحاً، ومنها الأقوال المأثورة عن الحلاّج رحمه الله وغيره مثل العارف أبي يزيد البسطامي حيث قال: «أنا الحقّ» أو قال مرةً: «سبحاني».

وكثيرٌ من أرباب هذا الذوق من يحفظه الحق تعالى في حال سكره فلا يصدر منه ما يخالف ظواهر الشرع حتى يفتقر إلى التأويل، وهم أهل التمكين في الأحوال، فإنهم لا يتركون ملازمة الأدب طرفة عين.

قال بعضهم: «قف على البساط وإياك والانبساط».

وقال غيره: «فُتح عليّ بابٌ من البُسط فزللت زلّةً فحُجبت عن مقامي أربعين سنة».

ومن علامات صاحب الأنس أن تستوي عنده الخلوة والملأ، والغربة والوطن، فلا يجد وحشة مع محبوبه إذ هو يشاهده في جميع الكائنات، فيرى الوجود كلّه مواضع آثاره، ومعالم أخباره، ومواقع أنواره، ومعادن أسراره.

وعندما يستروح المحبّ إلى نسيم الجمال، وتستتر عنه لوامع بروق الجلال، يستريح إلى تقبيل الآثار، ويسأل الرسوم عن الأخبار، ويطوف بالأطلال، ويُكثر الوقوف بها والتسآل،

لتشهد النفسُ من مرابع أحبابها، وملاعب أترابها، ما يكون مُذكراً لها بالسُكّان، فلتستدلّ على الأثر بالعيان. ومن شيم النفوس الحرّة الحنين إلى مألف الصبا، والتعرّض لنفحات الضنا. والشوق إلى معاهد عَمَرَتها مع الأحباب، وجرت في عَرَصَاتها برود الشباب مع الأتراب.

*

وقد جرت العادة الإلهية، والحكمة الربانية، بارتباط الأنوار بالهياكل، والأرواح بالأجسام، والمعاني بالقوالب، ارتباطَ لطيفٍ بكثيف، وعالٍ بسافل، ليدلَّ الأدنى على الأقصى، والظاهر على الباطن.

وإذا نظرتَ تحقيقاً بنوع آخر من النظر وجدت الربوع التي هي محلّ الحبيب أكناف القلب ومحل أنواره، لا رمل اللِوَى ومعاقد كثبانه، ومساقط أحجاره، وتجد المحبّ على الحقيقة هو الذي يتجلّى له محبوبه من آفاق ضمائره، وأكناف خواطره.

ثم تنظر نظراً آخر فتجد عنده هذه الأشياء كلها ظاهرَها وباطنها فتعتقد أن الرسوم الخارجة مُذكرة بالمنازل القلبية والمواطن الروحانية، وترى أن في رؤية هذه الظواهر تأثير معنى في السرائر. ولهذا جاء الشرع باحترام ظواهرَ تُشير إلى مَعانٍ شريفة، وأرواح لطيفة. ومنها الحجر الأسود لكونه يمين الله في الأرض، والكعبة لكونها بيته، وإن كانت ظواهر هذه الأجسام، لكن تأثّر القلب بمعانيها لا يخفى.

وإذا استولت المحبة على قلب المحبّ، وسكر من صفو مُدامها، وتردد في أودية غرامها، وأحرقتهُ لواعجُ الشوق المُقلق، والوَجد المُحرق، استراح لكل شيء له أدنى تعلّق بالمحبوب وتشبّث بكلّ سبب يتوهّم أنّه يوصل إلى المطلوب، فيتعلّل بلمعان البروق، ويُداوي بهبّات النسيم قلبه المشوق، ويستسقي الغمام لعرصات الديار، ويلثم من شغفه الرسوم والآثار، ولا سيما إذا سُلب القرار، وأعوزه الاصطبار.

فإذا صحا المحب من هذه السكرة، وأفاق من هذه الحيرة، رأى أن النظر إلى ظواهر الأطلال عائقٌ له عن مشاهدة ذات الجمال، وأنَّ الالتفات إلى المحسوسات نقصٌ في مشاهدة الذات.

فالمحبّ على هذا بين صحوٍ وسكر حتى يصل إلى التمكين في مقامه.

*

اعلمْ أن العشق هو أقصى درجات المحبة ومجاوزة الحد فيها، وسائر مقامات المحبة كلها مندرجة فيه مثل الشوق والوجد والغرام والافتتان والدهش والفناء، لأنّه مشتمل على جميعها، ولذلك قالوا: «كل عاشقٍ محبّ وليس كل محبّ عاشقاً». وأيضاً فقد تُطلق المحبة في عُرف اللغة على الإرادة فيقال: أحبُّ أن يُفعَل كذا، كما يقال: أريد أن يُفعَل كذا، ولا يُستعمل العشق هاهنا مكان الإرادة كما استعملت المحبة.

وأما حد هذا المقام فقد عجز الناس عن حدّه كما عجزوا عن حد المحبة التي هي بعضه وموصلةٌ إليه. ولهذا لما سئل بعض الحكماء عن حقيقة العشق قال: «دقّ عن الإفهام مسلكه، وخفي عن الإدراك موقعه، وحارت العقول في كيفية تمكّنه».

وقال بعض العلماء: «حد العشق امتزاج ظلّ الجمال بملكوتية الأوصال»، وقال غيره: «العشق شدة الشوق إلى الاتحاد».

ولا شك أن معناه اتّحاد ذات المحبوب بذات المحب اتحاداً عقلياً يوجب غفلة المحبّ عن الشعور بجملته شغلاً عنها بشهود محبوبه في ذاته بذاته. وقال بعض المتقدمين: «العشق جنونٌ إلهيّ». يعني أن العشق لا يدبَّر بعقل ولا تجري فيه أمورُ العاشق على ما يوجب صلاح بدنه بل خرابه وتشويهه. لأن شهود الصفات الروحانية كلما قوي على المحب تخربت منه الصورة الجسمانية، وتشوّشت الجملة الآدمية، وقدر الغيبة في المشاهدة والفناء فيها يكون بقدر الإعراض عن مصالح البدن.

*

ولا شك أن نسبة العشق هي أمّ جميع النِسَب العلوية والسفلية، ولولاها لم يكن في العالم حركة ولا متحرك ولا كامل ولا مكمّل.

فإن كل جوهر نورانيّ في العالم العلوي إمّا عاشق أو معشوق، فسَرَت من ذلك نسبة العشق في جميع الكائنات حتى في الأجسام الحجرية، فإنّا نجد بعضها يجذب بعضاً بقوّةٍ عشقيّة خفية عن أذهان البشر.

واعلمْ أنّه ليس في العالم شيء إلا وله مغناطيس يجذبه لطيفاً كان أو كثيفاً. ومغناطيس النفوس شعاع نور الجمال فلهذا كان تعاشق الأرواح انجذاب بعضها إلى بعض حتى تتّحد كما أن اتحاد الأجسام امتزاج أجزائها بحيث يستحيل تمييزها، كامتزاج الماء بالماء والهواء بالهواء والنار بالنار، إذ كان كل واحد منهما مجرّداً عما ليس من جوهره، والنار ألطف هذه الأجسام العنصرية، ولهذا تتّقد في باطن الحديد ولا تُدرَك بحاسّة البصر، فإن تشبّثت بجسم يُرَ الجسم دونها لتكيّفه بها، فما ظنّك بامتزاج النور بالنور، فإن الأرواح أنوار مجرّدة فامتزاجها على غير امتزاج الأجسام بل اتحاد عقلي لا نسبة بينه وبين ما في الخارج لا تُعلَم حقيقته من النطق بل بالذوق.

*

ومقام العشق أقصى مقامات الذهول والغيبة عن الحسّ والاتصال بالعلم الروحاني،

فإذا وصل الإنسان إلى هذا الحدّ من الغيبة عن نفسه اطّلع على أسرار الغيوب وأخبر بها معاينةً لا على سبيل الحدس وغلبات الظنون، بل على الكشف والمشاهدة. إذ لا مانع للنفس من مشاهدة الغيب إلا الاشتغال بشغل الحواسّ وتصرّفها في العالم الأسفل.

ونحن نجد الحواسّ الظاهرة إذا حُبست بالنوم شاهدت النفس الأمور الغيبية لتُفرغها عن الشغل بما توردِه عليها الحواس فإنها حُجُبٌ مانعةٌ من الإدراك الغيبي، على أن تفرّغها عند النوم عارض،

فما ظنك بفراغها إذا كان دائماً مستمراً، فلا محالة يكون اطلاعها على الغيب أدوَم، وإخبارها عنه أصفَى.

وهذا تابع لصحة الاتصال بالعالم العلوي وهو يختلف، فإن كان الاتصال بالأنوار القدسية كان الإخبار بالغيب الكلي، وإن كان الاتصال بالنفوس الجزئية كان الإخبار عن الغيب الجزئي، وهو غيب المحبوب لاتصال النفس.

واتصال النفسين هو اتحادهما حتى لا يكون بينهما فرق إلا بالجسم، والجسم زائد على ماهية النفس. والإنسانية تُعقل في الذهن دون جسم، إذ هي معنى كلّيٌّ يُتصوّر في النفس دون أمر زائد من شكل أو حامل وسائر الأعراض التي لحقت في الخارج؛ ولا يفهم العقل حقيقة الإنسانية إلا مجرّدة عن هذه العوارض.

*

ابن عطاء الله السكندري*

تسبق أنوارُ الحكماء أقوالهم،
فحيث صار التنوير، وصل التعبير.

*

كل كلام يبرز
وعليه كسوة القلب الذي منه برز.

*

من أذن له في التعبير
فُهمت في مسامع الخلق عبارته
وجُليت إليهم إشارته.

*

إذا التبس عليك أمَران
فانظر أثقلهما على النفس، فاتبعْهُ
فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقاً.

*

الكائنُ في الكون

* أبو الفضل محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسيني ابن عطاء الله السكندري، توفي سنة 709 هـ. ويُعدّ مؤلّفه «الحكم العطائية» مرجعاً صوفياً أساسياً، وقد وُضع الكثير من الشروح له.

ولم تفتح له ميادين الغيوب
مسجون بمحيطاته
ومحصور في هيكل ذاته.

*

الفكرة سراج القلب،
فإذا ذهبت، فلا إضاءة له.

*

النور له الكشف،
والبصيرة لها الحكم
والقلب له الإقبال والإدبار.

*

مَن رأيته مجيباً عن كل ما سُئل
ومعتبراً عن كل ما شهد
وذاكراً كل ما علم،
فاستدل بذلك على وجود جهله.

*

سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث جعلَ الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه.

*

أولياء الله عرائس، ولا يرى العرائس إلا من كان مَحْرماً لهم، وأما غيرهم فلا، وهم مخدَّرون عنده في حجال الأنس لا يراهم أحد في الدنيا ولا في الآخرة.

*

استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك في عبوديتك.

*

غب عن نظر الخلق إليك بنظر الله إليك، وغب عن شهود إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك.

*

إنما حجب الحق عنك شدة قربه منك.

*

إنما احتجب لشدة ظهوره، وخفيَ عن الأبصار لعظيم نوره.

*

ورود الفاقات أعياد المريدين.

*

أنوار أُذنَ لها في الوصول، وأنوار أُذن لها في الدخول.

*

ما فات من عمرك لا عوض له، وما حصل لك منه لا قيمة له.

*

العلم إن قارنته الخشية فلكَ، وإلا فعليك.

*

لا يخرجكَ عن الوصف إلا شهود الوصف.

*

جعلك في العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته وأنك جوهرة تنطوي عليك أصداف مكوّناته.

*

أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون فإذا شهدته كانت الأكوان معك.

*

لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية.

إنما مثل الخصوصية كإشراق شمس النهار ظهرت في الأفق وليست منه. تارة تشرق شموس أوصافه على ليل وجودك، وتارة يقبض ذلك عنك فيردّك إلى حدودك.

فالنهار ليس منك إليك، ولكنه وارد عليك.

*

إلهي أنا الفقير في غناي، فكيف لا أكون فقيراً في فقري؟

إلهي أنا الجاهل في علمي فكيف لا أكون جهولاً في جهلي؟

*

إلهيَ مني ما يليق بلؤمي، ومنك ما يليق بكرمك.

*

إلهي وصفت نفسك باللطف والرأفة بي قبل وجود ضعفي. أفتمنعني منهما بعد وجود ضعفي؟

*

إلهي: كيف تكلني إلى نفسي وقد توكلت عليك، وكيف أُضامُ وأنت الناصر لي، أم كيف أخيب وأنت الحفيّ بي؟

*

ها أنا أتوسل إليك بفقري إليك.

وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك؟

أم كيف أشكو إليك حالي وهي لا تخفى عليك؟

أم كيف أترجم لك بمقالي وهو منك برز إليك؟
أم كيف تخيب آمالي وهي قد وفدت إليك؟
أم كيف لا تحسنُ أحوالي وبك قامت وإليك؟
إلهي، ما ألطفك بي مع عظيم جهلي، وما أرحمك بي مع قبيح فعلي.
إلهي، ما أقربني منّي وما أبعدني عنك.
إلهي، ما أرأفك بي، فما الذي يحجبني عنك؟

*

إلهي، كلما أخرسني لؤمي، أنطقني كرمك،
وكلما آيستني أوصافي أطمعتني منتك.

*

إلهي، من كانت محاسنه مساوئ فكيف لا تكون مساويه مساوئ.

*

إلهي، حكمك النافذ ومشيئتك القاهرة لم يتركا لذي مقال مقالاً، ولا لذي حال حالاً.

*

إلهي، كم من طاعة بنيتها وحالة شيدتها هدم اعتمادي عليها عدلك، بل أقالني منها فضلك.

*

إلهي، كيف أعزم وأنت القاهر، وكيف لا أعزم وأنت الآمر.

*

إلهي، ترددي في الآثار يوجبُ بعد المزار، فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك.

*

إلهي: كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك. أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟

*

متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟

*

ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟

*

ما نفعَ القلب شيء مثل عزلة يُدخل بها ميدان فكره.

*

ما العارف من إذا أشار وجد الحق أقرب إليه من إشارته، بل العارف من لا إشارة له، لفنائه في وجوده وانطوائه في شهوده.

*

ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك.

*

متى فتح باب الفهم في المنع، عاد المنع عين العطاء.

*

الأكوان ظاهرها غِرَّة، وباطنها عبرة، فالنفس تنظر إلى ظاهر غرتها، والقلب ينظر إلى باطن عبرتها.

*

متى أوحشك من خلقه فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به.

*

سبحان من ستر سرّ الخصوصية بظهور البشرية، وظهر بعظمة الربوبية في إظهار العبودية.

*

ولو أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك ومحو دعاويك لم تصل إليه أبداً،

ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه، غطى وصفك بوصفه، ونعتك بنعته، فوصلك إليه بما منه إليك لا بما منك إليه.

*

الأكوان ثابتة بإثباته وممحوّة بأحدية ذاته.

*

مطالعُ الأنوار القلوبُ والأسرار.

*

الكون كلّه ظلمة، وإنما أناره ظهور الحق فيه.

فمن رأى الكون، ولم يشهده فيه، أو عنده، أو قبله، أو بعده، فقد أعوزه وجود الأنوار، وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار.

*

اخرجْ من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك لتكون لنداء الحق مجيباً، ومن حضرته قريباً.

*

شعاع البصيرة يشهدك قربه منك، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده، وحق البصيرة يشهدك وجوه لا عدمك ولا وجودك.

*

إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه وارداً.

*

أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد الأغيار، وليحرِّرك من رقّ الآثار.

*

أورد عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك.

الأنوار مطايا القلوب والأسرار.

*

النور له الكشف، والبصيرة لها الحكم، والقلب له الإقبال والإدبار.

*

ما بسقت أغصان ذلّ إلاّ على بذر طمع.

*

ما قادك شيء مثل الوهم.

*

كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان.

*

لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحى يسير والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل،

ولكن ارحل من الأكوان إلى المكوِّن، وإنْ إلى ربك المنتهى.

*

مما يدلك على وجود قهره، سبحانه، أن حجبك عنه بما ليس بموجود معه.

كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الذي أظهر كل شيء.

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء.
كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر لكل شيء.
كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء
كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء.
كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء.
كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء.
كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود كل شيء.

*

ياعجباً، كيف يظهر الوجود في العدم،
أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم.
وما ترك من الجهل شيئاً من أراد أن يحدث في الوقت غير ما أظهره الله فيه.
لا تطلب منه أن يخرجك من حالة ليستعملك في ما سواها،
فلو أرادك لاستعملك من غير إخراج.

*

من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل.

*

إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الهمة العلية.

*

سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار.

*

أرح نفسك من التدبير فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك.

*

اجتهادك في ما ضمن لك وتقصيرك في ما طلب منك دليل على انطماس البصيرة منك.

*

لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجباً ليأسك، فهو الذي ضمن لك الإجابة في ما يختاره لك، لا في ما تختاره لنفسك، وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد.

*

لا يشككنك في الوعد عدم وقوع الموعود، وإن تعين زمنه لئلا يكون ذلك قدحاً في بصيرتك، وإخماداً لنور سريرتك.

*

إذا فتح لك وجهة من التعرف فلا تبال معها إن قلَّ عملك، فإنه ما فتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك.

ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك، والأعمال أنت مهديها إليه، وأين ما تهديه إليه مما هو مورده عليك؟

*

تنوّعت أجناس الأعمال لتنوّع واردات الأحوال.

*

الأعمال صورٌ قائمة وأرواحها وجود سرّ الإخلاص فيها.

*

ما توقَّف مطلب أنت طالبه بربك،

ولا تيسّر مطلب أنت طالبه بنفسك.

*

من علامات النجح في النهايات الرجوع إلى الله تعالى في البدايات.
من أشرقت بدايته أشرقت نهايته.

*

الحق ليس بمحجوب، وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه، إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه،
ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر،
وكل حاصر لشيء فهو له قاهر وهو القاهر فوق عباده.

*

محمد وفا الكبير*

النور: ما به البيان. وهو مقيد، ومطلق.

فالمطلق ضربان:

الأول، نور البيان، وهو الحقيقة الوجودية، ولأن المعدوم منفي من التعيين الوجودي، والعدم هو الظلمة الذاتية، فإذا قام الوجود بالعدم ارتفعت عنه ظلمة الإبهام وتبيَّن.

والثاني، نور التبيان، وهو الحقيقة العدمية، وهي ما بها تمييز المغايريْن، ومغايرة الشيئيْن، وانفصال المتقاطعيْن كحياز الجواهر المفردات.

والفرق الذي يكون بين ماهية الأشكال والصور والهيئات؛ فالشكل وجودي، والقطع الذي بينه وبين الشكل الثاني عدمي. كما أن لو رسمت ألفاً، وباءً، وتاءً.

الألف وجودية من حيث شكلها، والقطع الذي بينها وبين الباء عدمي. وكذلك الذي بين الباء، والتاء، وسائر الحروف. فالخط المستقيم شكل يقال عليه الألف، والضلع الراقد خط يقال عليه الباء. والقطع الذي بينهما لا يقال عليه شيء. وإنما هو لتبيان الفرق فقط.

فالمداد وجود. والحرف المرسوم موجود. والقلم فياض فاعل. واللوح مفعول مستمد بالانفعال، والمعنى الذي يقع به الفرق بين مغايرة الأشكال حقيقة عدمية. وهي نور التبيان.

---

* محمد وفا الكبير (702- 765 هـ)، أحد شيوخ الطريقة الشاذلية، وتأتي أهمية نثره من كونه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وقد أدهش معاصريه بطريقته الغريبة في التعبير، عاش في مصر ومات فيها.

وكذلك يفهم تعلق العلم بالمعلومات غيباً.

فالمعلوم له في العلم حقيقة وخاصية وشاكلة، وكذلك المعلوم الثاني. وهذا نور وجودي. والذي يقع به التفرقة بينهما حقيقة عدمية. هذا في المعنى وشاهد في العلم.

فالأول: هو الوجود الظاهر، وهو الهوية المرسلة بياناً وتبياناً.

والثاني: هو الوجود الباطن، وهو الهوية السارية بياناً وتبياناً.

الأول بالزيادة، والثاني بالذات.

والمقيد ضربان: واجب، وممكن.

ومعنى التقييد توقفه على حكم المرتبة كما تقول:

نور ممكن، ونور واجب.

فالممكن ينقسم الى ملكي وملكوتي.

والملكي ينقسم إلى ستة أقسام وهي:

المشاعر الخمس، والحس المشترك.

والملكوتي ينقسم إلى ستة أقسام: المتوهمة، والمتخيلة، والحافظة، والذاكرة، والفكرية، والعقل المشترك.

فالحس المشترك برزخ بين الملك والملكوت.

والعقل المشترك برزخ بين الملكوت والجبروت.

واعلم:

أن المشاعر الخمس، والحس المشترك هي الأيام الستة التي خلق الله فيهن السموات والأرض.

فالبصر مفتاح خزائن المرئيات، ونورها، وبيانها.

والسمع مفتاح خزائن المشمومات، ونورها، وبيانها.

والشم مفتاح خزائن المشمومات، ونورها، وبيانها.

والذوق مفتاح خزائن المذوقات، والإطعام، ونورها وبيانها.

وكذلك اللمس، والحس المشترك جامعها، وحاضرها، وحافظها في حال غيبة أعيانها.

والخيال خزانتها، ومنتهى حاصل صورها الروحانية المجردة. وهذا هو الأفق المبين، وسدرة المنتهى. وكذلك الأنوار الملكوتية بإزاء هذه الأنوار الملكية.

وهذه الأنوار الإثنا عشر حقائق استعداد اللوح. وجوامع مراتبه القابلة للصور المفاضة عن القلم، وهي القوة الناطقة. وقد بيّن الله بيان ذلك في النسخة الإنسانية الآدمية. فمن عرف نفسه فقد عرف ربه، وهو العرش، الذي تحته مثال كل شيء.

*

اعلم أن الفعل في بطانة الفاعل بالقوة قبل خروجه؛ كالمقدور في القدرة، والمراد في الإرادة.

والظهور عن الغيب أو التجلي. فمن غيب صفات الذات، وهي أرواح قدوسية وصور نورانية متصفة بما ظهرت من غيبه، وهي المثل المعلقة رؤساء عالم الأمر، وأقطاب إفاضاته، ومدارات آفاقه محققة بالذات المتصفة بالذات. والذات المتخلقة بأخلاق الخالق المستوي على العرش، الذي تحته مثال كل شيء. هو الذي يخرج من قوته إلى فعله. فصور أفعاله مطابقة لمثل أخلاقه. والأخلاق كلها في حضرة الخالق، وهي قوة المتخلق، مقدسة عما نسب إلى صور المراتب الفعلية بحكم توهم وقوعها في الخارج من القبح والحسن في الحضرة الخالقية، جلال وجمال. ولأنه إذا بدّلت الأرض غير الأرض، بدلت النعوت غير النعوت، والأسماء غير

الأسماء. فالاختراع له والتقدير. فيرجع إلى أسماء صفات الذات بالتجلي والاختراع. وإلى أسماء صفات الأفعال بالتقدير والإبداع.

*

الصّور: إمّا أن تكون مجهولة في المادة أو مجردة.

والمجردة: إمّا أن تكون مفارقة، وهي المعلوم القديم. أو بسيطة. وهي مراتب الوجوب الموجود للبقاء، فلا تهلك بهلاك متعلقاتها، وهي الصور المادية المعنية بالتركيب المفقودة بالتحليل.

والمصور: مُفيضها.

أولاً: بالانكشاف في الوجود.

وثانياً: بالتمثل في الموجودية. وهو بإخراج ما في القوة إلى الفعل. لا في مادة منفصلة.

والثالث: حاصلة بتركيب الأجزاء وهي مفعولة لها.

وصورة كل شيء هيئته الخاصة. وهي على الحقيقة مرتبته الخاصة التي يحكم عليه بها، أو درجته التي بها يصح تعريفه مع نفي الحكم. فإن حقيقة الدرجات الإلهية غير منحصرة. وهذا من حضرات القدس.

فالمصور بمعنى المبدع. وهو إمّا أن يحمل على القدرة أو على الإبداع فيرجع إلى أسماء صفات الذات. أو إلى خالقها ومبدعها فيرجع إلى أسماء صفات الأفعال. وكلا الوجهين صحيح.

*

الحكمة: إتقان الصنع، وإحكام الوضع المؤدي إلى مطابقة العلة الغائية إلى القصد الأول الناتج عن مقدمة إرادة الوضع المختار.

فالحكيم هو المتقن لمصالح موضوعاته. العالم بكيفيات نتائج مصنوعاته، الواقع غاية العمل حسب مراده.

*

جمال الدين الشاذلي*

أحدية الذات غيب في الأزل. ووحدانيتها ظهور في الأبد. والواحد القديم ما لا أول له ولا آخر.

*

توحيد هو، تعداد. وتوحيد أنا، إفراد. فإن أردت أن تستغرق في بحر الإفراد، وتقف على الساحل مع الأفراد، فاجعل توحيدك هو بلا هو. فهناك تذهب بينونة البين، برفع نقطة الغين عن العين بلا أين، في حضرة الغيب والحضور، ويقابل البطون الظهور.

*

وجوب الذّات هو وجوب الصفات. وتعدادها لا يوجب تعديد الذات بذوات. نعم لا هي عيْنُها، ولا هي غيرُها. فقد اتحد المسمّى، وتعدّدت الأسماء.

*

تجلّي ذات الحق يمحق الكائنات. وتجلّي صفاته يوجب لها الثبات. لذلك لم تُطَقْ رؤية الذات بالأبصار. ولا يدرك كنهها بالعقول والأفكار. كيف وأنّى لجائز حادث سقيم أن يثبتَ لوجوب الوجود القديم؟

*

لما تنزَّه الواحد بكل وجه عن النهاية انتفى الضد والند عند الغاية.

*

---

* جمال الدين محمد بن أبي المواهب الشاذلي، مات سنة 800 هـ.

توحيد الهوية لا يدرك كنه الماهية. فوحّده من حيث هو بما هو على ما هو تكن ممن وَحَّد. ولا في الحقيقة أَلْحد.

*

كل حقيقة أخذتها عن الغير ودلتك على سواه في السير. فهي لك حجاب في الحال.

والمآل هذا وإن دققت أفكار الأنظار فطيْر العناء في جو الخيبة بك قد طار. فاترك العقل المعقول وكثرة الأبحاث والفضول.

*

غلبة نور الظهور، هو الذي أوجد الستور أيْ ستور النور بالنور.

*

إذا عظم نور المشهود، عزَّ إدراكه في الشهود.

*

صنعة الفنا، هي التي أوجبت لبعضهم النطق بأنا.

*

تجلّي وصفه الباقي أوجب فناء العالم والمعالم ولسان فردانيته في الإفراد حيّر المتعلم والعالم.

*

من حكمته ستر ظهور الذات، بحجاب مظاهر الصفات. واختفى بما به ظهر من الكائنات وغاب بما به حضر وحاضر من التعرفات.

*

تجلّى الجمال في المَشاهد، بحسب ما أعطِيَ المشاهد. فالعوام لا يشهدون غير مشهد حسن الصورة الحسية. والخواص رفع لهم الستر عن

صورة الحسّ المعنوية. التي تجلّى بها اسمه تعالى الظاهر في جميع الأكوان بكل المظاهر.

*

توبة العوام من الزلات، وتوبة الخواص من العادات. وتوبة خواص الخواص من السوى والأغيار. والركون إلى المقامات والأنوار.

*

من أَشهده الحق كسوفَ الذنوب، هجَرها.

*

المخلص إن قام قام بالله. وإن قعد قعد مع الله وإن تحرك لا يقصد إلا الله. وإن سكن اطمأن بالله. وإن سأل سأل من الله. وإن عمل عمل لله. وإن أعطى أخذَ من يد الله. جميع شؤونه من الله وإلى الله وفي الله وبالله الله الله. لا حول ولا قوة إلا بالله.

*

ورد طيف الحسن على القلب المتوجه الطالب، فهيَّمه في جميع المشارق والمغارب.

*

الزاهد المجرد استراح من حمل الأثقال. وخفت مؤونته من العيال، حيث حل فلباسه فراشه وغطاؤه قماشه.

*

زهرة الدنيا ذبولها سريع. والمفتون بها صريع. الدنيا وسيلة المرء غداً. فلا تجعل الوسيلة مقصداً.

*

حقيقة الفقر في ظاهر الطريقة غير ما هو في باطن الحقيقة. فالظاهر فقر الزهاد من الأعراض الدنيوية. والباطن فقر الأفراد من الأغراض الأخروية شغلاً بالله عما سواه. لمن شهد ذلك ورآه.

*

من افتقر إلى الله استغنى به عن كل شيء.

ومن استغنى عنه افتقر إلى كل شيء.

ومن افتقر إلى كل شيء، فقد أوحشه كل شيء، ولم يتعوض عن الله بشيء من كل شيء.

*

استغرق صاحب المعرفة فغاب عن الوجود، وفني بالمشهود عن الشهود.

*

غاب العارف بخمرة حبه عن الحس،

فانجلى نور محبوبه كالشمس.

فهناك دام له السكْر وطفحت الدنان

ودارت عليه كؤوس المحبة بالعرفان.

*

حقيقة الفناء محو واضمحلال. وذهاب عنك وزوال. إن شئت قلت: فناء المريد طهارة النفس من التدنيس. وفناء المراد تخلُّقه بأوصاف التقديس. وإن شئت قلت: فناء السالك عن السكون إلى الأنوار. وفناء العارف عن شهود لمحة الأغْيَار. وإن شئت

قلت: الفناء محو النيّة، وذهاب الأنيَّة، وإن شئت قلت، الفناء التخلي لنور التجلّي.

*

خمرة الذوق تكسب اللطافة، وتمحو الكثافة،
كؤوسها المعاني وحانها حضرة التداني،
ودنّها العارف،
وندمانُها المعارف وراووقها الصافي، ومرافقها الموافي،
وخلاَّعها العقلاء وجلاَّسها النبلاء،
بها تقلب الأعيان وتبصر الأعيان ويروى الظمآن، ويشبع الغوثان، ويمشي المقعد،
وينطق الصامت، ويظهر الخامل، ويحيا المائت.

*

كمال الدين عبد الرزاق القاشاني*

الألف إشارة يُشار به إلى الذات الأَحدية، أي الحق من حيث هو أول الأَشياء في أَزل الآزال.

*

الإرادة جمرة من نار المحبة في القلب، مقتضية لإجابة دواعي الحقيقة.

*

الآن الدائم هو امتداد الحضرة الإلهية الذي يندرج به الأزل في الأبد، وكلاهما في الوقت الحاضر لظهور ما في الأزل على أَحايين الأَبد، وكون كل حين منها مجمع الأَزل والأبد، فيتحد به الأَزل والأَبد والوقت الحاضر. فلذلك يقال له باطن الزمان وأَصل الزمان، لأَن الآنات الزمانية نقوشٌ عليه، وتغيرات تظهر بها أحكامه وصوره، وهو ثابت على حاله دائماً سرمداً وقد يضاف إلى الحضرة العندية كقوله عليه السلام: «ليس عند ربك صباح ولا مساء».

*

الباء يشار به إلى أَول الموجودات الممكنة وهو المرتبة الثانية من الوجود.

*

---

* من متصوّفي القرن الثامن الهجري، يشوب حياته الغموض.

البارقة هي لائحٌ يرد من الجناب الأَقدس وينطفىء سريعاً وهي من أَوائل الكشف ومبادئه.

*

البرق أَول ما يبدو للعبد من اللائح النوري فيدعوه إلى الدخول في حضرة القرب من الرب للسير في اللهِ.

*

البواده جمع بادهة وهي ما يَفْجأَ القلب من الغيب فيوجب بسطاً أَو قبضاً.

*

الجذبة هي تقريب العبد بمقتضى العناية الإلهية له كل ما يحتاج إليه في طي المنازل إلى الحق بلا كلفة وسعي منه.

*

الجلاء هو ظهور الذات المتقدمة لذاتها. والاستجلاء ظهورها لذاتها في تعيناتها.

*

الجلال هو احتجاب الحق تعالى عنَّا بعزته أَن نعرفه بحقيقته وهُويته كما يعرف هو ذاته فإن ذاته سبحانه لا يراها أَحدٌ على ما هي عليه إلا هو.

*

الجمال هو تجليه تعالى بوجهه لذاته. فلجماله المطلق جلال هو قهّاريته للكل عند تجلّيه بوجهه، فلم يبق أَحد حتى يراه وهو علو الجمال وله دنُو يدنو به منا وهو: ظهوره في الكل كما قيل.

ولهذا الجمال جلال، هو احتجاجه بتعينات الأَكوان. فلكُلِّ جمال جلال ووراء كل جلال جمال. ولما كان في الجلال ونعوته معنى الاحتجاب

والعزة، لزمه العلو والقَهر من الحضرة الإلهية، والخضوع والهيبة منا. ولما كان الجمال والجلال ونعوته معنى الدنوّ والسفور، لزمه اللطف والرحمة والعطف من الحضرة الإلهية والأُنس منّا.

*

الهاء اعتبار الذات بحسب الظهور والحضور والوجود.

*

الهُوَ اعتبارها بحسب الغيبة والفقد.

*

الهباء هو المادة التي فتح الله فيها صور العالم، وهو العنقاء المسماة بالهيولى.

*

الهوى هوَ ميل النفس إلى مقتضيات الطبع، والإعراض عن الجهة العُلوية بالتوجه إلى الجهة السفلية.

*

الواو هو الوجه المطلق في الكل.

*

الحرية هي الإنطلاق عن رقّ الأَغيار، وهي على ثلاث مراتب:

حرية العامة عن رق الشهوات.

وحرية الخاصَّة عن رقّ المرادات لفناء إرادتهم في إرادة الحق.

وحرية خاصَّة الخاصة عن رقِّ الرسوم والآثار لانمحاقهم في تجلي نور الأنوار.

*

الحرق هو أَواسط التجليات الجاذبة إلى الفناء التي أَوائلها البرق وآواخرها الطمس في الذات.

*

الطمس هو ذهاب الرسوم السيارة بالكلية في صفات نور الأَنوار.

*

الكيمياء القناعة بالموجود وترك الشوق إلى المفقود.

*

كيمياء السعادة تهذيب النفس باجتناب الرذائِل وتزكيتها عنها، واكتساب الفضائِل وتحليتها بها.

*

كيمياء العوام: استبدال المتاع الأُخروي الباقي بالحطام الدنيوي الفاني.

*

اللائحة هي ما يلوح من نور التجلّي ثم يروح، ويسمى أَيضاً بارقة، وخطرة.

*

اللطيفة كل إشارة دقيقة المعنى، يلوح منها في الفهم معنى لا تسعه العبارةُ.

*

اللوامع أَنوار ساطعة تلمع لأَهل البدايات من أرباب النفوس الضعيفة، فتنعكس من الخيال إلى الحِس المشترك فتصير مشاهدة بالحواس الظاهرة فيتراءى لهم أَنوار كأَنوار الشهب والشمس والقمر فيضيء ما حولهم. وهي إمَّا من غلبة أَنوار القهر والوعيد على النفس فيضرب إلى الحمرة، وإما من غلبة أنوار اللطف والوعد فيضرب إلى الخضرة.

ليلة القدر ليلة يختص فيها السالك بتجل خاص يعرف به قدره ورتبته بالنسبة إلى محبوبه. وهي وقت ابتداء وصول السالك إلى عين الجمع ومقام البالغين في المعرفة.

*

المجذوب من اصطنعه الحقُّ لنفسه، واصطفاه لحضرة أنسِهِ، وطهره بماء قدسه، فحاز من المنح والمواهب ما فاز به بجميع المقامات والمراتب بلا كلفة المكاسب والمتاعب.

*

مرآة الكون هو الوجود المطلق الوَحداني لأَن الأَكوان وأَوصافها وأَحكامها لم تظهر إلا فيه وهو يخفى بظهورها كما يخفى وجهُ المرآة بظهور الصور فيه.

*

مرآة الوجود هي التعينات المنسوبة إلى الشئون الباطنة التي صورها الأكوان، فإنّ الشئون باطنة والوجود المتعين بتعيناتها ظاهر، فمن هذا الوجه كانت الشئون مرايا للوجود الواحد المتعين بصورها.

*

مرآة الحضرتين أعني حضرة الوجوب والإمكان هو الإنسان الكامل وكذا.

*

مشارق شمس الحقيقة هي التجليات الذاتية، قبل الفناء التام في عين أَحدية الجمع.

*

الموت باصطلاحهم قمع هوى النفس، فإنّ حياتها به، ولا تميل إلى لذّاتها وشهواتها ومقتضيات الطبيعة البدنية إلا به. وإذا مالت إلى الجهة السّفليّة جذبت القلب الذي هو النفس الناطقة إلى مركزها فيموت عن الحياة الحقيقية العلمية التي له بالجهل. فإذا ماتت النفسُ عن هواها بقمعه، انصرف القلب بالطبع والمحبة الأَصلية إلى عالمِهِ؛ عالم القدس والنور والحياة الذاتية التي لا تقبل الموت أَصلاً. وإلى هذا الموت أشار أَفلاطون بقوله مُتْ بالإرادة تحيَ بالطبيعة.

*

الموت الأبيض: الجوع لأنه ينوِّر الباطن ويبيّض وجهَ القلب. فإذا لم يشبع السالك بل لا يزال جائِعاً فقد مات بالموت الأَبيض. فحينئذ تحيا فطنته، لأَن البطنة تميت الفطنة فمن ماتت بطنته حييت فطنته.

*

الموت الأخضر لبس المرقَّع من الخرق الملقاة التي لا قيمة لها. فإذا قنع من اللباس الجميل بذلك واقتصر على ما يستر عورته وتصح فيه الصلاة، فقد مات بالموت الأَخضر، لإخضرار عيشه بالقناعة ونضرة وجهه بنضرة الجمال الذاتي الذي حيي به واستغنى عن التجمل العارضي.

*

الموت الأسود هو احتمال الأَذى من الخلق.

*

النكاح الساري في جمع الذراري هو التوجُّه الحي، المشار إليه في قوله: كنت كنزاً مخفيّاً. يشير به إلى سبق الخفاء والغيبة والإطلاق على الظهور والتعيّن سبقًا أزليّاً ذاتيّاً.

فأحببتُ أن أُعرف يشير إلى ميل أصلي وحب ذاتي هو الوصلة بين الخفاءِ والظهور المشار إليه بأن أعرف. فتلك الوصلة هي أصل النكاح الساري في جميع الذراري، فإن الوحدة المقتضية لحب ظهور شؤون الأحدية التي تسري في جميع مراتب التعينات المترتبة وتفاصيل كلياتها بحيث لا يخلو منها شيءٌ، وهي الحافظة لشمل الكثرة في جميع الصور عن الشتات والتفرقة. فاقتران تلك الوحدة بالكثرة هو وصلة النكاح أولاً في مرتبة الحضرة الواحدية بأَحدية الذات في صور التعينات، وبأحدية جميع الأَسماء، ثم بأحدية الوجود الإضافي في جميع المراتب والأكوان بحسبها، حتى في حصول النتيجة من حدود القياس والتعلم والغذاء والمتغذي والذكر والأُنثى. فهذا الحب المقتضي للمحبِيَّة والمحبوبية، بل العلم المقتضي للعالِميَّة والمعلوميَّة، هو أَول سريان الوحدة في الكثرة وظهور التثليث الموجب للاتحادِ بالتأثير بالفاعلية والمفعولية. وذلك هو النكاح الساري في جميع الذراري.

*

السفر هو توجه القلب إلى الحق والأَسفار أَربعةٌ:

الأول، هو السير إلى الله من منازل النفس إلى الوصول إلى الأُفق المبين. هو نهاية مقام القلب، ومبدأ التجليات الأَسمائية.

الثاني، هو السير في الله بالإتصاف بصفاته والتحقق بأَسمائه إلى الأُفق الأُعلى وهو نهاية الحضرة الواحدية.

الثالث، هو الترقي إلى عين الجمع والحضرة الأَحدية. وهو مقام قاب قوسين ما بقيت الإثنينية فإذا ارتفعت فهو مقام أَو أدنى وهو نهاية الولاية.

السفر الرابع، هو السير بالله عن الله للتكميل، وهو مقام البقاء بعد الفناء والفرق بعد الجمع.

*

العماء هي الحضرة الأَحدية عندنا، لأَنه لا يعرفها أَحدٌ غيره. فهو في حجاب الجلال. وقيل هي الحضرة الواحدية التي هي منشأً الأَسمَاء والصفات، لأن العماء هي الغيم الرقيق والغيم هو الحائِل بين السماء والأرض. وهذه الحضرة هي الحائلة بين سماء الأحدية وبين أَرض الكثرة الخلقية.

*

الصعق هو الفناء في الحق بالتجلي الذاتي.

*

القطب الجيلي*

اعلمْ أن مطلق الذات هو الأمر الذي تستندُ إليه الأسماء والصفات في عينها لا في وجودها. فكل اسم أو صفة استند إلى شيء فذلك الشيء هو الذات، سواء كان معدوماً كالعنقاء أو موجوداً.

والموجود نوعان: نوع موجود محض، وهو ذات الباري سبحانه وتعالى، ونوع موجود ملحق بالعدم، وهو ذات المخلوقات.

*

واعلم أن ذات الله تعالى غيب الأحدية التي كل العبارات واقعة عليها من وجه غير مستوفية لمعناها من وجوه كثيرة، فهي لا تُدرك بمفهوم عبارة ولا تُفهم بمعلوم إشارة، لأن الشيء إنما يفهم، بما يناسبه فيطابقه، أو بما ينافيه فيضادّه، وليس لذاته في الوجود مناسب ولا مطابق ولا مناف ولا مضادّ، فارتفع من حيث الاصطلاح إذاً معناه في الكلام وانتفى بذلك أن يدرك للأنام.

*

واعلمْ أن إدراك الذات العلية هو أن تعلم بطريق الكشف الإلهي أنك إياه وهو إياك، وأن لا اتحاد ولا حلول.

*

* عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي (767–832 هـ)، ابن سبط الشيخ عبد القادر الجيلاني.

والواحدية أول تنزلات الحق من الأحدية؛ فأعلى المراتب التي شملتها الواحدية المرتبة الرحمانية، وأعلى مظاهر الرحمانية في الربوبية، وأعلى مظاهر الربوبية في إسمه الملك؛

فالملكية تحت الربوبية، والربوبية تحت الرحمانية، والرحمانية تحت الواحدية، والواحدية تحت الأحدية، والأحدية تحت الألوهية، لأن الألوهية إعطاء حقائق الوجود وغير الوجود حقها مع الحيطة والشمول، والأحدية حقيقة من جملة حقائق الوجود، فالألوهية أعلى، ولهذا كان اسمه الله أعلى الأسماء وأعلى من اسمه الأحد، والأحدية أخص مظاهر الذات لنفسها، والألوهية أفضل مظاهر الذات لنفسها ولغيرها،

ومن ثم منع أهل الله تجلي الأحدية ولم يمنعوا تجلي الألوهية، فإن الأحدية ذات محض لا ظهور لصفة فيها، فضلاً عن أن يظهر فيها مخلوق، فامتنع نسبتها إلى المخلوق من كل وجه، فما هي إلا للقديم القائم بذاته، ولا كلام في ذات واجب الوجود فإنه لا يخفى عليه شيء من نفسه، فإن كنت أنت هو فما أنت أنت بل هو هو، وإن كان هو أنت فما هو هو، بل أنت أنت.

واعلمْ أن الوجود والعدم متقابلان، وفلك الألوهية محيط بهما، لأن الألوهية تجمع الضدين من القديم والحديث، والحق والخلق والوجود والعدم، فيظهر فيها الواجب مستحيلاً بعد ظهوره واجباً ويظهر فيها المستحيل واجباً بعد ظهوره فيها مستحيلاً، ويظهر الحق فيها بصورة الخلق، ويظهر الخلق بصورة الحق. وعلى هذا التضاد فإنها تعطي كل شيء مما شملته من هذه الحقائق حقها. فظهور الحق في الألوهية على أكمل مرتبة وأعلاها وأفضل المظاهر وأسماها، وظهور الخلق في الألوهية على ما يستحقه الممكن من تنوّعاته وتغيراته وانعدامه ووجوده. وظهور الوجود في الألوهية على كمال

ما تستحقه مراتبه من جميع الحق والخلق وإفراد كل منهما، وظهور العدم في الألوهية على بطونه وصرافته وانمحاقه في الوجه الأكمل غير موجود في فنائه المحض، وهذا لا يعرف بطريق العقل ولا يدرك بالفكر. ولكن من حصل في هذا الكشف الإلهي علم هذا الذوق المحض من هذا التجلي العام المعروف بالتجلي الإلهي.

*

(...) فالألوهية مشهودة الأثر مفقودة في النظر، يعلم حكمها ولا يرى رسمها.

والذات مرئية العين مجهولة الأين، ترى عياناً ولا تُدرك بياناً. ألا ترى أنك إذا رأيت رجلاً تعلم أنه موصوف مثلاً بأوصاف متعددة. فتلك الأوصاف الثابتة له إنما تقع عليها بالعلم والاعتقاد أنها فيه ولا تشهد لها عيناً، وأما ذاته فأنت تراها بجملتها عياناً، ولكن تجهل ما فيها من بقية الأوصاف التي لم يبلغك علمها، إذ يمكن أن يكون لها ألف وصف مثلاً وما بلغك منها إلا بعضها، فالذات مرئية والأوصاف مجهولة. ولا ترى من الوصف إلا الأثر، أما الوصف نفسه فهو الذي لا يُرى أبداً البتة. مثاله ما ترى من الشجاع عند المحاربة إلا إقدامه وذلك أثر الشجاعة لا الشجاعة. ولا ترى من الكريم إلا إعطاءه وذلك أثر الكرم لا نفس الكرم، لأن الصفة كاملة في الذات لا سبيل إلى بروزها، فلو جاز عليها البروز لجاز عليها الانفصال عن الذات وهذا غير ممكن. وللألوهية سرّ وهو أن كل فرد من الأشياء التي يطلق عليها اسم التشبيه قديماً كان أو محدثاً، معدوماً كان أو موجوداً، فهو يحوي بذاته جميع بقية أفراد الأشياء الداخلة تحت هيمنة الألوهية.

*

واعلم أن للربوبية تجليّين: تجل معنوي وتجل صوري. فالتجلي المعنوي ظهوره في أسمائه وصفاته على ما اقتضاه القانون التنزيهي من أنواع الكمالات. والتجلى الصوري ظهوره في مخلوقاته على ما اقتضاه القانون الخلقي التشبيهي، وما حواه المخلوق من أنواع النقص، فإذا ظهر سبحانه في خلق من مخلوقاته على ما استحقه ذلك المظهر من التشبيه، فإنه على ما هو له من التنزيه، والأمر بين صوري ملحق بالتشبيه، ومعنوي ملحق بالتنزيه. إن ظهر الصوري فالمعنوي مظهر له، وإن ظهر المعنوي فالصوري مظهر له. وقد يغلب حكم أحدهما فيستتر الثاني تحته، فيحكم بالأمر الواحد على حجاب.

والصفات لا تتغير ولا تتحوّل، ولا يلبس شيئاً فيترك غيره ولا يخلع شيئاً فيأخذ سواه، بل حكم ذاته هو على ما هو عليه منذ كان، ولا يكون إلا على ما كان أي لوصف الله الذي هو عليه. وإنما هذه التغييرات والتحويلات في الصور وغيرها من النسب والإضافات والاعتبارات وأمثال ذلك، إنما هو بحكم ما يتجلى به علينا ويظهر به لنا. وهو في نفسه على ما هو عليه من الأمر الذي كان له قبل تجليه علينا وظهوره لنا، وبعد ذلك الحكم لا تقبل ذاته إلا التجلي الذي هو عليه، فليس له إلا تجلّ واحد، وليس للتجلي الواحد إلا اسم واحد، وليس للإسم الواحد إلا وصف واحد. وليس للجميع إلا واحد غير متعدّد، فهو متجلّ لنفسه في الأزل بما هو متجلّ له في الأبد.

*

وهذا التجلي الواحد هو المستأثر الذي لا يتجلى به لغيره، فليس للخلق فيه نصيب البتة، لأن هذا التجلي لا يقبل الاعتبار ولا الانقسام ولا الإضافة ولا الأوصاف ولا شيئاً من ذلك. ومتى كان للخلق فيه نسبة احتاجت إلى

اعتبار أو نسبة أو وصف أو شيء من ذلك. وكل هذا ليس من حكم هذا التجلي الذي هو عليه في ذاته من الأزل إلى الأبد ويوافي التجليات الإلهية ذاتية كانت أو فعلية، صفاتية كانت أو اسمية، فإنها ولو كانت له حقيقة فهي ما تقتضيه من جهة ظهوره وتجليه على عباده. وعلى الجملة فإن هذا التجلي الذاتي الذي هو عليه جامع لأنواع التجليات لا يمنعه كونه في هذا التجلي أن يتجلى بتجلّ آخر.

*

الأزل عبارة عن معقول القبلية المحكوم بها لله من حيث ما يقتضيه في كماله، لا من حيث إنه تقدم على الحادثات بزمان متطاول العهد. فعبر عن ذلك بالأزل، فأزله موجود الآن كما كان موجوداً قبل وجودنا، لم يتغير عن أزليته ولم يزل أزلياً في أبد الآباد. هذا حكم الأزل في حق الله. وأما الوجود الحادث فله أزل، وهو عبارة عن الوقت الذي لم يكن للحادث فيه وجود، فلكل حادث أزل مغاير لأزل غيره من الحادثات. فأزل المعدن غير أزل النبات لأنه قبله إذ لا وجود للنبات إلا بعد وجود المعدن. فأزلية النبات كانت في حال وجود المعدن. وأزلية المعدن في حال وجود الجوهر، وأزلية الجوهر في حال وجود الهيولي، وأزلية الهيولي في حال وجود الهباء، وأزلية الهباء في حال وجود الطبائع، وأزلية الطبائع في حال وجود العناصر وأزلية العناصر، في حال وجود العليين كالقلم الأعلى والعقل والملك المسمى بالروح وأمثال ذلك. فأما الأزل المطلق، فما يستحقه إلا الله لنفسه، ليس لشيء من المخلوقات فيه وجود، لا حكماً ولا عيناً ولا اعتباراً، وقول القائل كنا في الأزل عند الله، فاعلم أنما هو أزلية الخلق وإلا فهم غير موجودين في أزلية الحق فأزل الحق أزل الآزال، وهو له حكم ذاتي استحقه لكماله.

واعلمْ أن الأزل لا يوصف بالوجود ولا بالعدم. فكونه لا يوصف بالوجود لأنه أمر حكمي لا عيني وجودي. وكونه لا يتصف بالعدم لكونه قبل النسبة والحكم والعدم المحض فلا يقبل نسبة ولا حكماً. ولهذا انسحب حكمه، فأزل الحق أبده، وأبده أزله.

*

الأبد عبارة عن معقول البعدية لله تعالى. وهو حكم له من حيث ما يقتضيه وجوده الوجوبي الذاتي، لأن وجوده لنفسه قائم بذاته، فلهذا صح له البقاء لأنه غير مسبوق بالعدم، فحكم له بالبقاء قبل الممكن وبعده لقيامه بذاته وعدم احتياجه لغيره بخلاف الممكن، لأنه ولو كان لا يتناهى فهو محكوم عليه بالانقطاع لأنه مسبوق بالعدم. وكلّ مسبوق بالعدم فمرجعه إلى ما كان عليه، فلابد أن يحكم عليه بالانعدام، وإلا لزم أن يساير الحق تعالى في بقائه، وهذا محال ولو لم يكن كذلك لما صحت البعدية لله.

*

أما المقام، فهو ظهور الحقّ في مظاهره، وذلك عبارة عن تجليه في ما هو له من الحقائق الحقية والمعاني الخلقية.

الحضرة الأولى: يتجلى الحق فيها باسمه الظاهر من حيث باطن العبد.
الحضرة الثانية: يتجلى الحقّ فيها باسمه الباطن من حيث ظاهر العبد.
الحضرة الثالثة: يتجلى الحقّ فيها باسمه الله من حيث روح العبد.

الحضرة الرابعة: يتجلى فيها الحقّ بصفة الربّ من حيث نفس العبد.
الحضرة الخامسة: تجلي المرتبة، وهو ظهور الرحمن في عقل العبد.
الحضرة السادسة: يتجلى الحق فيها من حيث وهم العبد.

الحضرة السابعة: معرفة الهوية يتجلى الحق فيها من حيث إنية اسم العبد.

الحضرة الثامنة: معرفة الذات من مطلق العبد يتجلى الحق في هذا المقام بكماله في ظاهر الهيكل الإنساني وباطنه، باطناً بباطن وظاهراً بظاهر، هوية بهوية، وإنية بإنية، وهي أعلى الحضرات وما بعدها إلا الأحدية. وليس للخلق فيها مجال لأنها من محض الحق، وهي من خواص الذات الواجب الوجود. فإذا حصل للكامل شيء من ذلك قلنا هو تجلّ إلهي له به، ليس لخلقه فيه مجال فلا ينسب ذلك إلى الخلق بل هو للحق. ومن هنا منع أهل الله تجلي الأحدية للخلق.

*

اعلمْ أن الإنسان الكامل هو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره. وهو واحد منذ كان الوجود إلى أبد الآبدين. ثم له تنوّع في ملابس، ويظهر في كنائس، فيسمى به باعتبار لباس، ولا يسمى به باعتبار لباس آخر؛ فاسمه الأصلي الذي هو له محمد، وكنيته أبو القاسم، ووصفه عبد الله، ولقبه شمس الدين، ثم له باعتبار ملابس أخرى أسام، وله في كل زمان اسم ما يليق بلباسه في ذلك الزمان. فقد اجتمعت به صلى الله عليه وسلم وهو في صورة شيخي الشيخ شرف الدين إسماعيل الجبرتي، ولستُ أعلم أنه النبيّ، وكنت أعلم أنه الشيخ، وهذا من جملة مشاهد شاهدته فيها بزبيد سنة ست وتسعين وسبعمائة، وسرّ هذا الأمر تمكّنه من التصوّر بكل صورة.

*

واعلمْ أن الإنسان الكامل مقابل لجميع الحقائق الوجودية بنفسه، فيقابل الحقائق العلوية بلطافته، ويقابل الحقائق السفلية بكثافته. فأوّل ما يبدو في مقابلته للحقائق الخلقية يقابل العرش بقلبه.

ويقابل الكرسي بإنيته،

ويقابل سدرة المنتهى بمقامه،

ويقابل القلم الأعلى بعقله،

ويقابل اللوح المحفوظ بنفسه،

ويقابل العناصر بطبعه،

ويقابل الهيولي بقابليته،

ويقابل الهباء بحيز هيكله،

ويقابل الفلك الأطلس برأيه،

ويقابل الفلك المكوكب بمدركته،

ويقابل السماء السابعة بهمته،

ويقابل السماء السادسة بوهمه،

ويقابل السماء الخامسة بهمه،

ويقابل السماء الرابعة بفهمه،

ويقابل السماء الثالثة بخياله،

ويقابل السماء الثانية بفكره،

ويقابل السماء الأولى بحافظته.

ثم يقابل زحل بالقوى اللامسة،

ويقابل المشتري بالقوى الدافعة،

ويقابل المريخ بالقوى المحركة،

ويقابل الشمس بالقوى الناظرة،

ويقابل الزهرة بالقوى المتلذذة،

ويقابل عطارد بالقوى الشامة،

ويقابل القمر بالقوى السامعة.

ثم يقابل فلك النار بحرارته،
ويقابل فلك الماء ببرودته،
ويقابل فلك الهواء برطوبته،
ويقابل فلك التراب بيبوسته.
ثم يقابل الملائكة بخواطره،
ويقابل الجنّ والشياطين بوسواسه،
ويقابل البهائم بحيوانيته،
ويقابل الأسد بالقوى الباطشة،
ويقابل الثعلب بالقوى الماكرة،
ويقابل الذئب بالقوى الخادعة،
ويقابل القرد بالقوى الحاسدة،
ويقابل الفأر بالقوى الحريصة.
وقس على ذلك باقي قواه؛
ثم إنه يقابل الطير بروحانيته،
ويقابل النار بالمادة الصفراوية،
ويقابل الماء بالمادة البلغمية،
ويقابل الريح بالمادة الدموية،
ويقابل التراب بالمادة السوداوية.

ثم يقابل السبعة الأبحر بريقه ومخاطه وعرقه ونقاء أذنه ودمعه وبوله والسائل المحيط، وهو المادة الجارية بين الدم والعرق والجلد. ومنها تتفرّع تلك الستة ولكل واحد طعم، فحلو وحامض، ومرّ وممزوج، ومالح ونتن وطيب.

ثم يقابل الجوهر بهويته وهي ذاته،
ويقابل العرض بوصفه،

ثم يقابل الجمادات بأنيابه، فإن الناب إذا بلغ وأخذ حده في البلوغ بقي شبه الجمادات لا يزيد ولا ينقص وإذا كسرته لا يلتحم بشيء،

ثم يقابل النبات بشعره وظفره، ويقابل الحيوان بشهوانيته،

ويقابل مثله من الآدميين ببشريته وصورته،

ثم يقابل أجناس الناس، فيقابل الملك بروحه،

ويقابل الوزير بنظره الفكري،

ويقابل القاضي بعلمه المسموع ورأيه المطبوع،

ويقابل الشرطيّ بظنه،

ويقابل الأعوان بعروقه وقواه جميعها،

ويقابل المؤمنين بيقينه، ويقابل المشركين بشكه وريبه، فلا يزال يقابل كل حقيقة من حقائق الوجود برقيقة من رقائقه.

*

(...) يقابل الهوية بالهوية، والإنية بالإنّية، والذات بالذات، والكل بالكل، والشمول بالشمول، والخصوص بالخصوص، وله مقابلة أخرى يقابل الحق بحقائقه الذاتية.

*

ثم اعلمْ أن الإنسان الكامل هو الذي يستحق الأسماء الذاتية والصفات الإلهية استحقاق الأصالة والملك بحكم المقتضى الذاتي، فإنه المعبر عن حقيقته بتلك العبارات والمشار إلى لطيفته بتلك الإشارات. ليس لها مستند في الوجود إلا الإنسان الكامل؛ فمثاله للحق مثال المرآة التي لا يرى الشخص صورته إلا فيها، وإلا فلا يمكنه أن يرى صورة نفسه إلا بمرآة الاسم الله فهو مرآته. والإنسان الكامل أيضاً مرآة الحق، فإن الحق تعالى أوجب على نفسه أن لا تُرى أسماؤه ولا صفاته إلا في الإنسان الكامل.

*

محمد بن محمد بن محمد بهاء الدين الشاه نقشبند الأويسي البخاري*

خرجت يوماً في حال غلبة الجذبة والغيبة هائماً على وجهي أذهب كل مذهب. ولطالما تجرحت قدماي من الشوك، حتى إذا دنا الليل جذبتني زيارة السيد أمير كلال**، قدس سره، وذلك في فصل الشتاء وشدّة البرد، وليس على ظهري إلا فروة عتيقة، فلما وصلت إلى منزله وجدته جالساً بين أصحابه. فحينما أبصرني سأل عني فعرفوه بي، فقال: أخرجوه من هذا المنزل. فلما خرجت أوشك أن تنفر نفسي وتطغى وتجذب مني عنان الانقياد والتسليم. ولكن تداركتني عناية الله ورحمته فقلت: إني لأتحمل كل مذلة في ابتغاء مرضاة الله تعالى. وهذا هو الباب فلا مندوحة لي عنه، ثم وضعت رأس التواضع والانكسار على عتبة العز، وقلت لنفسي: إني لا أرفع عن هذه العتبة رأسي ولو حصل لي مهما حصل. ذلك والثلج ينزل شيئاً فشيئاً عليّ، والهواء شديد البرودة جداً. ولم أزل كذلك حتى قرب وقت الفجر، فخرج السيد، قدّس سرّه، فوقع قدمه الشريف على رأسي، فلما أحس بي رفع رأسي عن العتبة، وأدخلني المنزل وبشّرني، فقال لي: يا ولدي! إن ثوب هذه السعادة على قدر ذاتك. ثم جعل يخرج بيده الشريفة ما في قدمي

---

* ولد سنة 717 هـ في قصر العارفان، وهي قرية من قرى بخارى. ويعدّ مؤسساً للطريقة النقشبندية.

** هو شمس الدين كلال، أستاذ شاه نقشبند في الطريقة الصوفية.

من الشوك، ويمسح ما أصابهما من الجراحة ويمدّني بفيوضاته الوافرة، وألطافه الباهرة. قدّس الله سرّه.

*

كنت في بخارى والسيد كلال في نسَف، فوجدت في نفسي داعية لزيارته، فبادرت لذلك في الحال، فلما وصلت إلى مقامه وسلمت عليه، قال لي: يا ولدي! لقد جئت في وقت الحاجة. فإنّا هيأنا المطبخ، ونريد من يحتطب لنا. فشكرته على هذه الإشارة. وذهبت وأتيت بالحطب أحمله على ظهري، وفيه من الشوك ما فيه.

*

لقيت أوائل الطلب والجذبة رجلاً من أحباب الله، فقال لي: الظاهر أنك من الأصحاب، فقلت: أرجو من بركة نظر الأحباب أن أكون من الأصحاب.

فقال لي: كيف تعامل الوقت؟ فقلت له: إن وجدت شكرت، وإلا صبرت.

فتبسم وقال: هذا سهل.

فتواضعت له، وأقبلت عليه، وطلبت منه الإمداد. فأمرني بالاشتغال بجبر الخواطر، وخدمة العاجزين، والضعفاء المنكسرين، الذين لا يكترث بهم أحد من الناس مع المحافظة على تمام المسكنة، والتواضع والانكسار، فامتثلت لأمره وصرفت في ذلك أياماً كثيرة.

ثم بعد ذلك أمرني بخدمة الحيوانات، ومداواة أمراضهم، ومداراة جروحهم وقروحهم بنفسي مع الإخلاص في ذلك والتذلل.

فنهضت بأعباء هذه الخدمة كما أمرني. حتى كنت إذا لاقاني في الطريق كلب وقفت حتى يمر هو أولاً لئلا أتقدّم عليه، ولم أزل كذلك سبع سنين.

ثم بعد ذلك أمرني أن أشتغل بخدمة كلاب هذه الحضرة بالصدق والخضوع، وأطلب منهم الإمداد. وقال لي: إنك ستصل إلى كلب منهم تنال بخدمته سعادة عظيمة. فاغتنمت نعمة هذه الخدمة. ولم آل جهداً بأدائها حسب إشارته ورغبة ببشارته، حتى وصلت مرة إلى كلب فحصل لي من لقائه أعظم حال. فوقفت بين يديه، واستولى عليّ بكاء شديد، فاستلقى في الحال على ظهره ورفع قوائمه الأربع نحو السماء، فسمعت له صوتاً حزيناً وتأوهاً وحنيناً، فرفعت يدي تواضعاً وانكساراً، وجعلت أقول: آمين، حتى سكت وانقلب.

وخرجت يوماً من تلك الأيام إلى بعض الجهات، فوجدت حرباء قد استغرقت في رؤية جمال الشمس، فاعتراني من مشاهدتها وجد، وخطر لي أن أطلب الشفاعة منها وهي في هذا المقام. فوقفت على أتم هيئة من الأدب والاحترام، ورفعت يدي فرجعت من استغراقها، واستلقت على ظهرها، وتوجهت إلى السماء، وأنا أقول: آمين.

ثم بعد ذلك أمرني بإماطة الأذى عن الطريق، فثابرت على ذلك سبع سنين بحيث لا يُرى أبداً كمي أو ذيلي خالياً من تراب السبل أو أحجارها.

هذا وكل ما أمرني به ذلك العزيز فعلته بصدق طوية وإخلاص نية، ووجدت منه النتائج النفيسة في نفسي والترقي التام في أحوالي.

*

كنت يوماً من أيام الأحوال في ذلك البستان (وأشار إلى البستان الذي هو الآن محل ضريحه الأنور)، أنا وجماعة من المتعلقين بي، فغلبت عليّ الجذبات الإلهية، ولطف العنايات الربانية، واضطربت اضطراباً عظيماً لم أطق معه الثبات ولا الاشتغال، وأنا مستريح. فقمت مسلوب القرار وجلست

مستقبل القبلة. فحصل لي وقتئذٍ غيبة، اتصلت بالفناء الحقيقي وحقيقة الفناء في الله عزّ وجلّ. ورأيت أني في صورة نجم في بحر من نور بلا نهاية، وأني انمحيت فيه ولم يبق بي من الحياة الظاهرة أثر. ففزع الحاضرون وبكوا في تلك الحالة عليّ، ثم بعد ست ساعات ردّت إليّ بشريتي شيئاً فشيئاً.

*

نفي الوجود وعدم رؤية النفس في هذا الطريق هو رأس مال دولة القبول والوصول، وإني في هذا المقام نسبت نفسي إلى كل طبقة من طبقات الموجودات، فوجدت كل فرد منها في الحقيقة أحسن مني.

حتى أني وصلت إلى طبقة الفضلات فرأيت لها منفعة ولم أرَ لي منفعة.

ثم وصلت إلى فضلة الكلب فقلت: ما لها نفع، فحكمت على نفسي بأنها مثلها. ثم تبين لي بعدُ، أنّ لتلك الفضلة نفعاً، فحينئذٍ تحققت أنه ليس لي نفع أصلاً.

*

كل من مال إلينا أو انتسب إلى محبتنا بعيداً كان أو قريباً، لابد أن نلحظ نسبته كل يوم وليلة، ونمدّه من منبع عين الشفقة والتربية بالإمداد الدائم إن كان حافظاً لأحواله، منقياً لطريق الإمداد من أدناس التعلقات وأوساخها.

*

عبد الوهاب الشعراني*

ومما وقع لي وأنا ابن عشر سنين في البلاد أنني عمت بحر النيل أيام الوفاء إلى ساحل البحر الآخر، فتعبت وبطلت حركة أعضائي. فتشهدت ونزلت قعر البحر لأموت. وإذا أنا بشيء يابس تحت رجلي كالحجر، فوقفت عليه حتى استرحت، فلما عمت إذا بذلك الشيء اليابس رأس تمساح أرسله الله تعالى إليَّ حملني حتى استرحت. فذهب التمساح وعام وأنا أنظره. وهذا من جملة اعتناء الحق تعالى بي وأنا صغير.

*

ومما منَّ الله به عليَّ: شهودي أن جميع ما أقاسيه في هذه الدار من الشدائد والأهوال إنما هو رحمة من الله؛ لأنه كالتأسيس والإدمان لتحمل ما توعد الله تعالى به من شدائد يوم القيامة وأهوالها. إذ الإنسان لا يهوله إلا ما ورد عليه جديداً، ما لم يكن به عادة، فكل من ذاق شدائد الدنيا وأهوالها هانت عليه أهوال يوم القيامة. ومن هنا قال بعضهم: إن العارفين لا يموتون كغيرهم، وإنما ينقلون من دار إلى دار، وذلك لأنهم أماتوا نفوسهم بالمجاهدة، فإن وقع أن بعض العارفين تغير عليه الحال عند الموت، فإنما ذلك من بقية بقيت عليه من مجاهدة نفسه.

*

---

* عبد الوهاب بن أحمد علي، الحنفي نسبةً إلى محمد بن الحنفيّة، الشعرانيّ، أبو محمّد: متصوّف. ولد في قلقشندة بمصر (898 هـ – 973 هـ) ونشأ بساقية أبي شعرة من قرى المنوفية وإليها نسبته (الشعراني).

ومما أنعم الله به عليَّ: حضوري مع الحق تعالى حال اجتماعي بزوجتي، كما أحضر معه حال صلاتي بجامع. إنَّ كلاً منهما عبادة مأمور بها، وما شرع الله تعالى جميع العبادات إلا ليحضر معه العبد فيها، وإنما لم يصرح الشارع لنا بالحضور مع الله في الجِماع اكتفاء بما أمرنا به من التسمية عنده، فإن ذكر اسمه تعالى وسيلة الحضور معه.

وقد كان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: لا يتحقق لعارف قط وجه العبودية في شيء من الأعمال كما يتحقق له في حال الجِماع، فإنه يكون مقهوراً تحت حكم شهوة طبيعته حتى لا يكاد يتذكر شيئاً غير ما هو فيه.

وذكر الشيخ محي الدين في «الفتوحات»: أن القطب الغوث يكثر من الجماع لمجرد اللذة لنكاح أهل الجنة، أو لإحصار التناسل لأمر مشروع.

وهذا الخلق الذي ذكرناه عزيز، بل بعضهم ربما لا يصح له الحضور مع الله في الجماع أصلاً.

*

ومما مَنَّ اللهُ تبارك وتعالى به عليَّ: كشفُ الحجاب عني، حتى سمعتُ تسبيح الجمادات والحيوانات من البهائم وغيرها. فانكشف حجابي، فصرتُ أسمعُ تسبيح العمد والحيطان والحصر والبلاط حتى دهشتُ،

وصرتُ أسمعُ من يتكلَّم في أطراف مصر، ثم اتسع إلى قُراها، ثم إلى سائر أقاليم الأرض، ثم إلى البحر المحيط، فصرتُ أسمعُ تسبيح السمك.

*

ومما مَنَّ اللهُ تبارك وتعالى به عليَّ: بعد الإدمان على تحمُّل البلاء والأذى، مبادرتي لشكر الله تعالى كلما آذاني إنسان. فأشكرُ الله الذي

صبَّرني على تَحَمُّل أذاه، ولا أشتغلُ قطّ بمقابلته. بل أعذره في ذلك، فإنه ما آذاني وإلا وهو في غفلةٍ عن كوني عبد الله، وعن كونه في حضرة الله تعالى، وعن كون الحق عزَّ وجَلَّ نهاهُ عن مثل ذلك.

*

ومما مَنَّ الله تبارك وتعالى به عليَّ: شفقتي على كلّ من بالغَ في إيذائي، وترجيح محبته على محبة من يحسن إليّ.

*

أحمد الفاروقي السرهندي*

اعلم أن مشائخ الطريقة النقشبندية قدس الله أسرارهم اختاروا ابتداء السير من عالم الأمر وصاروا يقطعون مسافة عالم الخلق من ضمنه، بخلاف مشائخ سائر الطرقات. فإن ابتداء سيرهم من عالم الخلق. وبعد طي مسافة عالم الخلق يضعون القدم في عالم الأمر، ويصلون إلى مقام الجذبة. ولهذا طريق النقشبندية أقرب الطرق. فلا جرم صارت نهاية الآخرين مندرجة في بدايتهم. ومع كون ابتداء سيرهم من عالم الأمر لا يتأثر بعض الطالبين من هذه الطريقة بسرعة ولا يجدون الحلاوة ولا التلذذ الذي هو من مقدمة الجذبة بالسهولة. ووجه ذلك أن لطائف عالم الأمر ضعيفة فيهم بالنسبة إلى عالم الخلق وهذا الضعف هو الذي صار سدة في طريق التأثير والتأثر وامتداد زمان بطء التأثر إلى أن يقوى لطائف عالم الأمر فيهم وتغلب على عالم الخلق وأن ينعكس الأمر. وعلاج هذا الضعف بحيث يكون مناسباً لهذه الطريقة هو التصرف التام من صاحب التصرف والعلاج المناسب لسائر الطرق تقديم تزكية النفس والرياضات الشديدة والمجاهدات الشاقة.

*

* وُلد سنة 971 هـ في الهند، ويُعدّ من أكبر مشايخ الطريقة النقشبندية.

محمد الروّاس*

ومما لا يلتفت إليه

محادثات ترنُّ في الخاطر ألقى بها إليه مجرد بقايا الآثار التي في زوايا النفس أو طوارق السمع المنصرفة إليه من أَلْسُنِ أرباب الأغراض الخسيسة،

فيظنها الواهم من الإلهام الحق ويسبح معها ، وهي في صقع لا يدني من آثار حقيقيّة،

والأخذ بها جهل ، في موارد الإلهام، وردها والإعراض عنها من أحكام الفقه الإلهي.

*

---

* محمد مهدي بهاء الدين الصيادي الرواس، توفيّ سنة 1287 هـ، من أعلام الطريقة الرفاعية.

محمد بن عبد الله بن مصطفى الخاني الخالدي النقشبندي*

(...) وأما الآداب المتعينة على المريد مع الشيخ المتّفق عليها عند الجمهور فهي بطريق الإجمال خمسة عشر أدباً.

منها أن يكون اعتقاده مقصوراً على شيخه معتقداً أنه لا يحصل مطلوبه ومقصوده إلا على يد هذا الشيخ وإذا تشتت نظره إلى شيخ آخر حرم من شيخه وانسدّ عليه الفيض.

ومنها أن يكون مستسلماً منقاداً راضياً بتصرفات الشيخ، يخدمه بالمال والبدن. لأن جوهر الإرادة والمحبة لا يتبين إلا بهذا الطريق ووزن الصدق والإخلاص لا يعلم إلا بهذا الميزان.

ومنها أن يسلب اختيار نفسه باختيار الشيخ في جميع الأمور، كلية كانت أو جزئية، عبادة أو عادة.

ومنها الفرار من مكاره الشيخ بأقصى الوجوه وكراهة ما يكره الشيخ طبعاً وعدم ارتكابها اغتراراً بحسن خلق الشيخ وكمال حلمه.

ومنها عدم التطلع إلى تعبير الوقائع والمنامات والمكاشفات. وإن ظهر له تعبير فلا يعتمد عليه وبعد عرض الحال على الشيخ لا يكون منتظراً لجوابه من غير طلب وإن سأل أحد الشيخ عن مسألة فإياه والمبادرة بالجواب في حضرة الشيخ.

---

* من شيوخ الطريقة النقشبندية، توفيّ في دمشق سنة 1279 هـ.

ومنها غضّ الصوت في مجلس الشيخ لأن رفع الصوت عند الأكابر سوء أدب فينبغي له أن لا يفتح باب البسط في الأفعال والأقوال والسؤال والجواب مع الشيخ لأنه يزيل احتشام الشيخ عن قلب المريد فيحجب.

ومنها معرفة أوقات الكلام معه فلا يكلمه إلا في البسط بالأدب والخشوع والخضوع من غير زيادة على الضرورة بقدر مرتبته ودرجته وحاله مصغياً بتوجه تام إلى جواب الشيخ. وإلا فيحرم من الفتوح وما حرم منه لا يرجع إليه مرة أخرى إلا نادراً.

ومنها كتمان أسرار الشيخ التي يجب كتمانها.

ومنها أن لا يكتم شيئاً من الأحوال والخواطر والواقعات والكشوفات والكرامات مما وهبه الله تعالى عن الشيخ.

ومنها أن لا ينقل من كلام الشيخ عند الناس إلا بقدر أفهامهم وعقولهم.

ومنه إذا حصلت العقيدة بالشيخ يقول عنده جئت إليكم لطلب معرفة الله تعالى، وبعد قبول الشيخ لا يلتمس شيئاً بل يخدمه بالميل والرغبة حتى يحصل له القبول التام عند الشيخ، فإذا لقّنه شيئاً فيشتغل به على الدوام من غير إخطار خاطر ولو كان خيرياً.

ومنها أن لا يتحمل أمانة تبليغ سلام الغير إلى الشيخ لأنه من سوء الأدب كما ذكر في آداب المريدين.

ومنها أن لا يتوجه إلا لما أراده الشيخ رافعاً نظره عن الغير فانياً في أقوال الشيخ وأفعاله وصفاته بل وذاته لما قيل أن الفناء في الشيخ مقدمة الفناء في الله.

ومنها أن لا يتوضأ بمرأى من الشيخ ولا يرمي البزاقة والمخاطة في مجلسه ولا يصلي النوافل في حضوره بل معه.

ومنها أن يبادر بإتيان ما أمره به الشيخ بلا توقف ولا إهمال ولا تأويل من غير استراحة ولا سكون قبل إتمام ذلك الأمر.

وإذا أراد الشيخ الشروع في أخذ العهد على أحد يأمره أن يجلس بين يديه متوركاً عكس تورك الصلاة، ثم يبين له محل القلب الصنوبري الشكل وأنه تحت الثدي الأيسر بإصبعين، ثم يستغفر الله الشيخ والمريد يتابعه خمساً وعشرين مرة، ثم يقرأ الشيخ الفاتحة مرة والإخلاص ثلاث مرات، ويهدي مثل ثوابهما إلى صحيفة النبي وإلى صحيفة إمام الطريقة وغوث الخليقة الشيخ محمد الأويسي البخاري المعروف بشاه نقشبند قدس سره، ويأمر المريد بتغميض العينين والنظر إلى القلب بالخيال ويتوجه له على النحو المعروف عندهم. ثم يلقنه ما يناسب استعداده من الأذكار الآتية، ويغلق الباب وقت التوجه للمريد وهو من أعظم الشروط وأهمها خصوصاً على مشرب طريقتنا الخالدية النقشبندية قدس الله أسرارهم العلية، وسندهم في ذلك ما ذكره العارف الشعراني قدس سره في النفحات.

ثم اعلمْ أن طرق الوصول الى الله تعالى والفناء به عند السادة النقشبندية أربعة:

الطريقة الأولى: وهي الأعلى والأقوى صحبة الشيخ الحقيقي الكامل السالك بطريق الجذب المشروطة بثلاثة شروط.

الأول: أن يصحبه خدمة له وانتساباً إليه وافتخاراً به وإقبالاً عليه.

الثاني: أن لا يعترض شيخه ولا ينكر عليه فعلاً من أفعاله مطلقاً ظاهراً أو باطناً ويعد خطرات وهمه ذنوباً يستغفر الله تعالى منها، لأن شيخه بيد الله تعالى، والله لا يأمر بالفحشاء ولكنه تعالى يمتحن من أراد من خلقه بالشيخ وغيره.

الثالث: أن يكون بين يديه كالميت بين يدي الغسال لا يخالفه في شيء مطلقاً ولا ينتصر لجانب نفسه مع شيخه أبداً، مقرونة تلك الصحبة مع الأصلين الأصيلين للطريقة، أعني كمال إتباع النبي ومحبة ذلك الشيخ الكامل ولها آداب أخر، لكن المذكور منها يجر غيره والأخلاق يجلب بعضها بعضاً وشيخ الصحبة هو الشيخ الحقيقي الموصل إلى الله تعالى بحاله لا بواسطة شيء آخر كالخرقة أو الذكر. فإن شيخ الخرقة يسري حاله في الخرقة ثم يصل إلى المريد وكذلك شيخ الذكر ذكره أمدّه لا شيخه فهما شيخان مجازاً، وهو شيخ حقيقة لعدم الواسطة بين قلبه وقلب المريد.

الطريقة الثانية: الرابطة، وهي طريقة مستقلة للوصول، وعبارة عن ربط القلب بالشيخ الواصل إلى مقام المشاهدة المتحقق بالصفات الذاتية وحفظ صورته في الخيال ولو بغيبته فرؤيته بمقتضى الذين إذا رؤوا ذكر الله تحصل بها الفائدة كما تحصل من الذكر بموجب هم جلساء الله تعالى. ولا يخفى ما ورد من الأحاديث في الحث على الجليس الصالح والشيخ كالميزاب ينزل الفيض من بحره المحيط إلى قلب المريد المرابط وإن وجد الفتور في الرابطة يحفظ صورة شيخه في خياله بموجب المرء مع من أحب، فبحفظ الصورة يتحقق ويتّصف المريد بأوصاف الشيخ وأحواله التي له وقيل الفناء في الشيخ مقدمة الفناء في الله، وإن وجد في إحضار الصورة سكراً أو غيبة يترك الالتفات إلى الصورة، ويكون متوجهاً إلى ذلك الحال.

واعلمْ أن استحضار الرابطة على أقسام:

الأوّل: أن يتصور المريد صورة شيخه الكامل بين عينيه ثم يتوجه إلى روحانيته في تلك الصورة ولا يزول عن التوجه إليها حتى يحصل له الغيبة أو أثر الجذبة.

الثاني: أن يتصور صورته بين جنبيه ثم يتوجه إلى روحانيته في تلك الصورة، كذلك حتى يحصل له الغيبة أو أثر الجذبة فبعد حصول الأمرين في الوجهين يترك الرابطة ويشتغل بذلك الأمر الحاصل بالغيبة أو بالجذبة. وكلما زال عنه ذلك الحاصل من الرابطة يعود إليها حتى يرجع إليه ذلك الحال. فهكذا يداوم على الرابطة حتى يفنى عن ذاته وصفاته في صورة الشيخ. فعند ذلك يشاهد روحانية الشيخ مع كمالاته في صورته لأن الكمالات لا تفارق الروحانية فتربيه روحانية الشيخ بعد ذلك إلى أن توصله إلى الله تعالى فيكون من الواصلين الكاملين، فبالرابطة يتربى المريد من الشيخ ولو كان أحدهما في المشرق والآخر في المغرب.

الثالث: أن يتخيل صورة شيخه في جبهته ويقررها وسط الجبهة وهو أقوى لدفع المخيلات من القسمين اللذين قبله.

الرابع: أن يستحضر صورة شيخه في وسط قلبه وهو أعون على دفع الخطرات القلبية.

الخامس: أن يتخيل الصورة في جبهته وينزل بها إلى وسط قلبه ويقدّر أن القلب دهليز واسع ويقطع الخواطر جملة واحدة، وهذا القسم أنفع الأقسام التي قبله وأصعبها.

السادس: أن ينفي نفسه ويثبت شيخه وهو أقوى لرفع البليات.

ثم اعلمْ أن الرابطة إنما تفيد إن كانت مع الإنسان الكامل المتصرف بقوّة الولاية لأن الإنسان الكامل مرآة الحق سبحانه وتعالى، فمن ينظر إلى روحانيته بعين البصيرة يشاهد الحق فيها. فبالرابطة يستفيض الشيوخ عن الصبيان الكاملين ويستفيض الأحياء عن الأموات المتصرفين، لأن الرابطة تدخل المستفيض تحت تصرف ولاية روحانية المفيض وتتصرف فيه

الروحانية وتفيض عليه من الكمالات الإلهية والتجليات الربّانية وتبلغه إلى الحضرات العلية سواء كان المفيض ميتاً أو حياً وسواء عرف ذلك أم لم يعرف.

ثم اعلمْ أن كيفية الرابطة مع الأموات أن يجرّد المريد نفسه عن العلائق العنصرية ويطلق باطنه عن القيودات الطبيعية، ويعري قلبه عن العلوم والنقوش والخواطر الكونية، ثم يتصور روحانية ذلك الميت نوراً مجرداً عن الكيفيات المحسوسة ويحفظ ذلك النور في قلبه حتى يحصل فيه فيض من فيوضات ذلك الميت أو حال من أحواله لأن روحانية الكاملين منبع الفيوضات فمن أدخل المنبع في قلبه ينال فيضه.

وأما آداب الرابطة فهي أن يعتقد المريد أن كمالات الشيخ لا تفارق روحانيته وأن روحانيته ليست مقيدة بمكان دون مكان، ففي أي مكان يتصوره تحضر فيه روحانيته وأن يعتقد أن تصرفات روحانية الشيخ من تصرفات الحق سبحانه وتعالى، وأن يحفظ محبة شيخه وأن يراعي نسبته في كل حال، وأن لا يترك الرابطة عند حصول بعض الأحوال قبل أن يتمكن فيه ذلك الحال لأنه إن ترك الرابطة يزول عنه ذلك الألم (...)، وأن يداوم على الرابطة في جميع الأوقات ولا يفارقها أصلاً.

ثم اعلمْ أن المريد إنما يحتاج إلى الرابطة إن لم يقدر على الاستفاضة من الله تعالى من غير واسطة، فإن قدر عليها يجب عليه أن يترك الرابطة لأن الاشتغال بالرابطة حينئذ اعتبار التنزّل عن الترّقي وترجيح مرتبة الحجاب على مقام الشهود، وذلك إعراض عن الله تعالى ولكن لا يترك محبة الشيخ ولا يترك نسبته لأن حفظ المحبة والنسبة يزيد المشاهدة ويقرب السالك إلى مقام الإنس والمحادثة.

*

أحمد بن عجيبة الحسني*

العَارِف نَظَرَ إلى مُسَبِّب الأسْباب، فَزَال عَنْهُ الحِجَاب، ودَخَلَ مَعَ الأحْبَابِ،

والجَاهِل وقَفَ مَعَ قِشْرِ الأسْبَاب، وقَنَعَ بالوُقُوفِ مِنْ وَرَاءِ البَابِ.

العارفُ مَوْصُوفٌ بالإقرار في ما يَبْدُو مِنْ نَوَازِل الأقْدَارِ،

والْجَاهِلُ مرسومٌ بالإنكارِ لما يظهَرُ من حَضْرَةِ القهَّارِ،

العَارفُ يَتَلَقَّى مَا يَبْرُزُ من عُنْصُرِ القُدْرَةِ، بالفَرَحِ والسُّرُور، لشهودِه ما بيد قدرتِهِ تصاريفُ الأمور،

والجاهل من خُصَّام الحَقِّ دائماً وهو لاَ يشْعُرُ، ولذلك قال بَعْضهم: مَنْ عَامَلَ النَّاس بالشريعة، طال خصامهُ مَعَهُمْ، ومَنْ عَامَلَهُمْ بالحَقِيقَة عَذَرَهُمْ، فالواجب أن يعامِلهم في الظَّاهر بالشريعة؛ فيُذكِّرَهُمُ، وفي الباطِنِ بالحقيقةِ فَيَعْذرَهُمْ.

فتحصَّلَ من هذا، أنَّ القدرَة تُبْرزُ وتُظْهرُ، والحِكْمَة تغطي وتسْتر، والحِكمة عَيْن القدرة، والقدرة عَيْن الحِكْمَة، إذ الْفَاعِل واحِد، فاعِل السَّبَب؛ وهو فاعل المُسَبِّبِ، لكن لاَ بُدَّ للشّمْس من سَحَاب، وللحَسْناءِ من نِقاب، فمَا أظْهَرَتْهُ القُدْرَة من الأسْبَابِ والْعِلَلِ، سُمِّيَ حِكْمَة، وما أبْطَنته مِنَ الإيجاد والاختراع، سُمِّيَ قُدْرة، والفَاعل واحِدٌ. فإذا سَبَق للعَبْدِ شيء من مقدورات الحقِّ، جلالية أو جمالية، ووصَلَ وقت نزول ذلِكَ، حرَّكه الله إلى سَبب في

---

* توفي في منتصف القرن الثالث عشر الهجري، ومقامه مشهور في المغرب.

الغالبِ، فينفذ ذلِكَ المَقدورُ بتصريفِ القُدْرَة الأزليةِ، مسْتتراً برداءِ الحِكْمَة الإلهية، فالجاهل يقف مَعَ قِشْرِ السَّبَب، والعارف يَنفذ إلى شهود مُسَبِّبِ ذَلِكَ.

*

اليَقِينُ هو سكونُ القَلْب واطْمئنانُهُ بِزَوَالِ التَّوَدُّدِ والاضطرابِ، من قولهم: يَقِنَ الماء في الحَوْضِ، إذا سكن واسْتَقَرَّ فِيهِ. ثم يتفاوتُ اليقين بِتَفَاوُتِ مَوَادِّهِ وأنواره. فإذَا سكَنَ إلى الله تَعَالى سكوناً تاماً، لَكِنَّهُ مِن وَرَاءِ حِجَاب الأكْوَانِ، يسْتدلّ بالأثَرِ على المُؤَثِّرِ، سُمِّيَ هذَا المقام، علم اليقين. ومَوَادّه التَّفَكُّرُ والاعتبار. فكلما قَوِيَ التفكُّر والاعْتِبار، قَوِيَ نُورُ الْيَقينِ. فإذا نَظَرَ إلى هذه المَصْنوعاتِ العلوية والسُّفلية، وتفكَّرَ في عجائب صُنْعِهَا، واختلاف أشخاصها وأنْوارهَا، وتَعدُّد أفرادِهَا، وكُلُّهَا فِي قَبْضَتِهِ تَعَالَى، وتَحْت قُدْرَتِهِ وإرَادَتِهِ، أحَاطَ بِهَا عِلْماً، وسمعاً وبصراً، لا يَعْزُبُ عنه مثقال ذرَّة فِي الأرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ،

عَلِمَ عِلْمَ يَقِينٍ عظمة خَالِقِهَا، وبَاهِرَ قُدْرَتِهِ، وسعَة عِلْمِهِ، فإذا تَعَطَّشتْ الرُّوح إلى مَعْرِفَة ذَاتِهِ، واشتاقَتْ إلى الْوُصُول إلى حَضْرَتِهِ، رزقَهَا الحقُّ تَعَالى الإنَابَة إلَيْهِ، فأوحَشَهَا مِنْ خَلْقِهِ، وأنَّسَهَا بِهِ، وأشْغَلَها بذكره، وقيَّض لها وليًّا مِنْ أوْليَائِهِ، فلا يَزَال يسيرُ بِهَا مِنْ مَرْحلٍ إلى مرحلٍ، مِنْ مَنْهَلٍ إلى مَنْهَلٍ، حَتَّى يَقُولَ لَهَا: هَا أنْتَ وَرَبُّكَ، ذلِكَ حتَّى تنقشع ظُلْمَة الأكْوَانِ عَنِ الْقَلْبِ، فَيُشَاهِد أنوَارَ الْغَيْبِ حَاضِرَةً، وأسْرَار الذَّاتِ لائِحَةً، فَيَغْرقُ فِي الأنْوَارِ، ويَغِيبُ عَن شُهُودِ الآثارِ.

ويُسمَّى هذَا الْمَقَامُ، عَيْنَ الْيَقِينِ، وهو مقام الفناءِ ومَوادّهُ: الذِّكْرُ الْقَلْبِي، وجَوَلاَن الفِكْرَة فِي مَيَادِين الغيُوبِ، مع دَوَام صُحْبَةِ العَارِفِينَ، وخِدْمَةِ

الْوَاصِلِينَ، وإِذَا تَمَكَّنَ مِن شُهُودِ الأنْوَارِ، ورجَعَ إلى شُهُودِ الآثار يرَاهَا قَائِمةً باللهِ، لاَ وجودَ لَهَا مَع الله، سُمِّيَ هذَا الْمَقَامُ حَقَّ اليقينِ. ومَوادُّهُ: الْفِكَرة والنظرة، ولُزُوم الصُّحْبَةِ والخِدْمَةِ.

ولم يَبْقَ بَعْدَ هذَا، إلاَّ التَّرَقِّي فِي الْمَعْرِفة أبَداً سَرْمَداً فِي هذِهِ الدَّار، وَفِي تِلك الدَّار إذْ عظَمَةُ الحقّ لاَ نِهَايَة لَهَا، فالترقِّي لاَ نِهَايَة لَهُ.

*

أقوال وأفكار غير منسوبة

الكرامة أن يُبْلَغَ المُرادُ قبلَ ظهورِ الإرادة.

*

السِّرُّ ما لا يحسُّ به هاجسُ النَّفْس. السِّرُّ ما غيَّبَهُ الحقُّ، وأشرفَ عليه به.

*

إنَّ الخاطِرَ الصحيح أوَّلُ الخاطِر.

*

مَنْ زعمَ أو ظَنَّ أنَّه قد وصل، فليتيقن أنَّه انفصل.

*

فرحُ اتصالك ممزوجٌ بترحِ الانفصال.

*

وقتي مُسَرْمَدٌ.

*

مَنْ أرادَ أن يعرفَ رعونة النفس وفساد الطبع، فليصغِ إلى مادحه.

*

أقربُ الخلق مِن الله، السالكون آثاره والمقتفون أخباره.

*

المحبَّة أن يمحو أثركَ عنك حتى لا يبقى فيك شيء راجع منك إليك.

*

كُلٌّ يريدُ أن يشير إليه، لكنه لم يجعل لأحدٍ إليه سبيلاً.

*

الخطراتُ بدَوات يهيجن الأفكار، ويبعثن على أنواع الأذكار، ويغرسنَ فنونَ الهمم في الأسرار.

*

اللهمَّ ألبسني لباساً، من رآني رآك فيه، ولم يرني.

*

ما عَرَفه غيره ولا أحبه سواه، لأنَّ الصمدية ممتنعة عن الإحاطةِ والإدراك.

*

حقيقة المريد وجودُ المراد في أول الإشارة.

*

من علامات الخاطر الإلهامي أن يكون العلم له باعثاً قبل أن يبعثه، والحقّ له واصفاً قبل أن يصفه، ومعناه عنه ناطقاً قبل أن ينطق به.

*

لا يعرفه إلا مَنْ تَعرَّف إليه، ولا يوحِّده إلا مَنْ توحَّد له، ولا يؤمن به إلاَّ من لطفَ به، ولا يصفه إلا مَنْ تجلّى لسره، ولا يخلص له إلا مَنْ جَذَبه إليه، ولا يصلح له إلا مَنْ اصطنعه لنفسه.

*

الإيمان بالله مشاهدة ألوهيته.

*

– قُلْ الله.

– إلى متى تقولون: قُلْ الله وأنا محترقٌ بالله.

*

العارف فوق ما يقول، والعالم دون ما يقول.

*

مَنْ اشتاق إلى الله اشتاق إليه كلُّ شيء.

*

كُنَّا في مركب فمات رجلٌ معنا عليلٌ، فأخذنا في جهازه، وأردنا أن نلقيه في البحر فصارَ البحرُ جافَّاً. ونزلت السفينة، فخرجنا وحفرنا له قبراً، ودفنّاه،

فلما فرغنا استوى الماء، وارتفعَ المركب وسرنا.

*

– ما أعجب ما لقيتَ في سياحتك؟

– لقيني الخَضِر، فطلب مني الصحبة، فخشيت أن يفسدَ عليَّ توكلي.

*

– لِمَ زهدت في الدنيا؟

– لزهدها فيَّ.

*

– تكلَّمْ.

– ليس لي لسانٌ فأتكلَّم.

– اسمعْ.

– ليس فيَّ مكان فأسمع.

*

الرَّجاء رؤية الجلال بعينِ الجمال.

*

– ألا تشتهي؟

- أشتهي ألا أشتهي.

*

الخشوع ذبول يرد على القلب عند اطِّلاع الربِّ.

*

- إنِّي أريدُ أن أَحُجَّ على التجريد.
- جرِّد أولاً قلبك عن السهو، ونفسك عن اللهو، ولسانك عن اللغو، ثم اسلك حيث شئت.

*

المحبَّةُ سكرٌ لا صحو فيه
ودَهَشٌ في لقاء المحبوب يوجِبُ التعَطُّلَ عن التمييز.

*

المحبة بلاءٌ لا يُرجى شفاؤه، وسقام لا يُعْرف دواؤه.

*

الصِّدق نهاية الأحوال، وهو استواءُ السِّرِّ والعلانية، وذلك عزيز.

*

لو أرادَ أن يطلبوه لطلبوه، ولو طلبوا لعَرفوا، ولو عَرَفوا لأحبُّوا، ولو أحبُّوا لاشتاقوا، ولو اشتاقوا لرجوا، ولو رجوا لأمَّلوا لقاءَه.

*

ما رجع مَنْ رجع إلا من الطريق، ولو وصلوا ما رجعوا.

*

مَنْ وافق شهوته، عَدِمَ صفوته.

*

إذا تزوَّج الصوفي فقد ركبَ السفينة،

فإذا وُلِدَ له فقد غرقت السفينة.

*

ما أخلص أحدٌ قطّ، إلاَّ أحبَّ أن يكونَ في جُبٍّ لا يُعْرَف.

*

الصُّوفيُّ غيرُ مخلوق.

*

شمسُ قلبِ العارف أضوأُ وأشرقُ من شمس قلب النهار،
لأنَّ شمس النهار قد تكسف، وشمس القلوب لا كسوف لها،
وشمس النهار تغربُ بالليل، وشمس القلوب ليست تغيب.

*

المعرفة مشاهدة الحقّ بالسِّرِّ، بلا واسطة ولا كيف، ولا شبه.

*

من علامات العارف، أن ينظر إلى الدُّنيا بعين الاعتبار، وإلى الآخرة بعين الانتظار، وإلى النفس بعين الاحتقار، وإلى طاعته بعين الاعتذار لا بعين الاستكثار، وإلى المعرفة بعين الاستبشار، وإلى المعروف سبحانه بعين الافتخار.

*

الخائف ذو هربٍ،
والعابدُ ذو نَصَبٍ، والمحبُّ ذو شغبٍ، والعارفُ ذو طَربٍ.

*

– ما حقيقة المعرفة؟
– إذا عرف أنه لا يعرف فهو عارف.

*

إذا أحبّكَ سَتَرَكَ وغارَ عليك،
وإذا أحببتَه شهرك ونادى عليك.

*

لبسُ الصوف إماتةٌ للشَّهوة.

*

جَمعَهُم في الدَّعوة وفرَّقهم في الهداية.

*

- ما التواضع؟
- التكبُّرُ على الأغنياء، والتذلُّلُ للفقراء.

*

تُزَيِّنُ المرأةُ أحسن شيء فيها لأقبح شيءٍ فيها.

*

أصلُ المعرفة موهبة.

*

من كثرت لحظاته، دامت حسراته.

*

إذا كانت النعمةُ وسيمةً، فاجعلْ الشُّكرَ لها تميمة.

*

كنت بالبادية وحدي، فضاق صدري، فقلت: يا إنس، كلّموني. يا جنّ كلّموني، فهتف بي هاتف: ما تريد؟ فقلت: أريد الله تعالى، فقال: متى تريد الله؟ يعني: أنّ من قال للجن والإنس: كلموني، متى يكون مريداً لله عزَّ وجلَّ؟

والمريد لا يفتر آناء الليل والنهار، فهو في الظاهر بنعت المجاهدات، وفي الباطن بوصف المكابدات.. فارق الفِراش، ولازم الانكماش، وتحمل المصاعب، وركب المتاعب، وعالج الأخلاق، ومارس المشَاقّ، وعانق الأهوال، وفارق الأشكال.

*

الحب، حَرفان: حاء وباء، والإشارة فيه: أن من أحب فليخرج عن روحه وبدنه.

*

أقوال غير منسوبة في معنى التصوُّف

ركوبُ الصَّعب في جلال الكرب.

*

الإكبابُ على العمل تطرُّقاً لبلوغ الأمل.

*

مُرامقةُ المودود ومُصارعةُ المحدود.

*

البروزُ من الحجاب إلى رفع الحجاب.

*

النزوح بالأحوال والتخفُّف من الأثقال.

*

استنشاقُ النسيم، والاشتياقُ إلى التسنيم.

*

تسوّر السور إلى التحلّل بالحور.

*

التألُّه والتدلُّه عن غلبات التولُّه.

*

المنافسة في نفائس الأخلاق، وفضّ النفس عن أنفس الأعلاق.

*

التظاهرُ بالحق على المتكاثر بالخلق.

*

مُعانقة الحنين ومُفارقة الأنين.

*

عرفانُ المنن وكتمانُ المحن.

*

التمتُّع بالحضور، والتتبُّع للخطور.

*

بذلُ الندى وحملُ الأذى.

*

التعزُّز بالحضرة، والتمييز للخطرة.

*

اغتنامُ الذكر واكتتامُ السِّرِّ.

*

التحمُّل للكلال، والتحرّز من الملال، والتروّح بالوِصال.

*

براعةٌ في المعارف وبلاغة في المخاوف.

*

التكرّم والتظرّف والتنسّم والتنظُّف.

*

الفهرس

المصادر والمراجع

- الآملي، سيد حيدر، **المقدمات من كتاب نص النصوص في شرح فصوص الحكم**، بتصحيحات: هنري كربين وعثمان إسماعيل يحيى، المعهد الفرنسي للأبحاث في إيران، 1988.

- ابن سبعين، عبد الحق، **رسائل ابن سبعين**، حقَّقه وقدَّم له: عبد الرحمن بدوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1965.

- ابن عجيبة، أحمد، **معراج التشوُّف إلى حقائق التصوُّف**، ضبطها وصححها وعلَّق عليها: عاصم إبراهيم الكيالي الشاذلي الدرقاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006.

- ابن عجيبة، أحمد، **سلك الدرر في ذكر القضاء والقدر**، ضبطها وصححها وعلَّق عليها: عاصم إبراهيم الكيالي الشاذلي الدرقاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006.

- ابن عربي، محيي الدين، **كتاب محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر**، والأخبار (2 ج)، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

- ابن عربي، محيي الدين، **فصوص الحكم**، والتعليقات عليه بقلم: أبو العلاء عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ.

- ابن عربي، محيي الدين، **إنشاء الدوائر**، طبع في مدينة ليدن المحروسة سنة 1336 هجرية.

- ابن عربي محيي الدين، **كتاب التدابير الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية**، طبع في مدينة ليدن المحروسة سنى 1336 هـ.

- ابن عربي، محيي الدين، **عقلة المستوفز**، طبع في مدينة ليدن المحروسة سنة 1336 هـ.

- ابن عربي، محيي الدين، **الفتوحات المكية** (السِفر الأوَّل)، تحقيق وتقديم: عثمان يحيى، تصدير ومراجعة: إبراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1972 م.

- ابن عربي، محيي الدين، **الفتوحات المكية (السِفر الثاني)**، تحقيق وتقديم: عثمان يحيى، تصدير ومراجعة: إبراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1972.

- ابن عربي، محيي الدين، **الفتوحات المكية (السِفر الثالث)**، تحقيق وتقديم: عثمان يحيى، تصدير ومراجعة: إبراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974.

- ابن عربي، محيي الدين، **الفتوحات المكية (السِفر الرابع)**، تحقيق وتقديم: عثمان يحيى، تصدير ومراجعة: إبراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975.

- ابن عربي، محيي الدين، **كتاب الألف**، حيدر آباد الدكن، الهند، الطبعة الأولى، 1948.

- ابن عربي، محيي الدين، **التجليات**، حيدر آباد الدكن، الهند، الطبعة الأولى، 1948.

- ابن عربي، محيي الدين، **الجلال والجمال**، حيدر آباد الدكن، الهند، الطبعة الأولى، 1948.

- ابن عربي، محيي الدين، **كتاب الشاهد**، حيدر آباد الدكن، الهند، الطبعة الأولى 1948.

- ابن عربي، محيي الدين، **الميم والواو والنون**، حيدر آباد الدكن، الهند، الطبعة الأولى 1948.

- ابن عربي، محيي الدين، **الإسرا إلى مقام الأسرا**، حيدر آباد الدكن، الهند، الطبعة الأولى 1948.

- ابن عربي، محيي الدين، **الإعلام بإشارات أهل الإلهام**، حيدر آباد الدكن، الهند، الطبعة الأولى 1948.

- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن، **صفة الصفوة** (2 ج)، حقَّقه: رشاد الخطيب، راجعه وقَدَّم له: نذير مكتبي، مكتبة مرزوق، دمشق، بدون تاريخ.

- ابن الدبّاغ، عبد الرحمن بن محمد الأنصاري، **كتاب مشارق أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب**، تحقيق: هـ. ريتر، دار صادر، بيروت، 1955.
- ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد المصري، **طبقات الأولياء**، بتحقيق: نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1994.
- أبو السعادات، عفيف الدين، **روض الرياحين في حكايا الصالحين**، عُني بتحقيقه: محمد أديب الجادر، عدنان عبد ربه، راجعه: مأمون محمد سعيد الصاغرجي، دار البشائر، دمشق، 1995.
- الأصفهاني، أبو نعيم، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، الجزء السادس، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
- الأصفهاني، أبو نعيم، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، الجزء السابع، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
- الأصفهاني، أبو نعيم، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، الجزء الثامن، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
- الأصفهاني، أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الجزء التاسع، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
- الأصفهاني، أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الجزء العاشر، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
- الأعرابي، أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد بن بشر، **كتاب فيه معنى الزهد وصفة الزاهدين**، تحقيق: خديجة محمد كامل، دراسة وإشراف ومراجعة: عامر النجار، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، 1998.
- بدوي، عبد الرحمن، **شطحات الصوفية**، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الثالثة، 1978.
- البخشي الحلبي، محمد بن محمد بن محمد، **شمس المفاخر في ذكر ذرّية سلطان الأولياء والأكابر سيدي عبد القادر**، اعتنى به: الشيخ أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010.

ـ الجنيد، أبو القاسم، **رسائل الجنيد**، تحقيق: جمال رجب سيدبي، تصدير: عاطف العراقي، دار اقرأ، دمشق، 2005.

ـ الجنيد، أبو القاسم، **رسائل الجنيد**، حرّرها وصحّحها:علي حسن عبد القادر، ضمن سلسلة «جيب التذكارية»، لندن، 1962.

ـ الجيلي، عبد الكريم بن إبراهيم، **الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل**، (2 ج)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، القاهرة، الطبعة الثانية، 1965.

ـ الجيلي، عبد الكريم بن إبراهيم، **مراتب الوجود وحقيقة كل موجود**، مكتبة الجندي، القاهرة، بدون تاريخ.

ـ الجيلاني، عبد القادر، **الفتح الرباني والفيض الرحماني**، حقَّق أصوله وخرَّج آياته وعلَّق عليه: الشيخ يوسف بن محمود الحاج أحمد، دمشق، 2000.

ـ الحلاج، الحسين بن منصور، **الطواسين**، لأبي المغيث الحسين ابن منصور الحلاج، نشرهُ لويس ماسينيون، مكتبة بول غوتنر، باريس، 1913.

ـ الحكيم الترمذي، أبو عبد الله علي بن الحسن، **كتاب ختم الأولياء**، تحقيق: عثمان إسماعيل يحيى، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، بدون تاريخ.

ـ الخاني الخالدي النقشبندي، محمد بن عبد الله بن مصطفى، **البهجة السنية في آداب الطريقة العَليَّة الخالدية النقشبنديَّة**، ضبطه: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.

ـ الخاني الشافعي، محمد بن محمد بن عبد المجيد، **الكواكب الدُّريّة على الحدائق الوردية في أجلاء السادة النقشبندية**، حقَّقهُ علَّق عليه: محمد خالد الخرسة، دار البيروتي، دمشق، بدون تاريخ.

ـ الخركوشي، أبو سعد عبد الملك بن محمد بن إبراهيم بن يعقوب، **تهذيب الأسرار في أصول التصوّف**، اعتنى به ووضع حواشيه: إمام سيد محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006.

- الديلمي، أبو الحسن علي بن محمد، **كتاب عطف الألف المألوف على اللام المعطوف**، تحقيق وتقديم: ج.ك. فاديه، J.G. Vadet مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1962.

- الرفاعي، أحمد، **البرهان المؤيد**، تحقيق وشرح: محمد حسين مصطفى، دار الرفاعي للنشر - حلب، دار القلم العربي - حلب، الطبعة الثانية، 2004.

- الرّندي، أبو عبد الله بن عباد النفزي، **غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية** (2 ج)، تحقيق: عبد الحليم محمود ومحمود ابن الشريف، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1970.

- الرَّوَّاس، محمد مهدي بهاء الدين الصيادي، **بوارق الحقائق (تجلي الأسرار الرُّوحيَّة من وراء حُجب المشاهد القدسية)**، تحقيق وتعليق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006.

- الزركلي، خير الدين، الأعلام: **قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، (ثمانية مجلدات)، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، 1979.

- السرهندي، أحمد الفاروقي النقشبندي، **المكتوبات** (2 ج)، ترجمة: محمد مراد، المطبعة الميرية، مكة، 1317 هـ.

- السُّهروردي، شيخ إشراق شهاب الدين يحيى بن حبش، **مجموعة في الحكمة الإلهية**، عُني بتصحيحه هـ.كوربان، استانبول، النشريات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمان، مطبعة المعارف، سنة 1945، المجلد الأول. ويحتوي على: كتاب التلويحات اللوحية والعرشية، كتاب المقاومات، كتاب المشارع والمطارحات.

- السُّهروردي، شيخ إشراق يحيى بن حبش، **مجموعة دوم مصنفات**، صححه وقدّم له هنري كوربان، طهران، معهد إيران وفرنسا . باريس، معهد الدراسات الإيرانية بجامعة باريس، 1952، المجلد الثاني ويحتوي على: كتاب **حكمة الإشراق، رسالة في اعتقاد الحكماء، قصة الغربة الغربية**.

- السهروردي، شهاب الدين يحيى بن حبش، **كتاب اللمحات**، حققه وقدم له: إميل المعلوف، دار النهار، بيروت، 1969.

- السهروردي، شهاب الدين يحيى بن حبش، **مقامات الصوفية**، حققها وقدم لها وعلق عليها: إميل المعلوف، دار المشرق، بيروت، طبعة ثانية، 2002.
- السهروردي، شهاب الدين يحيى بن حبش، **هياكل النور**، تحقيق: محمد علي أبو ريّان، القاهرة، 1957.
- السُلمي، أبو عبد الرحمن، **مجموعة آثار أبي عبد الرحمن السُلمي** (2ج)، طبعة إيران، بدون تاريخ.
- السُلمي، أبو عبد الرحمن، **طبقات الصوفية**، بتحقيق: نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1997.
- الشاذلي، جمال الدين محمد أبي المواهب، **كتاب قوانين حكم الإشراق إلى كافة الصوفية بجميع الآفاق**، مكتبة الكليات الأزهريَّة، القاهرة، 1961.
- الشعراني، عبد الوهاب، **لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدّية**، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، القاهرة، 1961.
- الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد بن علي، **المنن الكُبرى أو لطائف المنن والأخلاق في وجوب التحدُّث بنعمة الله على الإطلاق**، وضعَ حواشيه وخرَّج أحاديثه: سالم مصطفى البدوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010.
- الشعراني، عبد الوهاب، **المنن الوسطى**، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010.
- شعيب بن الحسين، أبو مدين، **أُنس الوحيد ونزهة المريد**، تحقيق: خالد زهري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة، 2004.
- عين القضاة الهمذاني، أبو عبد الله بن محمد الميانجي، **زبدة الحقائق**، ضبطها وصححها وعلّق عليها: عاصم إبراهيم الكيالي الحسيني الشاذلي الدرقاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008.
- عين القضاة الهمذاني، أبو عبد الله بن محمد الميانجي، **رسالة شكوى الغريب عن الأوطان إلى علماء البلدان**، ضبطها وصححها وعلق عليها: عاصم إبراهيم الكيالي الحسيني الشاذلي الدرقاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008.

- الطُّوسي، أبو نصر السَّراج، **اللُّمع**، حقَّقه، وقَدَّم له، وخرَّج أحاديثه: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة . مصر؛ مكتبة المثنى . بغداد، 1960.

- الغزالي، أبو حامد، **مشكاة الأنوار**، حققها وقدم لها: أبو العلا عفيفي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1964.

- القاشاني، كمال الدين عبد الرزاق، **اصطلاحات الصوفية**، تحقيق وتعليق: محمد كمال إبراهيم جعفر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981.

- القشيري، أبو القاسم عبد الكريم، **الرسالة القشيرية** (2 ج)، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1966.

- القشيري، أبو القاسم، **لطائف الإشارات**، المجلد الأول، قَدَّم له وحقَّقه وعلَّق عليه: إبراهيم بسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، 1981.

- القشيري، أبو القاسم، **لطائف الإشارات**، المجلد الثاني، قَدَّم له وحقَّقه وعلَّق عليه: إبراهيم بسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، 1981.

- القونوي، صدر الدين أبو المعالي محمد بن إسحاق، **النفحات الإلهية ويليه السرُّ الرباني المعروف بالنصوص**، تحقيق وتخريج وتعليق: احمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007.

- الكلاباذي، أبو بكر محمد، **التعرُّف لمذهب أهل التصوّف**، تقديم: يوحنا الحبيب صادر، دار صادر، بيروت، 2001.

- المكي، أبو طالب، **قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد** (2 ج)، مكتبة المتنبي. القاهرة، بدون تاريخ.

- ماسينيون، لويس . كراوس، بول، **كتاب أخبار الحلاج أو مناجيات الحلاج** (وهو من أقدم الأصول الباقية في سيرة الحسين بن منصور الحلاج البيضاوي البغدادي، طبعة باريس.

ـ المحاسبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد، **الوصايا أو النصائح الدينية والنفحات القدسية**، تحقيق وتعليق وتقديم: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.

ـ المحاسبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد، **القصد والرجوع إلى الله**، تحقيق وتعليق وتقديم: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.

ـ المحاسبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد، **بَدْء من أنابَ إلى الله**، تحقيق وتعليق وتقديم: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.

ـ المحاسبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد، **التوهُّم**، تحقيق وتقديم وتعليق: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.

ـ النابلسي، عبد الغني، **كتاب الوجود**، تحقيق السيد يوسف أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.

ـ النِّفَّري، محمد بن عبد الجبار بن الحسن، **كتاب المواقف ويليه كتاب المخاطبات** له أيضاً، طبعت للمرة الأولى بعد مقابلة سبع نسخ بعناية وتصحيح واهتمام: آرثر يوحنا أربري، مكتبة المتنبي، القاهرة، بدون تاريخ.

ـ النِّفَّري، محمد بن عبد الجبار بن الحسن، **الأعمال الصوفية**، راجعها وقَدَّم لها: سعيد الغانمي، منشورات الجمل، كولونيا ـ بغداد، 2007.

ـ النوري، أبو الحسين، **رسالة مقامات القلوب**، تحقيق: الأب بولس نويا، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1968.

ـ الهروي، عبد الله الأنصاري، **كتاب منازل السَّائرين**، حقَّقه وترجمه وقدَّم له: الأب س. دي لو جييه دي بوركي الدُّومنكي، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1962.

ـ وفا الكبير، محمد، **كتاب الأزل**، ضبطه وصحَّحه وعلَّق عليه: عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006.

للشاعر

1) شعر

قصائد أولى، ط1، دار مجلة شعر، بيروت، 1957؛

طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، 1988؛

طبعة جديدة، دار بدايات، جبلة، 2006.

أوراق في الريح، ط 1، دار مجلة شعر، بيروت 1958؛

طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، 1988؛

طبعة جديدة، دار بدايات، جبلة، 2006.

أغاني مهيار الدمشقي، ط1، دار مجلة شعر، بيروت، 1961؛

طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، 1988.

طبعة جديدة، دار بدايات، جبلة، 2006.

كتاب التحولات والهجرة في أقاليم النهار والليل،

ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 1965؛

طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، 1988.

طبعة جديدة، دار بدايات، جبلة، 2008.

المسرح والمرايا، ط1، دار الآداب، بيروت، 1968؛

طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، 1988.

طبعة جديدة، دار بدايات، جبلة، 2007.

وقت بين الرماد والورد، ط1، دار العودة، بيروت، 1970 ؛

طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، 1980.

هذا هو اسمي، دار الآداب، بيروت، 1980.

طبعة جديدة، دار بدايات، جبلة، 2007.

مفرد بصيغة الجمع، ط1، دار العودة، بيروت، 1977 ؛

طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، 1988.

طبعة جديدة، دار بدايات، جبلة، 2007.

كتاب القصائد الخمس، ط1، دار العودة، بيروت 1977؛

طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، 1988.

طبعة جديدة، دار بدايات، جبلة، 2007.

كتاب الحصار، دار الآداب، بيروت، 1985.

طبعة جديدة، دار بدايات، جبلة، 2008.

شهوة تتقدم في خرائط المادة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1987.

احتفاءً بالأشياء الواضحة الغامضة، دار الآداب، بيروت، 1988.

طبعة جديدة، دار بدايات، جبلة، 2007.

أبجدية ثانية، دار توبقال، الدار البيضاء، 1994.

طبعة جديدة، دار بدايات، جبلة، 2008.

الكتاب I ، دار الساقي، بيروت، 1995.

الكتاب II ، دار الساقي، بيروت، 1998.

الكتاب III، دار الساقي، بيروت، 2002.

فهرس لأعمال الريح، دار النهار، بيروت 1998.

طبعة جديدة، دار بدايات، جبلة، 2006.

تنبأ أيها الأعمى، دار الساقي، بيروت، 2003 .

أوّلُ الجسد آخِرُ البحر، دار الساقي، بيروت، 2003.

تاريخ يتمزق في جسد امرأة، دار الساقي، بيروت ، 2007

أهدا، هاملت تنشّقْ جنون أوفيليا، دار الساقي، بيروت، 2008

ورّاق يبيع كتب النجوم، دار الساقي، بيروت 2008

أشجار تتكئ على الضوء، دار بدايات، دمشق، 2010

ليس الماء وحده جواباً عن العطش، دار التكوين، دمشق، 2010

2) الأعمال الشعرية الكاملة

ديوان أدونيس، ط1، دار العودة، بيروت،1971؛

ط2، دار العودة، بيروت، 1975؛

ط3، دار العودة، بيروت، 1979.

الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت، 1985.

الطبعة الخامسة، دار العودة، بيروت، 1988.

الأعمال الشعرية الكاملة، طبعة جديدة، دار المدى، دمشق، 1996.

3) **دراسات**

مقدمة للشعر العربي، ط1، دار العودة، بيروت، 1971؛

ط5، دار الفكر، بيروت، 1986.

زمن الشعر، ط1، دار العودة، بيروت، 1972؛

ط6 مزيدة ومنقّحة، دار الساقي، بيروت، 2005.

الثابت والمتحول، بحث في الاتباع والإبداع عند العرب،

الطبعة الثامنة (طبعة جديدة، مزيدة ومنقحة، في أربعة أجزاء):

1 - **الأصول**،

2 - **تأصيل الأصول**،

3 - **صدمة الحداثة وسلطة الموروث الديني**،

4 - **صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري**.

دار الساقي، 2001.

فاتحة لنهايات القرن، ط1، دار العودة، بيروت 1980؛

ط2، دار النهار، بيروت، 1998.

طبعة 3، دار التكوين، دمشق، 2010

سياسة الشعر، دار الآداب، بيروت، 1985.

الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت 1985.

كلام البدايات، دار الآداب، بيروت 1989.

الصوفية والسوريالية، دار الساقي، بيروت، 1992.

النص القرآني وآفاق الكتابة، دار الآداب، بيروت، 1993.

النظام والكلام، دار الآداب، بيروت، 1993.

ها أنت أيها الوقت (سيرة شعرية ثقافية)، دار الآداب، بيروت 1993.

موسيقى الحوت الأزرق، دار الآداب، بيروت، 2002.

المحيط الأسود، دار الساقي، بيروت، 2006

محاضرات الإسكندرية، دار التكوين، دمشق، 2008

4) **مختارات**

مختارات من شعر يوسف الخال، دار مجلة شعر، بيروت، 1962.

ديوان الشعر العربي،

الكتاب الأول، المكتبة العصرية، بيروت، 1964.

الكتاب الثاني، المكتبة العصرية، بيروت، 1964.

الكتاب الثالث، المكتبة العصرية، بيروت، 1986.

ديوان الشعر العربي (ثلاثة أجزاء)، طبعة جديدة، دار المدى، دمشق، 1996.

مختارات من شعر السياب (مع مقدمة)، دار الآداب، بيروت، 1967.

مختارات من شعر شوقي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، 1982.

مختارات من شعر الرصافي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، 1982.

مختارات من الكواكبي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، 1982.

مختارات من محمد عبده (مع مقدمه)، دار العلم للملايين، بيروت، 1983.

مختارات من شعر الزهاوي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، 1983.

مختارات من الإمام محمد بن عبد الوهاب، دار العلم للملايين، بيروت، 1983.

(الكتب الستة والأخيرة اختيرت وقُدِّم لها بالتعاون مع خالدة سعيد)

5) ترجمات:

الأعمال المسرحية لجورج شحادة:

حكاية فاسكو، وزارة الإعلام، الكويت، 1972.

السيد بوبل، وزارة الإعلام،الكويت، 1972.

مهاجر بريسبان، وزارة الإعلام، الكويت، 1973.

البنفسج، وزراة الإعلام، الكويت، 1973.

السفر، وزارة الإعلام، الكويت، 1975.

سهرة الأمثال، وزارة الإعلام، الكويت، 1975.

مسرح جورج شحادة، طبعة جديدة بالعربية والفرنسية، دار النهار، بيروت.

الأعمال الشعرية الكاملة لسان ـ جون بيرس،

منارات، وزارة الثقافة ، دمشق، 1976؛

طبعة جديدة، دار المدى، دمشق، 1996

منفى وقصائد أخرى، وزارة الثقافة، دمشق، 1976

طبعة جديدة، دار بدايات، جبلة، 2007.

الأعمال الشعرية الكاملة لإيف بونفوا، وزارة الثقافة، دمشق، 1986.
طبعة جديدة، دار بدايات، جبلة، 2010

مسرح راسين:
فيدر ومأساة طيبة أو الشقيقان العدوان، وزارة الإعلام، الكويت، 1979.
طبعة جديدة، دار التكوين، دمشق، 2012

كتاب التحولات، أوفيد، المجمّع الثقافي، أبو ظبي، 2002.
طبعة جديدة، دار التكوين، دمشق، 2011
الأرض الملتهبة، دومينيك دو فيليبان، دار النهار، بيروت، 2004.

❖ دماءُ الأقرباء تتحرّك عند الالتقاء، ودماءُ المحبيّن تَجيشُ وتغلي.

(أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصراباذي)

❖ إيّاكَ أن تكون ميّت القلب.

❖ وأنا لا أقول إنني غريب،

بل إنني لا أنسجم مع الزمان، ولا ينسجم الزمانُ معي.

(أبو الحسن بن علي بن جعفر الخرقاني)

❖ الأمامُ لا يلتفت

❖ الوجود في الآن.

❖ من لم تكن له جهة، كان وجهاً كُلياً.

❖ الإنسان هو المقصود من الوجود.

❖ انْسَ ما علمتَ وامْحُ ما كتبتَ وازهدْ في ما جمعتَ.

(محيي الدين ابن عربي)

❖ مِن المصيبة أن يمحقَك وقتُكَ في ما لا يُجْدي عليك.

(عبد الكريم القشيري)

بدايات